

رد افتراءات المبشرين

على

آيات القرآن الكريم

للكتور

محمد جمعة عبد الله

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



Bibliotheca Alexandrina

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله رب العالمين ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى (لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد) ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وختم به النبيين ، وعلى إخوانه المرسلين ، الذين دعوا إلى عبادة الله وحده ، مخلصين له الدين .

وبعد ، فالديانات السماوية جميعها تدعو إلى عبادة إله واحد ، هو الله رب العالمين ، ليس كمثلته شيء ، بديع السموات والأرض ، وله وحده الخلق والأمر فيهما ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، يغفر الذنوب جميعا لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

والديانات السماوية واحدة في عقائدها ، وأصول العبادات والمعاملات ، ومكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ (١) .

وإنما تختلف في الفروع كصور العبادات وكمياتها وكيفياتها ، وقوانين التعامل ونحو ذلك حسب اختلاف استعداد الأمم والأزمنة والأمكنة ، ولذا قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ (٢) .

والقرآن الكريم هو كتاب الله الخالد ، أنزله هدى للعالمين : جنّهم وإنسهم ، عربهم وعجمهم ، من أهل الكتاب وغيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ (٣) . ولهذا تعهد

(١) الشورى ١٣ (٢) المائدة ٤٨ (٣) أول الفرقان

الله بحفظه من التحريف والتبديل والنسيان ليكون حجة خالدة على العالمين إلى يوم الدين ، فقد كانت آياته تكتب وقت نزولها على الرسول ﷺ ويحفظها أصحابه في الحال ، ويفهمون معناها ، ويعملون بمقتضاها .

وقد استمر عبر العصور ينقل تواترا : كتابة ، وقراءة ، وحفظا ، وصدق الله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) . فلم يحصل فيه تغيير أو تحريف ، أو تبديل ، أو نسيان ، حتى حرف واحد منه فصدق عليه قول الله تعالى : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٢) .

ولما كان القرآن الكريم كذلك ، وخاتم الكتب السماوية وأشملها ، وأعظمها وأكملها ، جعله الله آمينا وحارسا على جميع الكتب التي تقدمته ، وشهيدا وحاكما عليها فقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (٣) . فما وافقه منها فهو حق ، وماخالفه منها فهو باطل .

كلمة عتاب لأهل الكتاب

هذا وقبل البدء في مباحث هذا الكتاب أسوق كلمة عتاب إلى أهل الكتاب ، فقد كنا ننتظر منهم ونحن وهم من أسرة واحدة ، أسرة الديانات السماوية والتشريعات الإلهية ، وكتابتنا وكتابهم تنزل من مكان واحد ، وخرج من مشكاة واحدة ، ودعوتنا ودعوتهم واحدة في السبيل والغاية وأبونا وأبوهم واحد وهو ابراهيم (ص) خليل الرحمن ، فإذا لم تشفع لنا عندهم وحدة الأصل ، ورابطة النسب شفعت لنا وحدة العقيدة ولحمة الشريعة ، كان المنتظر — وأمرنا وأمرهم كذلك — أن يكون أهل الكتاب عوننا لنا ضد العدو الخارجي ، أهل الديانات الأرضية والعقائد الوثنية ، وعبادة الأشخاص ، الذين لم يجدوا أنفسهم أهلا لعبادة الله ، والسعادة بتشريع السماء ، فعبدوا الأشخاص ، وشرعوا لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله ، وكان المنتظر من أهل الكتاب — وهم إخواننا في الدين والنسب — إذا ناقشوا أو جادلوا أهل الإسلام في شيء أن يكون ذلك بروح المودة والمحبة والتفاهم المخلص ، والرغبة

(١) الحجر ٩ (٢) فصلت ٤٢ (٣) المائدة ٤٨

الصادقة في الوصول إلى الحقيقة بالتي هي أحسن .

ولكنهم كانوا علينا لا لنا ، وحربا ضدنا لا معنا ، فطعنوا في كتابنا بروح العنف والشدّة ، والحقد والضغينة ، وهاجمونا بدافع البغض والكراهة والبغى والعدوان ، وطمعنوا في صميم عقيدتنا وأصول ملتنا .

١ — فرموا الإسلام بالإكراه في الدين ، وبالتعصب والدعوة إلى الفجور ، واتهموه بأنه سبب تأخر الشعوب ، فقال هـ . جيومان . فـ . لوستير^(١) : إن محمدا مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم ، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو .

مأعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين وبين النصارى ، إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة ، وقالوا للناس : أسلموا أو تموتوا ، بينما أتباع المسيح قد كسبوا النفوس ببرهم وإحسانهم . أهـ

وقال المنسيوركولى في كتابه (البحث عن الدين الحقيقي) تحت باب الإسلام^(٢) : في القرن السابع للميلاد برز في الشرق عدو جديد ، ذلك هو الإسلام الذى أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب ، لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه ، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب .

٢ — وقاموا بمحلمة تشكيك في القرآن ونبي الإسلام محمد ﷺ فقال المبشرجون تاكلى : يجب أن نستخدم القرآن — وهو أمضى سلاح ضد الإسلام نفسه — بأن نعلم المسلمين أن الصحيح في القرآن غير جديد ، وأن الجديد فيه غير صحيح^(٣) .

ويزعم المبشر نلسن وغيره أن الإسلام مقلد ، وأن أحسن ما فيه مأخوذ من النصرانية ، وسائر ما فيه مأخوذ من الوثنية^(٤) .

(١) في مؤلفه الذى يدرس في صفوف الشهادة الابتدائية بمدرسة القديس يوسف للبنات في بيروت ، وفي مدارس إرسالياتها تحت عنوان (تاريخ فرنسا) ٨٠ ، ٨١ (٢) والكتاب عبارة عن محاضرات في التربية الدينية ، وصدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحى في باريس طبع سنة ١٩٢٨ م (٣) واجب المسلمين في نشر الإسلام للأستاذ زيد فياض (٤) مفتريات اليونسكو للأستاذ عبد الله

وحكى الكونت هنرى دى كاسترى فى كتابه (الإسلام سواخ
وخواطر) عن أحد المبشرين قوله : إن الرسول ﷺ كان يقرأ ويكتب
فقرأ التوراة والإنجيل وأخذ تعاليمه منهما(١) .

وجاء فى كتاب مادة التاريخ الذى يدرس للصف الرابع بالمدرسة
البطيريركية فى بيروت(٢) : واتفق لمحمد فى أثناء رحلته أن يعرف شيئا
قليلا من عقائد اليهود ، ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى
أقنعتة بأن الله اختاره رسولا ص-٣١

والقرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما كان هو
يتكلم ... وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف
إذا اقتضت الضرورة ص-٣٢ ، وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به
يدونون كلماته على عجل ص-٣٦

ونقل كارليل فى كتابه الأبطال عن بعض كتاب الأوربيين : أن
دين الإسلام كذب وأن محمدا لم يكن على حق(٣) .

٣ — ويذلل المبشرون نهاية جهدهم لإخراج المسلمين من دينهم ، وتنفيرهم
منه ، وبلغ من تحمسهم فى ذلك أن قال رئيس مؤتمر القدس(٤) القس
صمويل زويمير فى خطابه هيئة التبشير :

... ولكن مهمة التبشير التى ندبتكم دول المسيحية للقيام بها فى
البلاد اغممية ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية ، فإن فى هذا
هداية لهم وتكريما ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح
مخلوقا لا صلة له بالله ، وبالتالي فلا صلة تربطه بالأخلاق التى تعتمد
عليها الأمم فى حياتها ، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح
الإستعماري فى الممالك الإسلامية ، وهذا ماقمتم به خلال الأعوام
السالفة خير قيام ، وهذا ماأهنتكم عليه ، وتهنتكم عليه المسيحية

(١) من أوروبا والإسلام للدكتور عبد الحلیم محمود ٣١ (٢) ويحمل غلافه هذا العنوان (تاريخ
محاضرات ج . إيزاك — حررها أ . الباشا للشرق الأدنى لطلبة الصف الخامس عن العصور الوسطى)
راجع التبشير والاستعمار ٦٨ ، ٦٩ للدكتور مصطفى الخالدى والدكتور عمر فروخ (٣) أوروبا
والإسلام للدكتور عبد الحلیم محمود ٣٧ ، ٣٨ (٤) الذى عقد بها سنة ١٩١١ م

والمسيحيون جميعاً^(١) .

وأن قال وليم جيفور بالكراف : متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة^(٢) التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه^(٣) .

٤ — وألف القمص زكريا بطرس رسالة بعنوان (بين المسيحية والإسلام) قدمها له القمص يوحنا بسطوروس ، ونشرتها كنيسة السيدة العذراء بطنطا : ادعى فيها أن القرآن يؤيد التثليث ويذكره فى آياته ، وأنه يشهد للمسيحيين الحاليين بالتوحيد ، وأنهم غير مشركين ، وغير كفرة ، وأن المسيح هو الله المتجسد .

٥ — ونشرت رسالة للأبنا شنودة (البابا شنودة حالياً) بعنوان (القرآن والمسيحية) قال فيها عن المسيح — توسلاً للقول بألوهيته — فى ص ١ ، ٢ : إنه ولد بطريقة عجيبة لم يولد بها إنسان من قبل^(٤) ولا من بعد ... ويقوم بمعجزات لم يعملها أحد مثله .

وأنكر فى تأكيد نسخ القرآن للتوراة والإنجيل فقال فى ص ٢ : ولم يذكر القرآن إطلاقاً أنه نسخ التوراة أو الإنجيل ، بل على العكس ذكر أن المؤمنين ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل . وقال فى ص ٨ : إن كل ماسبق ينفى بأسلوب قاطع الفكرة الخاطئة التى ظنها البعض وهى أن القرآن نسخ التوراة والإنجيل ، من المحال أن يكون ناسخاً لهما وفى نفس الوقت يدعو إلى الإيمان بهما ، ويحذر من إهمال ذلك وأنكر تحريف أهل الكتاب للتوراة والإنجيل الموجودين حالياً ، فقال فى ص ٦ : وكون القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب فهذا يعنى صحة الإنجيل والتوراة وسلامتهما من التحريف ، وإلا فإنه يستحيل على المسلم أن يؤمن بأن القرآن نزل مصدقاً لكتاب محرف .

وادعى بأن القرآن منح النصارى وظيفة الإفتاء فى الدين الإسلامى ، فقال فى ص ٤ : ولم يقتصر القرآن على الأمر بحسن مجادلة

(١) حقائق عن التبشير لعماد شرف ٣٣ (٢) يقصد حضارة أوروبا الفاجرة

(٣) من الغارة على العالم الإسلامى ٣٩ (٤) أى حتى آدم —

أهل الكتاب ، بل أكثر من هذا: وضع القرآن النصارى في مركز الإفتاء في الدين وساق من الآيات ما زعمه مؤيدا لادعائه . وزعم أن القرآن يصف النصارى الموجودين حاليا بالإيمان ، وعبادة الله ، وعمل الخير ، وأنهم من الصالحين الناجين من عذاب الله يوم القيامة ، وإن لم يؤمنوا . بمحمد ﷺ وكتابه ، إلى غير ذلك مما يتعارض مع الآيات القرآنية . والتعاليم الإسلامية .

وفي سنة ١٩٧٣ م ألقى البابا شنودة خطبا في الكنيسة المرقسية الكبرى بالإسكندرية في اجتماع سرى أعان الله على إظهار ما وقع فيه ، كله هجوم على القرآن ونبينا محمد ﷺ ، وعلى الإسلام والمسلمين . ومما جاء فيه قوله : (يجب مضاعفة الجهود التبشيرية الحالية ، إذ أن الخطة التبشيرية التي وضعت بنيت على أساس هدف اتفق عليه للمرحلة القادمة ، وهو زحزحة أكبر عدد ممكن من المسلمين عن دينهم والتمسك به على ألا يكون من الضروري اعتناقهم المسيحية ، فإن الهدف هو زعزعة الدين في نفوسهم ، وتشكيك الجموع الغفيرة منهم في كتابهم ، وصدق محمد ، ومن ثم يجب عمل كل الطرق ، واستغلال كل الإمكانيات الكنسية للتشكيك في القرآن وإثبات بطلانه ، وتكذيب محمد) .

ثم قال-بالحرف الواحد- : (وليعلم الجميع خاصة ضعاف القلوب أن القوى الكبرى في العالم تقف وراءنا ، ولسنا نعمل وحدنا ، ولا بد من أن نحقق الهدف ، لكن العامل الأول والخطير فيما نريد هو وحدة شعب الكنيسة ، وتماسكه وترابطه)^(١) . كما نشرت رسائل أخرى من هذا القبيل .

ولما كانت تلك الرسائل تنشر بين المسلمين ، وما جاء بها يراد به التشكيك في القرآن ونبى الإسلام ﷺ ، ويتعارض مع عقائدنا وما جاء في قرآننا ، في حين أن كل مؤلف منهم يدعى أن القرآن يؤيده

(١) من قذائف الحق للأستاذ محمد الغزالي ٦٢-٦٣

فيما يفترية ، ويستشهد بآياته في غير موضعها تحريفا لها ، وانحرافا بها عما وضعت له .

أصبح من الواجب المحتم دحض ما يتعارض منها مع تعاليم القرآن الكريم ، حفاظا على عقائد المسلمين من الزيغ ، وعلى كتابنا ورسولنا من التشكيك فيهما ، ودمغاً لما جاء فيها من أن القرآن يؤيد التثليث ، ويقر الاتحاد والحلول ، ولا يعارض التشبيه والتجسيم ويجعل من النصارى مفتين في الدين وتصحيحا للآيات التي ينقلها كل مؤلف ناقصة حرفاً أو كلمة ، أو ما يطل مدعاه ليفسرهما على حسب هواه ، ويذهب بها إلى غير ما شرع الله ، ومن الله تعالى أستمد العون والتوفيق ،،،) .

د / محمد جمعة

الفصل الأول

في الرد على ما جاء في رسالة القمص زكريا بطرس
مما يتعارض مع ما جاء به القرآن الكريم

وبه أحد عشر مبحثاً

- الله ليس كمثلته شيء .
- لا يعرف الله إلا الله .
- التوحيد والتثليث نقيضان لا يجتمعان في القرآن .
- منشأ عقيدة التثليث .
- القرآن لا يشهد بالتوحيد للمسيحيين المعاصرين لنزوله ولم يؤمنوا به وبرسوله .
- والقرآن لا يشهد لهم أنهم غير مشركين .
- والقرآن لا يشهد لهم أنهم غير كفرة .
- المسيح — عليه السلام — بن مريم وليس ابن الله .
- المسيح — عليه السلام — ليس هو الله .
- الله منزّه عن التجسد والحلول .
- حول عقيدة التجسد والحلول والصلب .

المبحث الأول الله ليس كمثله شيء

قال القمص زكريا بطرس في ص ٥٥ :

كيف إذن تبحثون عن الله ، وتعرفون عقله وتدركون أفكاره . أه
فقد وصف الله — سبحانه وتعالى — بالعقل والتفكير ، والله منزّه عن ذلك
لأمور :

(١) لأن الله — جل وعلا — لا يوصف ولا يسمى إلا بما وصف وسمى به نفسه
في كتابه الكريم ، أو سنة رسوله ﷺ الصحيحة الصريحة ، لأن ذلك
توقيفي ، ولم يصف أو يسم — سبحانه — نفسه في قرآنه المهيمن والأمين
على سائر الكتب المتقدمة ، ولا في سنة رسوله ﷺ بالعقل والتفكير ، فإله
قد أحاط بكل شيء علما ، من غير إعمال عقل أو تفكير ، قال تعالى :
﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا
أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ (١) .

(٢) ولأن العقل آلة التمييز بين الخير والشر ، والنافع والضار ، والشئ وغيره ،
والتفكير ترتيب أمور معلومة للتوصل بها إلى معرفة أمور مجهولة ، وذلك
من صفات البشر ، والله منزّه عن مشابهتهم ، قال تعالى : ﴿ ليس كمثله
شئ وهو السميع البصير ﴾ (٢) .

(٣) ولأن التفكير يكون ممن يجهل عواقب الأشياء ، ولا يعرف مصير
الأمور ، تنزه الله عن ذلك ، فهو القائل : ﴿ ألا إلى الله تصير
الأمور ﴾ (٣) ، والقائل : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف
الخبير ﴾ (٤) .

(١) سبأ ٣ (٢) الشورى ١١ (٣) آخر الشورى (٤) الملك ١٤

المبحث الثاني لا يعرف الله إلا الله

وقال في صده أيضا : الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله . أ هـ
وردا لذلك أقول :

(١) المعروف عن الروح في القرآن الكريم عندما يسند إليه شيء ، أنه جبريل —
عليه السلام — قال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون
من المنذرين ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ (٢) . وقال :
﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ (٣) ، وجبريل-عليه السلام — وأى
مخلوق — مهما كان علمه وفضله — لا يدرك ذات الله ولا يعرف كتبها
وحقيقتها ، قال تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو
اللطيف الخبير ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به
علما ﴾ (٥) . وقال : ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو
العزیز الحكيم ﴾ (٦) . والمثل الأعلى : المثل البديع الذى ليس لغيره مايدانيه
ونهى سبحانه عن تشبيهه ، أو تمثيله بالغير ، فقال تعالى : ﴿ فلا
تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ (٧) .

وقال على — كرم الله وجهه — : (إن الله احتجب عن البصائر كما
احتجب عن الأبصار) .

(٢) وأيضا لا يُعرف الغائب إلا بقياسه على الحاضر ، قياس الأشباه على

(١) الشعراء ١٩٣ ، ١٩٤ (٢) النبأ ٣٨ (٣) القدر ٤

(٤) الأنعام ١٠٣ (٥) طه ١١٠ (٦) الروم ٢٧ (٧) البقرة ٢٢

النظائر ، والله — سبحانه — لا مثل له ولا نظير ، فشتان بين المخلوق والخالق ، وبين الفاني والباقي ، ولذا قال سبحانه : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ﴾ (١) ، أى هل تعلم من يسمى باسمه ، أو يسمو إلى منزلته وعظمته .

وعن عبدالله بن مسعود قال : سألت النبي ﷺ : أى الذنب أعظم عند الله ؟

قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » رواه الشيخان (٢) .

(٣) إننا نعرف جلال الله وعظمته بمخلوقاته ، ولكننا لا ندرك كنهه ولا ذاته .

ومن العجب أنه بعد أن دون ماسبق في رأس الموضوع ، عاد فناقض نفسه ، فنقل عن أبى بكر الصديق (ض) قوله : (البحث في ذات الله إشراك ، والجهل بذاته إدراك) وعن الجنيدى قوله : (لا يعرف الله إلا الله)

ولكنه عاد إلى الخلط والتجسيم ، وتشبيهه الله بمخلوقاته ، فقال فى ص١٧ : المسيح هو الله المتجسد . المسيح هو الكلمة المتجسدة . المسيح هو ابن الله المتجسد . وقال فى ص١٨ : وابن الله من له طبيعة الله ، وفى ص١٩ قال : هل خلت السماء من الله عند تجسده ؟

* * *

المبحث الثالث

دحض افتراءات النصارى

أن الثالث مذكور فى آيات القرآن

ويشتمل على : التوحيد والتثليث نقيضان لا يجتمعان فى القرآن . القرآن يحطم الثالث ويتوعد الداعين إليه . تهديد من الله ووعد شديد لمن يحاولون بعث الثالث من جديد . حول عقيدة الثالث .

(١) مريم ٦٥ (٢) الزلزال ١٦ / ١

« التوحيد والثلاث » نقيضان لا يجتمعان في القرآن

قال القمص زكريا بطرس في رسالته (بين المسيحية والإسلام) ص ٦ :
عقيدتنا : الله واحد في ثلوث : الآب ، والكلمة ، والروح القدس . وقال في ص ٩ :
تقول الآية : (الشهود في السماء ثلاثة : الآب ، والكلمة ، والروح القدس . هؤلاء
الثلاثة هم واحد) ثم قال : فلا نقصد من التثليث أن هناك ثلاثة آله بل إله واحد وهذا
الإله الواحد موجود بذاته ويطلق على ذلك الآب : ناطق بكلمته ، ويطلق على ذلك
الابن : حى بروحه ، ويطلق على ذلك الروح القدس .

ثم زعم أن القرآن يؤيد ثلوثه فقال :

ويذكر القرآن هذا الثلوث في آياته كما يتضح من الآتي :

سورة النساء : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ آفَاقًا إِلَى
مَرْيَمَ وَرُوحٍ مِنْهُ ﴾ فيتضح من هذه الآيات الثلوث الذي تؤمن به ذات الله ،
والكلمة ، والروح القدس .

وللرد على ذلك أقول :

لو أنه اقتصر على نشر هذه العقائد بين أهل دينه ، ولم يعمل على نشرها بين
المسلمين ، ولم يدع أن القرآن الكريم — كتاب التوحيد الخالص — يؤيدها ، لما تعرضت
للرد عليه ، وقلنا كما قال الله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِي ﴾ أما وقد فعل الضد فلا
جمال إلا الرد إجمالاً ، ثم تفصيلاً ، فأقول : بعد أن قام أصحاب الثلوث ودعائه ،
بتقسيم الله (سبحانه) إلى ثلاثة أقانيم^(١) . أو أجزاء لكل منها طبيعة الله (كما
يقولون) فجعلوا الله الواحد ثلاثة ، قاموا بتوزيع أعمال الكون بينها ، فخصصوا
لكل واحد مجموعة من العمل لا يشاركه فيها غيره .

(١) قال الأستاذ محمد مجدى مرجان في كتابه (الله واحد أم ثلوث) ص ٩ : الأقانيم كلمة سريانية الأصل
مفردا أقنوم ، وهى تعنى شخصاً أو كائناً مستقلاً بذاته — وقال فى المنجد الأقنوم ج أقانيم :
الشخص ، سريانية الأصل

قال الأستاذ محمد مجدى مرجان^(١) : فالله الآب ينسب إليه الخلق والتبني والدعوة .

أما الله الابن ، فينسب إليه فداء البشرية وغفران الخطايا والذنوب ، أما الله الروح القدس فينسب إليه منح الميلاد الثانى ، والحياة الطاهرة للبشر ، وتقديس النفوس .

ومعنى ذلك أن الله الآب لا يستطيع غفران الذنوب ، وأن الله الابن ليس من اختصاصه تقديس النفوس ، وأن الله الروح القدس لا يملك الخلق . أه .

هذه هى عقيدتهم التى فلسفوها وأرادوا نشرها بين المسلمين كما بينها من نشأ فيهم وتحرر منهم وصدق الله حيث يقول : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾^(٢) . وحيث يقول : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾^(٣) .

إن الإسلام الذى قوامه التوحيد الخالص هو دين محمد ودين المسيح ، ودين الأنبياء جميعا عليهم الصلاة والسلام ، ولكن الجمع بين دين القرآن الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبين الديانة المبنية على أن الواحد ثلاثة حقيقة ، والثلاثة واحد حقيقة من المحال ، إذ كيف يمكن الجمع بين التوحيد والتثليث فهذه معادلة يستحيل تحقيقها ولا يمكن لعاقل أن يستسيغها ، ولذا قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره ٣ / ٤٣٦ : وزعموا أن الآب إله ، والابن إله ، والروح إله ، والكل إله واحد ، ثم قال : واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل ، فإن الثلاثة لا تكون واحدا ، والواحد لا يكون ثلاثة ، ولا يرى فى الدنيا مقالة أشد فسادا وأظهر بطلانا من مقالة النصارى . أه على أن القاعدة عند المسلمين أنه إذا تعارض ظاهر النقل مع العقل السليم قدم العقل وصرف النقل عن ظاهره المستحيل ، فكيف إذا كان العقل السليم والنقل الصحيح المتواتر يقفان فى وجه ماجئت به ، ويعلنان عليه حربا ضارية ، لا يقف أمامها شيء .

تتبع أدلة التوحيد الخالص فى القرآن الكريم ، وكتب العقيدة عند المسلمين ،

(١) المرجع السابق ص ٢٧ (٢) المؤمنون ٩١ (٣) الاسراء ٤٢ ، ٤٣

فسوف تجدهما لاتقف عند حد ، وانظر إليها بعين الإخلاص ، فستجذبك إليها كما جذبت غيرك ، وسيجرفك تيار التوحيد إلى الإله الواحد في كل شيء . الذى ليس كمثلته شيء .

وأعود إلى الرد على كلامه تفصيلاً فأقول : قال : عقيدتنا الله واحد في ثالوث : الآب والكلمة والروح القدس .

فبناء على كلامه يكون الله هو الكلمة ، وقد أكد ذلك في ص ١٠ فقال : الكلمة هو الله ، والكلمة هي المسيح ، فالله هو المسيح ، وذلك باطل عقلا ونقلًا . أما عقلا فالخالق وهو الله غير المخلوق ، وهو المسيح عليه السلام ، والمحدث غير الحادث ، فكيف يكون هو ؟ فإن قلت بأن عيسى المسيح غير مخلوق فقد قلت بتعدد الآلهة فكيف تدعون أنكم موحدون ؟ وأيضا القرآن الذى تستشهدون به والسورة التى تستدلون بما جاء فيها وهى سورة آل عمران ، والآية التى ذكرت من هذه السورة فى ص ١٠ وهى ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ وما جاء بعدها ، فى ذلك ما يثبت أن المسيح مخلوق كما خلق غيره من الرسل وسائر البشر والعالم جميعه ، قال تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت رب أى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (١) فبشرها به قبل أن يخلقه وأعلمها أنه سيخلقه ثم خلقه وحتى لا يعجب أحد من خلق عيسى من غير أب ، قال تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ (٢) .

وأما نقلا فلنقله تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ (٣) .

(١) آل عمران ٤٥ - ٤٧ (٢) آل عمران ٥٩ (٣) المائدة ١٧

وقوله سبحانه : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ (١) .

قال الأستاذ السيد رشيد رضا عند تفسيره للآية الأولى في ٦ / ٣٠٨ :
فجميع فرق نصارى هذا العصر تقول : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وأن المسيح ابن مريم هو الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وبناء على كلامه أيضا يكون الله هو الروح القدس ، والروح القدس هو الله ، وهذا لا يقره عقل سليم ولا نقل صحيح من كتاب سماوى معصوم .

أما العقل فلأن روح القدس عندهم ليس اسما ولا صفة لله تعالى ، لأن أسماء وصفاته وكمالاته جل جلاله لا نهاية لها ، بل هو عندهم جوهر الله . تعالى الله عما يقولون .

قال الأستاذ يس منصور : إن الروح القدس هو الأَقنوم الثالث فى اللاهوت ، وهو ليس مجرد تأثير أو صفة أو قوة ، بل ذات حقيقى وشخص حى ، وأقنوم متميز ولكنه غير منفصل ، وهو وحدة أقنومية غير أقنوم الآب وغير أقنوم العلم ومساولهما فى السلطان والمقام ، ومشترك وإياهما فى جوهر ولا هوت واحد (٢) .

وحيث إن الروح القدس مساو لله فى كل شيء فإن كان تصرفه فى الكون هو نفس تصرف الله كان وجوده مع الله عبثا وإن كان غيره لزم عجز الله عن بعض ما فى كونه وذلك محال ، لأنه صاحب العلم المحيط والإرادة الكاملة والقدرة الشاملة وأما النقل فالروح (٣) تطلق ويراد بها الوحي الإلهى كما فى قوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ (٤) وتطلق ويراد بها القوة التى يؤيد الله بها المؤمنين المخلصين كما فى قوله تعالى : ﴿ لا تعبد قوما يؤمنون بالله واليوم

(١) المائدة ٧٢

(٢) الله وأحد أم ثالث ١١٦ (٣) قال فى المختار : الروح يذكر ويؤنث والجمع الأرواح ، ويسمى القرآن وعيسى وجبرائيل عليهما السلام روحا ، والنسبة الى الملائكة والجن روحانى بضم الراء ، والجمع روحانيون ، وكذا كل شيء فيه روح روحانى بالضم .

(٤) الشورى ٥٢

الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو
عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴿١﴾ وهذه القوة
تشمل الملائكة الأطهار ، وتشمل الرعب الذى يلقيه الله فى قلوب الأعداء ،
والوحى الإلهى الذى يؤيد الله به المؤمنين الصادقين ، وكم لله من قوة معنوية يؤيد
بها المجاهدين فى سبيله ، وتطلق الروح ويراد بها جبريل عليه السلام كما فى قوله
تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ ﴿٢﴾ وقوله
تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيناً من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن
مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ ﴿٣﴾ والراجح أن روح القدس هنا جبريل
بدليل قوله تعالى :

﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى
للمسلمين ﴾ ﴿٤﴾ وروح القدس أى الروح المقدس أى الطاهر . وجبريل خلق من
خلق الله فكيف يكون هو الله أو مساويا له ؟ وقوله تعالى : ﴿ وأيدناه بروح
القدس ﴾ يعطينا أن روح القدس خاضع للتعاليم الله وتحت تصرفه وأمره سواء
كان روح القدس هو جبريل أو قوة غيبية أو وحيا من الله ومن كان خاضعا لله
وتحت تصرفه وأمره كيف يكون هو الله أو مساويا له ؟

وأىضا يقول الله فى كتابه الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه
والذى تستدلون بآياته : ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب
العالمين ﴾ ﴿٥﴾ وهذا قصر يعطينا أن خلق كل ما فى الكون وتصريفه لله وحده ليس
لغيره من ذلك شئ ولذلك قال ابن عباس من بقى له شئ فليطلبه ، فأين مابقى
للأقانيم من عمل فى هذا الكون ؟

فما هذا العبث ، وكيف تقولون بأهله لا عمل لها ؟
لقد توالى الآيات وتتابع فى القرآن الكريم معلنة أنه لا شئ لأحد مع الله
فى هذا الكون على الإطلاق ، فقال تعالى بصيغة الحصر والقصر ﴿ والله غيب
السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل

(١) أخر المجادلة (٢) الشعراء ١٩٣ ، ١٩٤
(٣) البقرة ٨٧ (٤) النحل ١٠٢ (٥) الأعراف ٥٤

عما تعملون ﴿١﴾ وقال : ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ ﴿٢﴾ فأين مابقى لغير الله من الثالث ؟ إن أعضاء الثالث الذين لا عمل لهم لا يصح وجودهم مع الله الذى يقول : ﴿له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير﴾ ﴿٣﴾ ولذا قال الأستاذ محمد مجدى مرجان : إن دعوة الثالث ظلت مجهولة عن البشر وعن كافة الأنبياء منذ أن خلق الله العالم حتى طلع بها علينا دعاة الثالث .

أما الأنبياء كافة فقد نادوا دوماً بوحداية الخالق مدبر الوجود الذى لا يساويه ولا يماثله أحد والذى لا يشبهه ولا يدانيه شئ بل هو سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد منذ الأزل وإلى الأبد .

قال بهذا كل الأنبياء ونزلت به جميع رسالات السماء وسطرته كافة الكتب السماوية التى يقدها البشر من جميع الأديان . سواء منها التوراة أم الإنجيل أم القرآن (٤) . أهـ

ثم انظر إليه كيف ينطق بما يشهد عليه فيقول :

(فلا يقصد من التثليث أن هناك ثلاثة آلهة ، بل إله واحد) فيريد أن يقنعنا بأن التثليث يدل على التوحيد فلوضح هذا لكان التوحيد يدل على التثليث ، وهذا لا يثبت فى لغة ولا يقول به عاقل . ولماذا هذا التأويل البعيد ، وكلامكم ينقضه ، فأنتم تقولون : كل أقنوم من الثلاثة مساو لله فى طبيعته وجوهره والله إله ، فكل أقنوم إله . يؤيد ذلك ماجاء فى ص ١٠ : روح القدس هو روح الله ، وروح الله غير مخلوق وغير المخلوق هو الله . والأستاذ عوض سمعان يقرر : فى كتابه (الله بين الفلسفة والمسيحية) أن الله رغم إعلاننا أنه واحد إلا أنه فى حقيقته وباطنه مكون من ثلاثة أجزاء ، وكل جزء من هذه الأجزاء والتعينات هو إله كامل (٥) . أهـ

فهو يقرر أن الله رغم ظهوره للناس على أنه واحد إلا أنه فى حقيقته وداخليته ثلاثة آلهة ، فهو واحد فى الظاهر ، وثلاثة فى الباطن ، تعالى الله عن ذلك فهو

(١) آخر هود (٢) آخر الشورى (٣) الحديد ٢
(٤) الله واحد أم ثالث ١٢٨ (٥) المرجع السابق ٢٤

القائل في القرآن الكريم الذي تعهد بحفظه : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ (١) . جل شأن الله ، فليس معه أو دونه إله ، وليس قبله أو بعده أحد ، وليس مظهره مخالفاً لمخبره ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ (٢) .

ثم يقول القمص زكريا :

(وهذا الإله الواحد موجود بذاته ويطلق على ذلك الآب ، ناطق بكلمته ويطلق على ذلك الابن ، حي بروحه ويطلق على ذلك روح القدس) ويوضح عقيدتهم هذه القمص ابراهيم في كتابه (التثليث والتوحيد) ص ١٥٦ فيقول : (إن الذات والد للنطق فيقال له الآب ، والنطق مولود من الذات فيقال له الابن والحياة منبعثة من الذات فيقال لها الروح القدس) (٣) .

أقول : هل يسمى الله ناطقا وكلامه نطقا ؟ لم يرد في القرآن المجيد المهيمن على غيره من الكتب تسميته ناطقا وتسمية كلامه نطقا ، لأن النطق من صفات الحوادث وما شابه الحوادث فهو حادث مثلها ، وإنما ورد في القرآن تسمية الله متكلماً وتسمية قرآنه كلاماً ، فقال تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ (٤) . وقال : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ (٥) . لأن الكلام قد يكون بلا حرف وصوت وقدما قال الشاعر :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وقال ابن تيمية وليس في التوراة والإنجيل والزبور تسمية الله ناطقاً (٦) .

وقوله : حي بروحه يلزم مشابهة الله للحوادث لأنها هي التي تحيا بوجود الروح فيها والله منزه عن ذلك إذ ما شابه الحوادث فهو حادث ، ويلزم منه أيضاً أن يكون الله مركباً من ذات وروح ، والمركب محتاج إلى من يركبه ، فيكون حادثاً — وذلك محال ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

(١) الحديد ٣ (٢) الأنعام ١٠٢ ، ١٠٣ (٣) المصدر السابق ١١ (٤) النساء ١٦٤ (٥) التوبة ٦ (٦) الجواب الصحيح ١٤٥/٢

فلا يجوز أن تضاف الروح إلى الله ويراد بها ما يريد الإنسان بقوله : روحى ، بل تضاف إليه على أنها ملائكته ، أو وحيه ، أو تأييده ، أو مخلوقه والله سبحانه يضيف إلى نفسه الأعيان التى يخصها بخصائص يحبها مثل كلمة الله ، ورسول الله ، ﴿ وطهر بيتى للطائفين .. ﴾ (١) . ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ (٢) . ﴿ ناقة الله ﴾ (٣) .

وكذلك اختصت الروح الخيرة بأن يقال لها روح الله ، قال تعالى فى خلق آدم عليه السلام : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (٤) . وقال فى خلق الإنسان ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ﴾ (٥) .

وقال فى خلق عيسى عليه السلام : ﴿ والذى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا ﴾ (٦) . فالنسمة التى تبعث الحياة فى الإنسان روح من الله ، مخلوقة له سبحانه تعرف بآثارها ولا يعرف كنهها إلا الله قال تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (٧) . والخلق والأمر ملك لله وتحت تصرفه وقهره كما سبق بيانه .

لكن الأرواح الخيرة تضاف لله فيقال لها روح الله أو أرواح من الله ، بخلاف الأرواح الخبيثة كأرواح الشياطين والكفار ، فإنها مع كونها مخلوقة لله لاتضاف إليه إضافة الأرواح المقدسة ، كما يضاف إليه تعالى الخير ولا يضاف إليه الشر تأدبا قال تعالى : ﴿ وأنا لاندري أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ (٨) . وقال سبحانه على لسان ابراهيم : ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ (٩) .

ومع هذه الأدلة العلمية والنقلية ، التى تنزه الله سبحانه عن مشابهته للحوادث ، يقول الأستاذ يس منصور ، إننا لا يمكننا أن نفهم الله إلا عن طريق تصورهِ بالصورة البشرية (١٠) .

(١) الحج ٢٦ (٢) الإنسان ٦ (٣) الشمس ١٣

(٤) ص ٧١ ، ٧٢ : (٥) السجدة ٧ : ٩ (٦) الأنبياء ٩١ (٧) الإسراء ٨٥

(٨) الجن ١٠ (٩) الشعراء ٨٠ (١٠) الله واحد أم ثالث ١٤

فإنه في نظر فلاسفة المسيحيين له كيان قائم بذاته كالإنسان تماما والله له ابن ، هو المسيح المتجسد ، كالإنسان كذلك ، والله حي بروحه كالإنسان أيضا ، ومن هذه الأقسام ، أو العناصر الثلاثة ، يتكون الله ، كما يتكون الإنسان تماما .

بهذا المنطق الغريب يتحدث أصحاب الثالث ، وبهذا المنطق العجيب ، يريدون أن يفتخروا بالثالث ، والتعدد ويريدون أن ينشروه بين المسلمين ويحملوهم على اعتناقه وتقبله . يريدون هذا أو خيل إليهم ذلك فخالوه ، ونسوا أن المسلمين بكتابتهم المجيد ، في حصن حصين منه ، ويكفهم من القرآن الكريم ، الذى يتمشى مع العقول ، قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ (٢) .

القرآن الكريم يحطم الثالث ويتوعد الداعين إليه

وإن تعجب فعجب عجاب لدعاة الثالث حين أراذوا الإمعان في تضليل الدهماء من الناس وتغطية موقفهم المتهاوى أمام العامة ، فتظاهروا بأن في القرآن ذكرا للثالوثهم وإشادة به ، فجاءوا بآية منه بعد أن حذفوا منها ما علموه ضدّهم من صبرها وعجزها ، وأبقوا منها ما زعموه تدعيما للثالوثهم ، فكان هدمها له وقضاء عليه ، وكانت الآية من بدايتها لنهايتها حربا على الثالث ومحو له من الوجود .

﴿ أفرايتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ﴾ (٣) . كيف حطمها القرآن المجيد بمعاول التوحيد إنه حطم الثالث فلم تقم له قائمة أمام التوحيد ، كما حطم هذه الأصنام فلم يعد لها أثر في الوجود ، وصدق الله : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ (٤) ، ظن القمص زكريا أنه وجد ضالته ، وأنى بما يسند ثالوثه المتداعى ، ويبقى فيه الروح ولو إلى

(١) الشورى ١١ (٢) سورة الإخلاص .

(٣) النجم ١٩ ، ٢٠ (٤) الأنبياء ١٨

حين ، فقال : ويذكر القرآن هذا الثالث في آياته كما يتضح من الآتي : سورة النساء ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ .

فيتضح من هذه الآية الثالث الذي تؤمن به : ذات الله : والكلمة ، والروح . وإليكم الآية بجملة من بدئها لنهايتها ، لتروا أنها حجج بالغة ، وشبه محرقة ، حجج بالغة ضد الثالث ودعائه ، وشبه محرقة لهيكل الثالث وحمامته .

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً . لن يستتكمف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستتكمف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً . فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفى لهم أجرهم ولا يزيدهم من فضله وأما الذين استتكمفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ (١) .

المعنى التفصيلي :

قوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾ أى لا تتجاوزوا الحدود التي حددها الله لكم في الدين ، فإن الزيادة في الدين كالنقص فيه ، فلا تفرطوا في رفع شأن عيسى عليه السلام ولا تدعوا ألوهيته .

﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ فلا تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد ، واتخاذ صاحبة الولد ، بل نزهوه عن كل ذلك ، ولا تعتقدوا إلا القول الثابت بنص ديني متواتر ، أو برهان عقلي قاطع ، وليس لكم على ما زعمتم من دعوى الاتحاد والحلول واتخاذ صاحبة الولد شيء منها .

﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ إلى بنى اسرائيل ، وقد أمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ، وزهدهم في الدنيا وحثهم على

(١) النساء ١٧١ : ١٧٣

التقوى ، وبشرهم بمحمد ﷺ خاتم النبيين الذي يرشدهم إلى الاعتدال في كل شيء ، وقيمهم على الصراط المستقيم ، ويهديهم إلى الجمع بين حقوق الأرواح وحقوق الأبدان .

﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ أي وهو تحقيق كلمته التي ألقاها إلى مريم ومصداقها ، والمراد كلمة التكوين أو البشارة ، فإنه لما أرسل الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ، بشرها بأنه مأمور بأن يهب لها غلاما زكيا ، فاستنكرت أن يكون لها ولد وهي عذراء لم تتزوج فقال لها : ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (١) . فكلمة (كن) هي الكلمة الدالة على التكوين بمحض قدرة الله تعالى عند إرادته خلق الشيء وإيجاده ، وقد خلق المسيح بهذه الكلمة (كن) ومعنى (ألقاها إلى مريم) أوصلها إليها وبلغها إياها .

فمعنى كون عيسى كلمة الله ، أنه وجد بسبب كلمة من الله ، هي (كن) فهو مجاز من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب ، وإنما خص عيسى عليه السلام بكلمة الله — مع أن العالم كله مخلوق بكلمة الله (كن) قال تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ (٢) — لأنه وجد بغير الأسباب العادية ، أي بغير واسطة أب وسائر أولاد آدم وإن وجدوا بالكلمة (كن) لكن بواسطة أب ، بإطلاق الكلمة على عيسى عليه السلام أظهر ، ويبين ذلك قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ (٣) .

وقال ابن تيمية : قال قتادة : ليس الكلمة صار عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى ، وقال أحمد : المعنى في قوله جل ثناؤه : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له (كن) فكان عيسى بكن ، وليس عيسى هو الكن ، ولكن بالكن كان ، فالكن من الله قوله (٤) — وقال أبو عبيد : كلمته (كن) فكان (٥) وأما

(١) آل عمران ٤٧ (٢) يس ٨٢ (٣) آل عمران ٥٩ (٤) الجواب الصحيح ١ / ١٧٧

(٥) البخارى ٤ / ٣١٩

قوله تعالى : ﴿ وروح منه ﴾ فمعناه أنه روح كائنة من جهته تعالى ، وجعلت منه وإن كانت بنفخ جبريل لكون النفخ بإرادته تعالى وأمره ، فهو مجاز أيضا من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب ، وسمى عيسى عليه السلام روحا لأنه حدث عن نفخ جبريل في درع مريم بأمره سبحانه ، يوضحه قوله تعالى : ﴿ والتي أحصنت فرجها فننفخنا فيها من روحنا ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ﴾ الآيات (٢) .

فحملت به من ذلك النفخ ، وذلك غير روحه التي يشاركه فيها سائر البشر فلما أُخْلِيق عليه السلام من نفخ الروح ومن مريم سُمي روحا بخلاف سائر البشر فإنه يخلق من ذكر وأنثى ثم ينفخ فيه الروح بعد مضي أربعة شهور وهذا لا ينافي أن الله أيده بالوحي وروح القدس كما أيد سائر الأنبياء ، وكذلك المؤمنين المخلصين ويوضحه قوله تعالى فيه : ﴿ وآتيناه عيسى ابن مريم اليينات وأيدناه بروح القدس ﴾ (٣) وقوله تعالى في صفات المؤمنين المخلصين : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ (٤) .

فقد كان مؤيدا بهذا الروح مدة حياته ، ولذلك غلبت عليه الروحانية ، وظهرت آيات الله فيه زمن الطفولية والرجولية ، كما قال تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهدي وكهلا ﴾ (٥) .

فلما كان كذلك أطلق عليه أنه روح ، كأنه هو عين ذلك الملك الذي جعله الله سبب ولادته ، وأيده به مدة حياته كما يقال رجل عدل على سبيل المبالغة ، والمراد ذو عدل .

وآية الله تعالى في خلق عيسى بكلمته ، وجعله بشرا سويا بما نفخ فيه من روحه ، كآيته في خلق آدم بكلمته وما نفخ فيه من روحه ، إذ كان خلق كل منهما بغير السنة العامة في خلق الناس من ذكر وأنثى كما سبق في قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن ﴾

(١) الأنبياء ٩١ (٢) مريم ١٧ (٣) البقرة ٨٧ (٤) آخر المجادلة (٥) المائدة ١١٠

فيكون ﴿١﴾ . وقد جاء في إنجيل متى (أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا ، لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبل من الروح القدس) ﴿٢﴾ . وفي إنجيل لوقا تفصيل لظهور الملك جبريل وتبشيره إياها بولد ، ومحاورتهما في ذلك ومنها أنها سألته عن كيفية ذلك فقال لها : (الروح القدس يحل عليك) ﴿٣﴾ .

من ذلك نعلم أن روح القدس عندهم وعندنا واحد ، وهو ملك من ملائكة الله الذين لا يحصى عددهم ، وأن عيسى خلق بواسطته ، فلا يستفاد إذا من قوله وروح منه أنه جزء من الله أو أنه الله ، تعالى الله عن التركيب والحلول والاتحاد بخلقه .

ولأن الإعراب يزيد المعنى وضوحا أقول في قوله تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ المسيح مبتدأ ، وعيسى بدل منه أو عطف بيان وابن مريم صفته مفيدة لبطلان ما وصفوه عليه السلام به من بنوته لله تعالى (رسول الله) خير المبتدأ ، والجملة مستأنفة لبيان تعليل النهي عن القول بالباطل المستلزم للأمر بضده) ، أعنى الحق ، أى أنه مقصور على رتبة الرسالة لا يتخطاها .

(وكلمته) عطف على الخبر ، أى أنه تكون . بكلمته وأمره الذى هو (كن) من غير واسطة أب ولا نطفة (ألقاها إلى مريم) فى موضع الحال وقد مقدره ، أى حال كونه أوصلها إليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام فى جيب درعها ، وقيل أعلمها إياها وأخبرها بها بطريق البشارة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ ﴿٤﴾ .

(وروح) عطف على الخبر أيضا (ومنه) صفة لروح ، ومن ابتدائية لاتبعيضية كما زعمت النصارى ، وهى متعلقة بمحذوف وقع صفة لروح ، أى كائنة من جهته تعالى بتخليقه وتكوينه وجعلت منه وإن كانت بنفخ جبريل لكون النفخ بأمره تعالى ، وأضيفت الروح إليه تشريفا له كما يقال : بيت الله ، ونعمة الله

(١) آل عمران ٥٩ (٢) متى ١ : ١٨ (٣) لوقا ١ / ٣٥ (٤) آل عمران ٤٥

وناقة الله ، وليس كما زعمت النصارى أنه ابن الله ، أو إله معه أو ثالث ثلاثة ، لأن ذا الروح مركب وإله منزه عن التركيب .

وقال أبو السعود في تفسيره (وروح منه) ومن لا ابتداء للغاية مجازا ، لا تبعيضية كما زعمت النصارى ، يحكى أن طبيبا حاذقا نصرانيا للرشيدي ، ناظر على ابن حسين الواقدي المروزي ذات يوم فقال له : إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا هذه الآية ، فقرأ الواقدي قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم مافي السموات وما في الأرض جميعا منه ﴾^(١) . فقال : اذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزء منه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فانقطع النصراني فأسلم ، وفرح الرشيدي فرحا شديدا ووصل الواقدي بصلة فاخرة .

وقال أحمد : وأما قوله جل ثناؤه (وروح منه) يقول من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى : ﴿ وسخر لكم مافي السموات وما في الأرض جميعا منه ﴾ يقول من أمره^(٢) . وتقديم كونه عليه السلام رسول الله في الذكر مع تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحا منه في الوجود لتحقيق الحق من أول الأمر بما هو نص فيه ، غير محتمل للتأويل ، وتعيين مآل ما يحتمله وسد باب التأويل الزائف .

ثم قال تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ﴾

أى فآمنوا بالله إيمانا يليق به وهو أنه واحد أحد تنزه عن صفات الحوادث ، وأن كل مافي الكون مخلوق له ، وآمنوا برسله كلهم بما فيهم عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام إيمانا يليق بشأنهم وهو أنهم عبيد له خصصهم بضروب من التكريم والتعظيم وأهمهم بنوع من العلم والهداية بالوحي سبيل الحق والخير والسجادة ليعلموا الناس كيف يوحدون ربهم ويعبدونه وحده ، ويشكرونه على نعمه .

ولا تقولوا : الآلهة ثلاثة : ، الله والمسيح ومريم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾^(٣) . أو المعبودات ثلاثة : الآب والابن وروح القدس ، أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر وكل منها إله كامل ، ومجموعها إله كامل ، لا تقولوا شيئا من ذلك . فإن في هذا تركا للتوحيد الذي هو ملة ابراهيم وسائر الأنبياء ، واتباعا

(١) الجانية ١٣ (٢) الجواب الصحيح لابن تيمية ١٧٨/١ (٣) المائدة ١١٦

لعقيدة الوثنيين والجمع بين التوحيد والتثليث تناقض تحيله العقول السليمة ، ولا تقبله القلوب الواعية .

﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ أى انتهوا عن ذلك وقولوا قولاً آخر خيراً لكم منه ، وهو قول جميع النبيين والمرسلين الذين جاءوا بتوحيد الله وتنزيهه ، فإن المسيح الذى سميتومه إلهاً يقول كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ (١) . ويقول فى إنجيل يوحنا ١٧ : ٣ (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

﴿ إنما الله إله واحد ﴾ بالذات منزه عن التعدد ، فليس له أجزاء ولا أقانيم ، ولا هو مركب ولا متحد بشيء من المخلوقات ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ أى تقدس عن أن يكون له ولد كما قلتم فى المسيح إنه ابنه أو إنه عينه ، والتعبير بالولد دون الابن الذى يعبرون به فى كلامهم لبيان أنهم إذا كانوا يريدون الابن الحقيقى الذى يفهم من هذا اللفظ فلا بد أن يكون ولداً ، أى مولوداً من تلقيح أبيه لأمه ، وهذا محال على الله تعالى ، وإن أرادوا الابن المجازى لا الحقيقى فلا خصوصية لعيسى فى ذلك ، لأنه قد أطلق فى كتب العهد العتيق والعهد الجديد على آدم ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من الأخيار .

﴿ له مافى السموات ومافى الأرض ﴾ أى إنه ليس له ولد يصح أن يسمى ابناً له حقيقة بل له مافى السموات ومافى الأرض خلقاً وملكاً وتصريفاً ، والمسيح من جملتها كما قال تعالى : ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ (٢) . والملكية تنافى البنوة ، فكيف يكون المملوك بعد هذا ابناً لله ؟ تعالى الله عن ذلك . ولا فرق فى هذا بين الملائكة والنبيين ، ولا بين من خلق ابتداءً من غير أب وأم ، كالملائكة وآدم ، ومن خلقه من أصل واحد كحواء وعيسى ، ومن خلقه من الزوجين الذكر والأنثى فكل هؤلاء عبيده يحتاجون الى فضله وكرمه وجوده وهو يتصرف فيهم كيف يشاء .

(١) المائدة ١١٧ (٢) مريم ٩٣ : ٩٥

﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ أى كفى به حافظاً لخلقه ومستقلاً بتصرفه
شئونهم وتدبير أمورهم فلا حاجة له الى ولد يعينه على ذلك ، فهو غنى عن
الولد ، فإن الولد إنما يحتاج إليه أبوه ليعينه فى حياته ، ويقوم مقامه بعد وفاته ،
والله منزّه عن كل ذلك .

﴿ لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ جاء فى
الغازن أن وفد نجران قالوا : يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبد الله ، فقال
ﷺ إنه ليس بعار على عيسى أن يكون عبدالله فنزلت (لن يستكف المسيح)
الآية .

والمعنى لن يأنف المسيح ولن يترفع عن أن يكون عبدالله لعلمه بعظمة الله
تعالى وما يجب له من العبودية والشكر ، ولا الملائكة المقربون يستكف أحد منهم
ويترفع عن أن يكون عبداً له تعالى ، وذكر الملائكة للرد على من زعم أنها آلهة أو
بنات الله ، سبحانه عما يزعمون .

﴿ ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ أى ومن
يبتنع عن عبادته تعالى أنفة وكبرا ، ويترفع عنها إعجاباً بنفسه وغروراً بها ،
فسيجزيه أشد جزائه ويذيقه أليم عقابه ، حين يحشر الناس جميعاً للجزاء
المستكفين منهم والمستكبرين مع غيرهم المقابلين لهم فى صعيد واحد كما ورد فى
الحديث ثم يحاسبهم ويجزيهم على حسب أعمالهم وبين هذا الجزاء فقال تعالى :
﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفئهم أجورهم ويزيدهم من فضله
وأما الذين استكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله
ولياً ولا نصيراً ﴾ أى ولا يجدون لهم غير الله تعالى ولياً يتولى شيئاً من أمرهم يوم
الجزاء والحساب ولا نصيراً ينصرهم فيدفع عنهم العذاب .

فهل بعد هذا يوجد فى القرآن إشادة بالثالوث ؟

لقد حطمت هذه الآية الكريمة الثالوث فى جميع صورته وأشكاله ، ومحتة من
الوجود كما سبق بيانه ، وإليكم تلخيص ذلك وإجماله :

تلخيص وإجمال لما جاء فى الآية الكريمة :

(١) إن الله نهاكم بقوله : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ﴾ عن الزيادة

في الدين بادعاء آلهة أو أقانيم مع الله ، أو أن المسيح ابن الله له طبيعة الله ،
أو هو الله المتجسد أو إله معه .

(٢) ونهاكم بقوله ﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ أن تصفوه بما يستحيل
اتصافه به من الحلول والاتحاد والتجسد ، أو أنه واحد في ثالوث ، أو حتى
بروحه ، لأنها من صفات الحوادث .

(٣) وقال (إنما المسيح عيسى ابن مريم) ولم يقل (ابن الله) فكيف تقولون إنه
ابن الله وله طبيعة الله .

(٤) وبين بقوله (ابن مريم) أنه حدث بعد أن لم يكن ، وكل من كان كذلك
كان مخلوقاً لا إلهاً فكيف يكون هو الله ، أو ابن الله له طبيعته ، أو مساوياً له
في ألوهيته .

(٥) وأخبر عنه في الآية بأنه رسول الله ولم يقل إنما المسيح عيسى ابن مريم الله ،
ولا شك أن الرسول غير المرسل ، فرسول الله عبد مطيع لله : فكيف
يكون هو الله ، أو ابناً له طبيعته أو إلهاً معه ؟

(٦) في الجملة القرآنية قصر بإنما ، ومعناه قصر المسيح عيسى عليه السلام على
الرسالة لا يتعداها الى غيرها من الألوهية أو الأقومية ، أو البنوة الحقيقية ،
فكيف تقولون : إنه إله مع الله أو أقنوم في اللاهوت مع الله ، أو ابن الله له
طبيعته وذاتيته .

(٧) المسيح عليه السلام رسول من رسل الله ، ورسل الله ليس فيهم شيء من
طبيعة الله ولا صفاته فالمسيح كذلك ، فكيف تقولون إنه مساو لله ، أو له
طبيعته ، أو أقنوم معه ؟

(٨) أثبتت الآية الكريمة أن المسيح عيسى مخلوق بكلمة الله (كن) وكل مخلوق
بكلمة الله لا يشبه الله في شيء ، لأن المخلوق غير الخالق ، فالمسيح عيسى
لا يشبه الله في شيء ، فليس هو الله ، ولا من طبيعته ، ولا أقنوماً معه .

(٩) وأفادت الآية أن عيسى ليس كلمة الله على الحقيقة ، وإنما هو على الحجاز ،
لأن الكلمة غير مدلوها ، ولأن عيسى يموت وكلمة الله لا تموت . وأكد

ذلك بقوله : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ وأيضا كلام الله الذي سمعه موسى عليه السلام ليس هو المسيح ، فالمسيح ليس كلام الله ، وليس كلمة الله على الحقيقة ، فكيف تقولون إنه الله أو له طبيعته ، أو يشبهه في شيء ؟

(١٠) وأفادت الآية أيضا أن المسيح روح كائنة من جهته تعالى بتخليقه وتكوينه اذن فليس هو الله أو أقنوما معه ، أو جزءا منه .

(١١) ودعاهم الله بقوله ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ إلى الإيمان به إيمانا يليق بذاته وهو أنه الواحد الأحد الذي ليس كمثل شيء وإلى الإيمان برسله إيمانا يليق بشأنهم ، وهو أنهم عبيد له اختصاصهم بحمل رسالته الشريفة ، وعيسى عليه السلام من جملتهم فكيف تخصونه من بينهم بأنه الله أو ابن له ، أو له طبيعته ، أو فيه صفة من صفاته .

(١٢) وأيضا بين الله بقوله ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ أن رسل الله غير الله لأن العطف يقتضى المغايرة ولأن إضافتهم لله تقتضى عبوديتهم له ، فهم خاضعون لسلطانه ، منفذون لأوامره وأحكامه ، والمسيح منهم فهو مثلهم فلا يمتاز عنهم بشيء يرتقى به الى ذات الله أو صفة من صفاته ، أو شيء من اختصاصاته .

(١٣) ونهاهم الله بقوله ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ عن القول بثلاثة آلهة أو أقانيم أو معبودات ، بل ولا تقولوا ثلاث كلمات ولا أسماء أو صفات ، فكلمات الله لاتقف عند حد : ﴿ ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (١) .

وأسمائه وصفاته لا يحصرها العد ، ولماذا تنزلون به جل وعلا من عليائه إلى مستوى تخيلاتكم ومفترياتكم فتسمونه بالأقنوم ، ولا هوته بالأقانيم ﴿ إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ (٢) والله العليم بجلال ذاته والمحيط بأسمائه وكالاته يقول : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه

(١) لقمان ٢٧ (٢) النجم ٢٣

سيجزون ما كانوا يعملون ﴿١﴾ .

(١٤) وفي قوله تعالى : ﴿ انتهاوا خيرا لكم ﴾ تأكيد ووعد شديد للنبي عن القول بثلاثة آلهة أو أقانيم أو معبودات أو صفات .

(١٥) وفي قوله تعالى : ﴿ إنما الله إله واحد ﴾ قصر لله على الوحدانية في الألوهية ، فليس الله ثلاثة آلهة أو معبودات أو أقانيم .

(١٦) وفي قوله تعالى : ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ تنزيه الله عن أن يكون المسيح أو غيره ابنا لله أو مساويا له .

(١٧) وفي قوله تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ قصر إيجاد وملك وتصريف ما في السموات وما في الأرض على الله وحده ومن جملتهم المسيح عليه السلام فكيف يكون هو الله أو ابنا له أو له طبيعته أو أقنوما معه في ألوهيته ، أو مشاركا له في تصريف كونه .

(١٨) وفي قوله تعالى : ﴿ وكفى بالله وكيفا ﴾ بيان لكفاية الله وقيامه بحفظ خلقه والاستقلال بتصريف شئونهم فليس محتاجا إلى إله معه أو ابن أو أقنوم يعينه على ذلك .

(١٩) وفي قوله تعالى : ﴿ لن يستكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ﴾ بيان مؤكداً أن المسيح لن يترفع عن عبوديته لله لعلمه بعظمته فكيف تجعلونه مساويا له في الألوهية أو المعبودية أو الأقنومية .

(٢٠) وفي قوله تعالى : ﴿ ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ﴾ وعيد شديد وزجر في تأكيد للمستكبرين عن عبادة الله والمسيح عليه السلام وهو أعلم قومه بمقام ربه أول من يخشى هذا الوعيد والتهديد فكيف تجعلونه هو الله ، أو مساويا له أو أقنوما معه لا يخشاه ولا يخافه في شيء

وهكذا رمى الله الثالث بعشرين قذيفة من قذائف الحق قوضت أركانه وحطمت بنيانه ، ومحتمه من الوجود كما سبق بيانه وحقت عليه كلمة الله : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم

(١) الأعراف ١٨٠

الويل مما تصفون ﴿١﴾

وصدق الله : ﴿ وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم ﴾ (٢) فلا إله إلا الذي خلق كل شيء وليس كمثلته شيء ، فأى معنى تتصورون من معانى الألوهية فهو له وحده ، لا يساويه أحد فى عزته فى ملكه ولا يساميه مسام فى حكمته فى خلقه فىكون شريكا له فى ألوهيته ، أو ندا له فى ربوبيته ومالولد إلا نسخة من الوالد يساويه فى جنسه ونوعه ، وهو تعالى فوق الأجناس والأنواع وفوق التصورات والأوضاع ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ (٣) .

تهديد من الله ووعيد شديد لمن يحاولون بعث الثالث من جديد : نظرا لأن فى التثليث اعتداء على المقام الكبير ، مقام الله العلى العظيم صاحب الأسماء الحسنى والصفات التى لا تحصى ، ومن كفر به فقد كفر بمن لا يتناهى جلاله وكاله وبره وإحسانه ، فيستحق أن يعذب عذابا لا يتناهى سعيره وزفيره وصراخه وعويله نظرا لذلك لم يقتصر القرآن على ماساقه من الأدلة السابقة على إبطال الثالث ، وما صبه على هيكله من قذائف فانهارت به فى نار جهنم بل أصدر حكمه القاطع بكفر من يقولون بالتثليث ، وأنذرهم بالويل والثبور والعذاب الشديد فى آيات بينات من سورة المائدة التى تعد من أواخر السور نزولا فى القرآن المجيد ، ملاءها بالتهديد والوعيد الشديد لمن لم يقلع عن التثليث أو يحاول بعثه من جديد وشحنها بالأدلة القاطعة والشهب المحرقة للتثليث ودعائه فقال تعالى :

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون . قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم . قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد

(١) الأنبياء ١٨ (٢) آل عمران ٦٢ (٣) الصافات ١٨٠

ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴿١﴾

ومعنى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ يقسم الله جل جلاله مؤكدا كلامه فيقول لقد كفر بالله الذين قالوا إن خالق السموات والأرض وما بينهما ثالث أقانيم ثلاثة :

أب والد غير مولود وابن مولود غير والد ، والروح القدس الناشئ عنهما ، قال الدكتور بوست في تاريخ الكتاب المقدس عند الكلام على لفظ الجلالة (٢) :

(طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر الله الأب ، والله الابن والله الروح القدس ، فالأب ينتمي الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفدى وإلى الروح القدس التطهير غير أن الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء، وقال ابن تيمية (٣) : جميع طوائف النصرى المشهورة : الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بالأقانيم الثلاثة الأب والابن وروح القدس ، فتقول : إن الله ثالث ثلاثة وتقول عن المسيح إنه ابن الله وهم متفقون على اتحاد اللاهوت والناسوت وأن المتحد هو الكلمة وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التى تتضمن ذلك وهو قولهم

(نؤمن بإله واحد، أب ضابط الكل ، خالق السموات والأرض، كل ما يرى ومالا يرى ورب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق. أهـ

ثم ذكر الله الدليل الهادم للثالوث ورد عليهم ما قالوه بلا روية ولا بصيرة فقال : ﴿ وما من إله إلا إله واحد ﴾ أى لا يوجد إله إلا من اتصف بالوحدانية فى الذات والصفات والأفعال وهو الإله الذى لا تركيب فى ذاته ولا فى صفاته فليس ثم تعدد ذوات وأعيان ولاتعدد أجناس وأنواع ولاتعدد جزئيات وأجزاء ، وصدق الله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ (٤) قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا. سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴿ (٥) ثم توعدهم على هذه المقالة فقال : ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ أى

(١) المائدة ٧٣ : ٧٧ (٢) من تفسير المنار ٦ / ٣٠٨ (٣) فى الجواب الصحيح ٢ / ٣٢٩

(٤) الانبياء ٢٢ (٥) الاسراء ٤٢ ، ٤٣

وإن لم ينتهوا عن قولهم بالتثليث أي كان نوعه ويتركوه ويعتصموا بعروة التوحيد ويعتقدوه ، فوالله ليصيبنهم عذاب شديد يوم القيامة جزاء كفرهم وفي الآية إيماء إلى أن هذا العذاب لا يمس إلا الذين كفروا منهم خاصة دون من تاب وأناب إلى الله تعالى ورجع عن عقيدة التثليث وغيرها من العقائد الباطلة ثم تعجب من حالهم بإصرارهم على التثليث بعد أن ظهرت لهم البيّنات وقامت عليهم الحجج المبطلّة له والنذر بالعذاب المترتب عليه فقال :

﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ؟ ﴾ أى أيسمعون ما ذكر من التنفيد والإبطال لآرائهم والوعيد عليها ، ثم لا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى التوحيد الخالص واستغفار الله عما فرط منهم والحال أن ربهم واسع الرحمة العظيم المغفرة يقبل التوبة من عباده ويغفر لهم ما فرط من الزلات إذا هم آمنوا وأحسنوا واتقوا وعملوا الصالحات ، ثم ذكر أن المسيح رسول كغيره من الرسل فلا يكون إلها وأقام الدليل على ذلك فقال :

﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ أى ليس المسيح إلا رسول من الرسل الذين بعثهم الله لهداية عباده قد مضت من قبله رسل اختصهم الله مثله بالرسالة وأيدهم بالآيات وأمه إحدى النساء طبعت على الصدق في قولها والتصديق بربها وكانت هي وابنها عيسى — عليه السلام — يأكلان الطعام ، وهذا علامة البشرية فكيف تدعون لهما الألوهية ؟

وبعد أن بين حالهما بيانا لا تحوم حوله شائبة من الريب تعجب من حال من يدعى لهما الربوبية ولا يرعوى عن غيه وضلاله ، ولا يتأمل فيما هو عليه من رأى فاسد وتفكير خاطيء فقال :

﴿ انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أى يؤفكون ﴾ أى انظر أيها السامع نظرة عقل وفكر كيف نبين لهؤلاء النصارى الآيات والبراهين البالغة أقصى الغايات ، في الوضوح على بطلان ما يدعون في أمر المسيح ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها ، ولا ينتقلون من مقدماتها إلى نتائجها ، ومن مبادئها إلى غاياتها ، فكأنهم فقدوا عقولهم وصارت أفئدتهم هواء .

ثم لقن نبيه حجة أخرى على بطلان مدعاهم يوردها في سياق الإنكار

عليهم ، وتبكيتهم على عبادة مالا فائدة في عبادته فقال :

﴿ قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا ﴾ أى قل أيها الرسول لهؤلاء النصارى وأمثالهم الذين عبدوا غير الله أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا تخشون أن يعاقبكم به إذا تركتم عبادته ، وترجون أن يدفعه عنكم إذا عبدتموه ، ولا يملك لكم نفعا ترجون أن يجزيكم به إذا عبدتموه ، وتخافون أن يمنع عنكم إذا كفرتموه .

﴿ والله هو السميع العليم ﴾ والحال أن الله تعالى هو السميع لأدعيتكم وسائر أقوالكم ، العليم بمحاجاتكم ، وسائر أحوالكم ، فلا ينبغي أن تدعوا غيره ، ولا أن تعبدوا سواه .

ثم نهاهم عن الغلو في الدين فقال : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ﴾ الغلو : الإفراط وتجاوز الحد ،

والمعنى : قل يا محمد : يا أهل الكتاب لا تتجاوزوا الحدود في المسيح بالإفراط أو التفريط ، فاليهود أفرطوا في إهانتهم هو وأمه ، والنصارى يرفعونه الى مقام الألوهية ، فالوسط الوسط والحق الحق — كما هو شريعة الإسلام في المسيح وأمه — الذى ذكر في القرآن .

ثم حذرهم من اتباع الأهواء الضالة فقال : ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ أهواء : آراء قوم دعت إليها الشهوة دون الحججة والبرهان .

والمعنى : يا أهل الكتاب لا تتبعوا أهواء قوم وآراءهم القائمة على الهوى والشهوة ، لأعلى الحججة والبرهان ، وهم أهل الكتاب الذين كانوا على الضلال قبل مبعث النبي ﷺ وأضلوا كثيرا ممن تابعهم ، وضلوا عن الطريق الوسط والصراط المستقيم لما بعث محمد ﷺ فكذبوه وحسدوه ، وبغوا عليه ، وقد وصفهم الله بثلاث درجات في الضلال ، فبين أنهم كانوا ضالين من قبل ، ثم ذكر أنهم كانوا مضلين لغيرهم ، ثم ذكر أنهم استمروا على تلك الحالة حتى إنهم الآن ضالون كما كانوا . وليست هناك حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقابه من هذه الحالة نعوذ بالله منها ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن

حول عقيدة الثالث وبنائها على الأهواء الباطلة :

(١) قال الإمام ابن القيم بعد ذكر مجامعهم العديدة لتقرير ما يريدون من عقيدة واختلافهم فيها في كل مجمع عن الآخر (٢) :

فهذه حال المتقدمين مع قرب زمانهم من أيام المسيح ، ووجود أخباره فيهم ، والدولة دولتهم والكلمة كلمتهم ، وعلمائهم إذ ذاك أوفر ما كانوا ، واهتمامهم بأمر دينهم واحتفالهم به كما ترى ، وهم حيارى تاتهنون ، ضالون ، مضلون لا يثبت لهم قدم ، ولا يستقر لهم قول في إلههم ، بل كل منهم قد اتخذ إلهه هواه ، وصرح بالكفر والتبري من اتباعه سواء قد تفرقت بهم في نبيهم وإلههم الأفاويل ، وهم كما قال الله تعالى : ﴿ قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ فلو سألت أهل البيت الواحد عن دينهم ومعتقدهم في ربهم ونبيهم لأجابك الرجل بجواب ، وامرأته بجواب ، وابنه بجواب ، والخادم بجواب . فما ظنك بمن في عصرنا هذا وقد طال عليهم الأمد وبعد عهدهم بالمسيح ودينه ؟

وهؤلاء هم الذين أوجبوا لأعداء الرسل — من الفلاسفة والملاحدة — أن يتمسكوا بما هم عليه ، فإنهم شرحوا لهم دينهم الذي جاء به المسيح على هذا الوجه ، ولا ريب أن هذا دين لا يقبله عاقل . فتواصى أولئك بينهم أن يتمسكوا بما هم عليه ، وساءت ظنونهم بالرسل والكتب ، ورأوا أن ما هم عليه من الآراء أقرب من المعقول من هذا الدين . وقال لهم هؤلاء الحيارى الضلال : إن هذا هو الحق الذي جاء به المسيح ، فتركب من هذين الظنين الفاسدين إساءة الظن بالرسل ، وإحسان الظن بما هم عليه .

(٢) ويؤكد أن هذه العقيدة كما أنها لا يقرها نقل لا يقبلها عقل ، ما قاله الدكتور

(١) الفصص ٥٠ (٢) في كتابه : إغاثة اللهفان ٢ / ٢٨١

وولتر أوسكار لنديج^(١) — ففى جميع المنظمات الدينية المسيحية تبدل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم فى إله هو على صورة الإنسان ، بدلا من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة لله على الأرض وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتندرب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التى تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم فى التفكير ، أو مع أى منطق مقبول ، وأخيرا عندما تفشل جميع المحاولات فى التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة ، وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمى ، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنىذ فكرة الله كلية ، وعندما يصلون الى هذه المرحلة ، ويظنون أنهم قد تخلصوا من أوهام الدين وما ترتب عليها من نتائج نفسية ، لايجبون العودة الى التفكير فى هذه الموضوعات ، بل يقاومون قبول أية فكرة جديدة تتصل بهذا الموضوع وتدور حول وجود الله ، أهـ

(٣) إنك لو قرأت الأناجيل الأربعة فصلا فصلا وكلمة كلمة فلا تجد فيها إشارة من بعيد أو قريب الى مايعرف بالأقنوم أو الأقانيم ، بل إنها تتحدث عن الله باعتباره ذاتا واحدة فى الكمال والجلال والسلطان ، سواء كان ذلك على لسان المسيح أم حواريه فكلمة أقنوم كلمة غريبة مولدة لم يقلها المسيح ولم تثبتها الأناجيل المعتمدة .

ولذا قال ابن تيمية : إن قولهم بالأقانيم مع بطلانه فى العقل والشرع لم ينطق به عندهم كتاب ولم يوجد هذا اللفظ فى شىء من كتب الأنبياء التى بأيديهم ، ولا فى كلام الحواريين ، بل هى لفظة ابتدعوها ، ويقال : إنها رومية ، وقد قيل. الأقنوم فى لغتهم معناه الأصل ، ولهذا يضطربون فى تفسير الأقانيم ، تارة يقولون أشخاص ، وتارة خواص ، وتارة صفات ، وتارة جواهر وتارة يجعلون الأقنوم اسما للذات والصفة معا ، وهذا تفسير حذاقهم^(٢) وفى إنجيل متى يقول ابليس للمسيح بعد أن أخذه الى جبل عال وأراه جميع ممالك العالم ومجدها يقول له ليجره : (أعطيك هذه

(١) من كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ص ٣٢

(٢) الجواب الصحيح ١٠٢/٢

جميعا إن خرت وسجدت لي !

حينئذ قال له يسوع : اذهب يا شيطان ، لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد (١) . فالمسيح هنا لا يولي وجهه إلا شطر معبود واحد هو الله ، لا إلى الإله ذى الثلاثة أقانيم ولا إلى أقنوم واحد منها . وأعوذ بالله من اطلاق كلمة أقنوم على الله فإننا لانسمى الله ولا نصفه إلا بما سمى به نفسه أو وصفها به في كتابه الكريم أو حديث رسوله الصحيح الصريح المقطوع به ولكننا نحكى قولهم لها ، وحاكى الكفر ليس بكافر، وفي مرقس سأل أحد الكتبة السيد المسيح قائلا : (آية وصية هي أو ل الكل ؟ فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا هي : اسمع يا اسرائيل : الرب إلهنا رب واحد) (٢) .

(٤) ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب (٣) : وفي الأناجيل مئات من كلمات المسيح يتحدث عن الله بأنه الله ذو المفهوم الواحد ، ولم يتحدث عنه مرة واحدة بأنه ذو مفاهيم ثلاثة : آب ، وابن ، وروح القدس . ولو أن هذا كان من رسالة المسيح لما تركه لتلاميذه من بعده ، ولا لغيرهم يبينونه للناس ويدعونهم إلى الإيمان به ، وكان ذلك إلى المسيح نفسه ، فهو أولى الناس به ، وأقدرهم على شرحه وتبينه .

وإذا كان المسيح يتخلى عن التعريف بالله — هذا التعريف العميق البعيد الأغوار — وهو مطلوب ديانة ومعتقدا ، فكيف يكون قد أدى رسالته ، وفتح للناس معالم الهدى إلى الله ؟ وهل هناك ما هو أهم وأولى من هذا العمل لو أنه كان مما تقوم عليه عقيدة الناس ويتم به إيمانهم ؟

(٥) إن الثالث المسيحي لو كان من أصل دينهم وعقائدهم السماوية لما ظل مجهولا حتى أوائل القرن الرابع الميلادي ، ولما عقدت له عدة مجامع حتى تضعه في صيغته وصيغته النهائية وتجعل المسيح وروح القدس شريكين لله ، لكل عمل يقوم به .

(١) متى ٤ (٥ : ١٠) (٢) مرقس ١٢ (٢٨ ، ٢٩) (٣) في كتابه (المسيح في القرآن) ٢١٦ .

(٦) قالت طائفة من العقلاء : إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى ، وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا ، بل تكلموا بجهل وجمعوا في كلامهم بين النقيضين ، ولهذا قال بعضهم : لو اجتمع عشرة نصارى لتفركوا عن أحد عشر قولاً وقال آخر : لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولاً وامرأته قولاً وآخر وابنه قولاً ثالثاً (١) .

(٧) إن الأستاذ جنى بير الذى كان أستاذاً لتاريخ الأديان بجامعة السربون فى النصف الأول من القرن العشرين الى عهد قريب أثبت فى مؤلفاته الأربعة (٢) . بما لا يدع مجالاً للشك أن المسيحية الحالية ليست هى مسيحية المسيح ، بل ولا تمت الى مسيحية المسيح بصلة إلا الصلة الإسمية وأن المسيح عليه السلام . أتى مبشراً بالرحمة والإشفاق والتعاون والمحبة وأن التثليث وفكرة الألوهية التى تمشى على الأرض متمثلة فيه ، أو البتوة للإله ، هذه العقائد المعقدة التى لا يستسيغها عقل ، ولا يطمئن إليها فؤاد ، بغيدة كل البعد عن رسالة المسيح (٣) .

(٨) وقال الأستاذ محمد الغزالى : والقول بأن الثلاثة واحد كالقول باجتماع النقيضين ، ليس مسألة غامضة بل مسألة مستحيلة بالبداهة (٤) .

* * *

(١) الجواب الصحيح ص ١٥٨ (٢) الأول عن العصر الذى نشأ فيه المسيح ، والثانى عن المسيح نفسه ، والثالث عن تطور العقائد . والرابع عن المسيحية القديمة ، ومسيحية العصور الوسطى ، والمسيحية الحديثة (٣) انظر أوروبا والإسلام العدد السابع للدكتور عبد الحلیم محمود ص ١٣ ، ١٦ (٤) عقيدة يسلم ٦٨

المبحث الرابع .

منشأ عقيدة التثليث^(١)

عقيدة التثليث وثنية نقلها الوثنيون المنتصرون إلى النصرانية ، واعتمدوا فيها على بعض ألفاظ في الكتب اليهودية ، جعلوها تكأة لهم على ماأرادوا ، وحرفوا فيها وأولوا ، لتفيد مادعوا ، وبذا هدموا آيات التوحيد ، وقد فصل ذلك علماء أوروبا ، وأتوا عليه بشواهد كثيرة من الآثار القديمة والتاريخ ، وإليك البيان :

التثليث عند البراهمة :

قال الباحثة موريس في كتابه الآثار الهندية القديمة م ٦ ص ٣٥ : كان عند أكثر الأمم الوثنية البائدة تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي ، أو الثالوثي .

التثليث عند البوذيين :

قال مستر فابر في كتابه أصل الوثنية : كما نجد عند الهنود ثالوثا مؤلفا من برهما ، وفشنو ، وسيفا ، نجد عند البوذيين ثالوثا ، فإنهم يقولون : إن (بوذه) إله له ثلاثة أقانيم .

التثليث عند قدماء المصريين :

قال مستر دوان في كتابه (خرافات التوراة) ص ٤٧٣ : وكان قسيسو هيكل منفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس في تعليمهم للمبتدئين بقولهم : إن الأول خلق الثاني ، وهما خلقا الثالث ، وبذلك تم الثالوث المقدس .

(١) هذا المبحث مختصر من تفسير المنار للسيد رشيد رضا رحمه الله ٦ / ٨٨ : ٩٤

وسأل توليسو ملك مصر الكاهن تنيشوكى : أن يخبره هل كان قبله أحد أعظم منه ؟ وهل يكون بعده أحد أعظم منه ؟ .

فأجابه الكاهن : نعم يوجد من هو أعظم ، وهو الله قبل كل شيء ، ثم الكلمة ، ومعهما روح القدس ، وهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة ، وهم واحد بالذات ، وعنهم صدرت القوة الأبدية ، فاذهب يافانى يا صاحب الحياة القصيرة .
ثم قال المؤلف :

لازيب أن تسمية الأقنوم الثانى من الثالث المقدس (كلمة) هو من أصل وثنى مصرى دخل فى غيره من الديانات كالمسيحية و (أبولو) المدفون فى دهلى يدعى الكلمة ، وفى علم اللاهوت الإسكندرى الذى كان يعلمه بلاتو قبل المسيح بسنين عديدة (الكلمة هى الإله الثانى) ويدعى أيضا ابن الله البكر .

وقد أكد العلامة جار سلاف كرينى أستاذ الحفريات بجامعة اكسفورد ببريطانيا فى كتابه (ديانات قدماء المصريين) وجود التماثل والتطابق التام بين الثالث المسيحى والثالث الفرعونى ، الأمر الذى دعاه إلى التقرير بأن الثالث المسيحى مأخوذ عن الثالث الفرعونى .

التثليث عند أهل أوربا : اليونان ، والرومان وغيرهما :

قال صاحب كتاب (ترقى الأفكار الدينية) م ١ ص ٣٠٧ : إن اليونانيين كانوا يقولون : إن الإله مثلث الأقانيم ، وإذا شرع قسيسوهم بتقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات ، إشارة إلى الثالث ، ويرشون المجتمعين حول المذبح ثلاث مرات ، ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ، ويعتقدون أن الحكماء قالوا : إنه يجب أن تكون جميع الأشياء المقدسة مثلثة ، ولهم اعتناء بهذا العدد فى جميع شعائرهم الدينية .

ونقل دوان عن أورفيوس أحد كتاب اليونان وشعرائهم قبل المسيح بعدة قرون أنه قال : (كل الأشياء صنعها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم) وقال دوان فى ص ٣٧٧ من كتابه المذكور : كان الإسكندناويون يعبدون إلهها مثلث الأقانيم يدعونها : أودين ، وتورا ، وفرى ، ويقولون : هذه الثلاثة الأقانيم إله واحد .

وقال فسك في ص ٢٠٥ من كتاب الخرافات ومخترعوها : كان الرومانيون الوثنيون القدماء يؤمنون بالتثليث ، يؤمنون بالله أولاً ، ثم بالكلمة ، ثم بالروح .
وقال السيد رشيد رضا ، رحمه الله في تفسير المنار ٦ / ٩٢ :

وقد اقتبست الكنيسة بعد دخول قسطنطين فيهم هذه الشعائر كلها ، ونسخت بها شريعة المسيح التي هي التوراة ، ويسمون أنفسهم مع ذلك مسيحيين ، ويعملون كل شيء باسم المسيح : فهل ظلم أحد من البشر بالانقياد عليه كما ظلم المسيح عليه السلام ؟ لا لا .

والخلاصة .

أن الديانة النصرانية بنيت على أساس التوحيد الخالص ، فحولها الكهنة إلى ديانة وثنية ، تقول بتثليث غير معقول أخذوه من تثليث اليونان ، والرومان ، المقتبس من تثليث المصريين ، والبراهمة اقتباساً مشوهاً ، ونسخوا شريعة سماوية برمتها ، واستبدلوا بها بدعاً وتقاليد غريبة عنها فقد كانت ديانة توحيد وزهد وتواضع ، وإيثار وعبودية ، فجعلوها ديانة تثليث ، وطمع وكبرياء ، وترف واستعباد للبشر ، ديانة أصولها التي هم عليها مقتبسة من الوثنية الأولى ، ولم ترد كلمة تدل على عقيدتها عن أنبياء بنى إسرائيل ، ولكنهم زعموا أنها مستمدة من جميع كتب أنبياء بنى إسرائيل ، ديانة نسبوها إلى المسيح عليه السلام ، وليس عندهم نص من كلامه في أصول عقيدتها التي هي التثليث ، وإنما عندهم نصوص من كلامه تدل على التوحيد ، وإبطال التثليث ، وعدم المساواة بين الأب والابن .

ولو لم يكن عندهم من النصوص في هذه العقيدة إلا ما رواه يوحنا في الفصل السابع عشر من إنجيله لكفى ، وهو قوله - عليه السلام - : (٣ وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

فهذا نص واضح فى أنه هو الإله وحده ، وأنه هو رسوله ، وهذا هو الذى دعا إليه القرآن ، وكان يجب أن يكون أساس عقيدتهم يرد إليه كل ما يوهبهم خلافه ، ولو بالتأويل ، لأجل المطابقة بين المعقول والمنقول .

وقال مرقس فى الفصل الثانى عشر من إنجيله : إن أحد الكتبة سأل يسوع

عن أول الوصايا ، فأجابه : (٢٩ أول كل الوصايا اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد إنلخ ... ٣٢ فقال له الكاتب : جيدا يامعلم بالحق قلت ، لأنه الله واحد وليس آخر سواه ... ٣٤ فلما رآه يسوع أنه أجاب بعقل قال له : (لست بعيدا عن ملكوت الله ولم يجسر أحد بعد ذلك أن يسأله) .

وروى يوحنا في الفصل الأول من إنجيله ، أنه قال (٢٨ — ١٨ الله لم يره أحد قط) . ومثله في الفصل الرابع من رسالة يوحنا الأولى (١٢ الله لم ينظره أحد قط) .

وقال بولص في الفصل السادس من رسالته الأولى إلى أهل تيموثاوس (١٦ الذى لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه) وقد رأى الناس المسيح والروح القدس ، فكيف يكون كل منهما هو الله ؟ هذا افتراء ما فى ذلك امترء .

ومن هذه النصوص نعلم أن التوحيد الخالص هو العقيدة المعقولة ، التى تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل ، فإن فرضنا أنه ورد ما ينافيها وجب رده ، أو إرجاعه إليها .

* * *

المبحث الخامس .

القرآن لا يشهد بالتوحيد للمسيحيين .

المعاصرين لنزوله ولم يؤمنوا به وبرسوله .

قال القمص زكريا في ص ٧ :

أولا : المسيحيون موحدون ، ثم قال : يشهد القرآن للمسيحيين بالتوحيد ، أى إنهم يعبدون إلهًا واحدًا ، وهو الله ، يتضح ذلك مما يأتي :
١ - سورة العنكبوت ، وساق الآية هكذا .

﴿ لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ... وقلوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ﴾ بعد أن حذف من أولها ، ووسطها ، وآخرها ، ما يؤثر على معناها ، وإليكم الآية بكاملها ، قال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقلوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ (١) .

وقبل أن أعرض لمعنى الآية ، أذكر عقيدة المسيحيين ، كما ذكرها من كان فيهم ، وتحرر منهم فأقول :

قال الأستاذ محمد مجدى مرجان (٢) : وتدعيما لعقيدة الثالوث ، وإبرازا لمبادئها قام كبار أساقفة المسيحية بعقد مجامع دينية فيما بينهم سميت بالمجامع المقدسة : أولها مجمع نيقة سنة ٣٢٥ م أتموا فيها وضع أسس المسيحية الجديدة ،

(١) العنكبوت ٦ : (٢) في كتابه (الله واحد أم ثلاث) ٢٥ ، ٢٦ ، وذكر نحوها ابن تيمية في كتابه (الجواب الصحيح) ٢ / ٣٢٩ ، ٣٣٠ عن الحسن بن أيوب الذى كان مسيحيا وأسلم أيضا بعد دراسة عميقة

وأهمها قانون الإيمان المسيحي ، الإيمان الثالوثي ، الذي يردده الإخوة المسيحيون داخل الكنائس خلف القسيسين قائلين :

(نؤمن بإله واحد ، الله الآب ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، ما يرى وما لا يرى ، نؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو الآب في الجوهر ، كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان ، هذا الذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنس و صلب عنا على عهد بيلاطس البنطي ، وتأم وقبر ، وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه ، وأيضاً يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات ، الذي ليس للملكة انقضاء .

نعم نؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب نسجد له ونمجده مع الآب والابن الناطق في الأنبياء ، وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية ، ونعترف بعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، ومنتظر قيامة الأموات ، وحياة الدهر الآتي ، آمين ...) .

هذا القانون المسيحي الذي صاغه أهباء الكنيسة يحوى غالبية العقائد التي تسير عليها مسيحية اليوم ، والتي نرجو أن يتاح لنا مجال مناقشتها ، ولكن يعيننا منها هنا ما يتعلق فيها بالثالوث الإلهي ، الثالوث الذي صنعه أيدي المجامع الكهنوتية ، وقدمته للبشر لعبادته ، الثالوث الذي يتكون من الله الواحد الآب ، والرب الواحد الابن المساوي للآب في كل شيء ، فهو إله حق كما أن أباه إله حق ، أي إنهما إلهان ، ثم الرب المحيي ، الروح القدس وهو إله ثالث ، فكلهم آلهة لهم العبادة والسجود والتمجيد ، وهؤلاء الثلاثة هم واحد .. اه .

وبعد ، فهل يشهد القرآن لأصحاب هذه العقيدة بالتوحيد ، أم بالتثليث ؟ .

إليكم ما يشهد به القرآن لهم : ١ — قال تعالى :

﴿اتخذوا أهباءهم ورهبائهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا

إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿١﴾ ٢ . — وقال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ (٢) أى لستم على شيء من أمر الدين حتى تقيموا التوراة والإنجيل فيما دعيا إليه من التوحيد الخالص والعمل الصالح ، وفيما بشرًا به من بعثة النبي محمد ﷺ وما أنزل إليكم من ربكم على لسانه وهو القرآن المجيد الذى أكمل الله به دين الأنبياء والمرسلين .

٣ — وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّنّ الدين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ (٣) فالآية الأولى تشهد لهم بتعدد الأرباب ، والآية الثانية تشهد بأنهم ليسوا على شيء من الدين الصحيح حتى يقيموا تعاليم التوراة والإنجيل المنزلين من عند الله ، لا المحرفين ، وحتى يقيموا تعاليم القرآن الشاهد والمهيمن والأمين على تعاليم التوراة والإنجيل ، والآية الثالثة تشهد عليهم بالتثليث شهادة مؤكدة بالقسم الإلهي ، وتوعدهم عليه بالعذاب الأليم إن لم ينتهوا عنه .
فأين ما فى القرآن من الشهادة لهم بالتوحيد ؟ .

إنه يدعوهم ويدعو أهل الكتاب جميعا إلى التوحيد ، فيقول : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (٤) أما الآية التى ذكرها على أنها تشهد أن المسيحيين يعبدون الإله الواحد فهى تبين عقيدة المسلمين ، لأعقيدتهم ، وتدعوهم إلى التوحيد ، ولا تشهد لهم به ، وإليكم البيان .

قال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آما بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإنا وإلهم واحد ونحن له مسلمون ﴾ .

(١) التوبة ٣١ ، ٣٢ (٢) المائدة ٦٨ (٣) المائدة ٧٣

(٤) آل عمران ٦٤

فالخطاب في هذه الآية للمؤمنين من أمة محمد ﷺ والمعنى : ولا تجادلوا
 بأمة محمد من أراد الاستبصار في الدين من اليهود والنصارى إلا بالطريقة
 الفضلى ، التي هي أحسن الطرق وأقومها ، كمقابلة الخشونة باللين ، والغضب
 بالكظم ، والمشغبة بالنصح ، والسورة بالأناة ، على وجه لا يدل على الضعف ،
 ولا يؤدي إلى إعطاء الدنيا ، فإن هذه الطريقة أدعى إلى المسئلة والمصافاة ، وإزالة
 ما في القلوب من الضغائن والأحقاد ، ونحو الآية : ﴿ ادع إلى سبيل ربك
 بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (١) .

ثم استثنى الله من هذه المعاملة الحسنة الذين ظلموا من أهل الكتاب .

فقال تعالى : (إلا الذين ظلموا منهم) بالإفراط في الاعتداء ، والعداء ، أو
 بإثبات الولد ، أو بقولهم يد الله مغلولة ، ونحو ذلك ، ولم تنفع معهم الطريقة التي
 هي أمثل وأجمل ، فعاملوهم بالشدّة والغلظة ، وما ترونه مناسبا لردعهم عن غيهم
 وضلالهم ، فالرفق لا يفيد مع المعاندين المكابرين ، كما قال الشاعر الحكيم :

ووضع الندى في موضع السيف بالاعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

ثم ذكر الله لنا مثلا للمجادلة بالتي هي أحسن فقال مخاطبا المؤمنين من أمة
 محمد ﷺ : ﴿ وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد
 ونحن له مسلمون ﴾ .

أى إذا حدثكم أهل الكتاب عن كتبهم وأخبارهم عنها بما يمكن أن يكونوا
 صادقين فيه ، وأن يكونوا كاذبين ، ولم تعلموا حالهم في ذلك فقولوا لهم : آمنا
 بالقرآن الذي أنزل إلينا ، وبالتوراة والإنجيل اللذين أنزلا إليكم ، ومعبودنا
 ومعبودكم واحد ونحن لأمره ونهيه متقادون .

سبب نزول هذه الآية : روى البخارى عن أبى هريرة قال : (كان أهل
 الكتاب يقرعون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال
 رسول الله ﷺ : (لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله
 وما أنزل إلينا) الآية (٢) وفيه تعريض بحال الفريقين حيث (اتخذوا أحبارهم

ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا ،
لا إله الا هو سبحانه عما يشركون) .

وقد جاء هذا التعريض من تصدير الجملة الإسمية بالضمير (نحن) أى نحن
المنقادون له فى التوحيد وغيره ، لانغيرنا ممن لم يؤمن بالقرآن ، وينفذ تعاليمه ،
ويدعن لأحكامه .

وهكذا تبين من استعراض الآيه وأسباب نزولها أنها لا تشهد لأهل الكتاب
بالتوحيد ، ولكنها تدعوهم إليه بالطريقة المثلى .

وكيف تشهد للنصارى بالتوحيد ، والدكتور جورج بوست فى تاريخ
الكتاب المقدس - عند الكلام على لفظ الجلالة - يقول كما تقدم : طبيعة الله عبارة
عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر (مت ٢٨ : ١٩ ، ٢ كو ١٣ : ١٤) الله
الآب ، والله الابن ، والله الروح القدس ، فالى الآب ينتمى الخلق بواسطة الابن
(مز ٣٣ : ٦) والى الابن الفدى والى الروح القدس التطهير ، غير أن الثلاثة
أقانيم تتقاسم جميع الأعمال الإلهية على السواء .

أتريدون بعد هذا التثليث الموجود فى عقيدتكم ، والمدون فى كتبكم أن
تشهد لكم الآيه بالتوحيد ؟ .

يا لله مما يفعل الهوى والتقليد الأعمى برعوس أصحابه وعقولهم : أناس
لا يؤمنون بالقرآن ، ولا برسوله ، ولا يعملون بمقتضى هذا الإيمان ، كما نؤمن نحن
بسائر كتب الله ورسله ، ونعمل بمقتضى ذلك ، ثم يريدون أن يشهد لهم القرآن
بالتوحيد والإيمان (إنها لإحدى الكبر) حيث يريد أصحاب الثالوث أن ينتزعوا
- قسرا وافتراء - من القرآن شهادة لهم بالتوحيد والإيمان .

ثم انطلق القمص زكريا فى افتراءه على القرآن فقال - مستدلا أيضا على
شهادة القرآن للمسيحيين بالتوحيد :

٢ - سورة آل عمران :

« .. أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون .
يؤمنون بالله واليوم الآخر » .

فنجى منحه من الإسرائييين الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، فذكر الآيه بعد أن حذف صدرها ، وترك ثلاث آيات قبلها تعين المراد منها ، فعل ذلك ليحرف كلام الله في القرآن عن مواضعه — كما فعلوا في التوراة والإنجيل — وليؤوله على حسب هواه ، ويذهب به إلى غير ما شرع الله ، وسترى بعد عرض الآيات ، وذكر الآيه كاملة أنها لم تعرض للنصارى بشيء وليس فيها أى دليل على ما يريد ، فالآيه مذكورة بعد قوله تعالى :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا ببجل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ .

ثم قال تعالى :

﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ (١) .

فقد بين الله في الآيه الأولى أن أمة محمد ﷺ الذين آمنوا به وبكتابه وعملوا بما جاء فيه خير أمة في الوجود ؛ لأنهم يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله إيمانا كاملا ، شاملا لكل ما يجب الإيمان به .

ثم ذكر أن أهل الكتاب لو آمنوا حقيقيا لكان خيرا لهم . لكنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، ويؤمنون ببعض الرسل ، كموسى وعيسى ، ويكفرون بمحمد ، على أنهم كيف يدعون الإيمان ، وفي كتبهم البشارة بمحمد وصفته ، كما قال تعالى :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ (٢) فلو آمن أهل الكتاب بكتبهم لآمنوا بمحمد

(١) آل عمران ١١٠ : ١١٤ (٢) البقرة ١٤٦

ثم ذكر الله أن من أهل الكتاب جماعة ، مؤمنون حقيقة ، كعبد الله بن سلام ، وأضرابه ، وكثير منهم فاسقون ، وخارجون عن حدود الدين وكتبه .
وبين الله في الآية الثانية أنهم لن يضرروا المؤمنين إلا ضررا بسيطا ، وأنهم إن قاتلوهم يهزموا أمامهم ، وأنهم لا ينصرون أبدا .

وبين في الآية الثالثة أن الذلة قد ضربت عليهم ، وأثرت فيهم كما يؤثر الضرب في النقد فلا خلاص لهم منها إلا بسبب عهد من الله ، وهو ماقرته الشريعة لهم ، من العدل والمساواة ، وعهد من الناس ، وهو ما يقتضيه مشاركتهم في الوطن والحاجة ، والانتفاع في الصناعة والتجارة ، وأنهم مستحقون لغضب الله وسخطه ، والمسكنة محيطة بهم إحاطة المكان بمن فيه ، وذلك بسبب كفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وهذا بسبب معصيتهم لله وتعديهم لحدوده .

وهذه الصفات الذميمة من ضرب الذلة والمسكنة والاستحقاق لغضب الله بسبب الكفر والمعاصي ، وقتل الأنبياء بغير حق ، تكررت في القرآن الكريم في جانب اليهود خاصة .

فقوله بعد ذلك (ليسوا سواء) لا بد أن يكون متناولا لهم ، والمعنى : ليس أهل الكتاب من اليهود متساوين في هذه الصفات والأعمال القبيحة التي ذكرت فيما سبق ، بل منهم المؤمنون وهم الأقلون ، ومنهم الفاسقون ، وهم الأكثرون ، كما قال في الآية السابقة ﴿ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ .

وقوله عقب ذلك ، ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ لا بد أن يكون متناولا لليهود كذلك ، فإنه لما بين وصف فاسقهم في الآية السابقة ، كان من العدل الإلهي أن يبين وصف مؤمنهم ، فقال تعالى : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ الخ .

ومعنى (أمة قائمة) أى أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه ، وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه ، ومن تبعية ، أى بعض أهل الكتاب جماعة مستقيمة على الحق متبعة للعدل ، لا تظلم ولا تخالف أمر الله ، والمراد بهذه الأمة

جماعة من اليهود أسلموا ، كعبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعيد ، وأسيد بن عبيد ، وأضرابهم ، كما رواه ابن جرير عن ابن عباس .

﴿ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ أى يتلون القرآن بالليل وهم يصلون متعجدين .

وقوله تعالى : ﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ يدل على أنهم يؤمنون بالله وبجميع ما أنزل من كتب ، ومنها القرآن الكريم ، وبجميع رسله الذين أرسلهم ومنهم محمد ﷺ الذى أرسله الله تعالى إلى جميع الناس بما فهم أهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم ﴾ (٢) .

وما من نبي من الأنبياء إلا وقد أخبر قومه بحقيقة دين نبينا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به . إلا كان من أصحاب النار) رواه مسلم (٣) .

ومن آمن ببعض الرسل ، وكفر ببعضهم فليس بمؤمن ، بل هو كافر ، ومأواه النار ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾ (٤) .

وقد اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود الذين كفروا بالمسيح - عليه السلام - ومحمد ﷺ ليسوا بمؤمنين ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد ﷺ .

وإذا كانت الآية السابقة قد تناولت اليهود فقط ، فهناك آية تناولت النصارى وحكمهم فيها حكم اليهود فى الآية السابقة ، وهذه الآية هى قوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع

(١) الأعراف ١٥٨ (٢) النساء ٤٧ (٣) فى ٢ / ١٨٦ (٤) النساء ١٥٠ ، ١٥١

فقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية نزلت في النجاشي ونحوه ممن آمن بالنبي ﷺ لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبي ولا العمل بشرائع الإسلام الظاهرة لكون أهل بلده نصارى ، لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام .

ولهذا جعل من أهل الكتاب مع كونه آمن بالنبي ﷺ ، ومثله في ذلك مثل من يؤمن بالنبي في بلاد الحرب ، ولا يتمكن من الهجرة إلى دار الإسلام ، ولا يمكنه العمل بشرائع الإسلام الظاهرة ، بل يعمل ما يمكنه ، ويسقط عنه ما يعجز عنه ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرٌ رَقَبَةٌ مُؤْمِنَةٌ ﴾ (٢) .

فقد يكون الرجل في الظاهر من الكفار ، وهو في الباطن مؤمن كما كان مؤمن آل فرعون ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ .. ﴾ (٣) إلى أن قال تعالى : ﴿ فُوقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَمَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (٤) .

فهو من آل فرعون باعتبار النسب والظاهر ، وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب ، وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون هؤلاء .

وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو في الظاهر منهم ، وهو في الباطن يؤمن بالله ورسوله محمد ﷺ ويعمل بما يقدر عليه ، ويسقط عنه ما يعجز عنه علما وعملا لقوله تعالى : ﴿ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٥) وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام كعجز النجاشي .

وفي حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : لما مات النجاشي قال ﷺ : ﴿ اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ ﴾ فقال بعض الناس : يأمرنا أن نستغفر لعلج (٦) مات بأرض الحبشة ؟ فنزلت ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَأْتُنزل إِلَيْكُمْ وَمَأْتُنزل إِلَيْهِمْ ﴾ ذكره ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم .

(١) آل عمران ١٩٩ (٢) النساء ٩٢ (٣) غافر ٢٨ (٤) غافر ٤٥

(٥) البقرة ٢٨٦ (٦) العليج بوزن العجل الواحد من كفار العجم

وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد (وإن من أهل الكتاب) یعنی مسلمة أهل الكتاب ، وقال عباد بن منصور : سألت الحسن البصری عن قول الله ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ الآية ، قال : لهم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتبعوه ، وعرفوا الإسلام ، فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين ، للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ ، واتباعهم محمدا ﷺ رواه ابن أبي حاتم (١) .
وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ) (٢)

وهكذا نجد القرآن الكريم إذا أثنى على أحد من أهل الكتاب المعاصرين لنزوله إنما يثنى على من آمن منهم بمحمد ﷺ وكتابه الكريم ، كما في الآيتين السابقتين ، وكما في قوله تعالى : ﴿ قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (٣) .

ولا يمدح القرآن أناسا تكبروا عن الاستجابة لندائه ، فلم يقبلوا ما جاء به من أن محمدا رسول الله إلى الناس كافة ، أهل كتاب ، أو غير أهل كتاب ، ولم يذعنوا لتشريع الصادرة عن الله الذي أنزله ، بل يعتبر القرآن كل من لم يؤمن بمحمد وكتابه كافرا ومخلدا في النار ، سواء كان من أهل الكتاب أو من غير أهل الكتاب قال تعالى :

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة . وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة . وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة . إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾ (٤)

والمعنى : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين متروكين هملا بدون إرشادهم إلى الحق ، وإقامة الحججة عليهم ، وهذه الحججة هي رسول من الله ،

(١) هذه الأحاديث في تفسير ابن كثير ٤٣٨ ، ٤٤٤ ، (٢) اللؤلؤ والمرجان ١ / ٣٠

(٣) الأحقاف ١٠ (٤) البينة ١ : ٦

وهو محمد ﷺ يتلو قرآنا صار فيما بعد مكتوبا في صحف منزهة عن الباطل والتحريف ، فيها آيات مستقيمة لاعوج فيها ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بوصاروا شيئا وأحزابا إلا بعد أن جاءهم محمد ﷺ بكتابه حسدا له وبغيا ، ومأمروا إلا أن يعبدوا الله وحده ، بعيدين عن الشرك مستقيمين على دين إبراهيم وغيره من الرسل ، ولكنهم حرفوا وبدلوا فعبدوا أحبارهم ورهبانهم ، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا .

وأمرنا بأن يقيموا الصلاة فيؤدوها على الوجه الأكمل ، في أوقاتها بشروطها وخشوعها وآدابها ، وأن يعطوا الزكاة لمستحقها عن طيب نفس ، وخص الصلاة والزكاة لشرفهما ، وذلك المذكور من العبادة والإخلاص ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هو دين الملة المستقيمة ، دين الإسلام ، فلماذا لا يدخلون فيه ؟ .

إن الذين كفروا بالله ، فكذبوا بالقرآن ، وبنبوذة محمد ﷺ ، من اليهود والنصارى ، وعباد الأوثان ، هؤلاء جميعهم يوم القيامة في نار جهنم ماكين فيها أبدا ، أولئك شر الخلق على الإطلاق ، فهم شر من السراق ، لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد ﷺ ، والدعوة إلى الإيمان به ، وشر من قطاع الطرق ، لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق وكفروا بالله صراحة وضلوا ضللا لا يعيدا .

وهكذا لاتشهد آيات القرآن الكريم للمسيحين بالتوحيد ، وإنما تشهد لهم بالكفر المؤكد ، والتثليث الصريح ، وبالخلود المؤبد في نار ﴿ وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

* * *

المبحث السادس .

والقرآن لا يشهد للمسيحيين أنهم غير مشركين

وقال القمص زكريا في ص ٨ :

ثانيا : أنهم غير مشركين — يقصد أن القرآن يشهد للمسيحيين أنهم غير مشركين — ثم قال :

١ — سورة المائدة .

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ ١٥ .

ودحضا لهذا الافتراء أقول :

القرآن لا يشهد للمسيحيين المعاصرين لنزوله ، ولم يؤمنوا به وبرسوله أنهم غير مشركين ، وإليك البيان :

١ — إن هذه الآية لم تتعرض لعقيدة النصارى بشرك أو توحيد ؛ لأنها ليست مسوقة لذلك ، بل مسوقة لبيان علاقة أهل الكتاب بالمسلمين ، فبعد أن تعرض القرآن الكريم في الآيات السابقة لليهود وأعمالهم ، وللنصارى وعقائدهم ، ذكر هنا أحوالهم في عداوتهم ومحبتهم للمؤمنين ، وتعرض للمشركين كذلك بالتبع ، وإذا كان الله لم يصف المسيحيين بالشرك في هذه الآية ، لأنها ليست مسوقة لذلك ، فقد وصفهم بالشرك ، وبأنهم يعبدون غير الله في آيات أخرى تقدم بعضها ، منها :

١ — قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لإله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ (١) .

فأخبر الله أنهم اتخذوا رجال دينهم أربابا يشرون لهم ما لم يأذن به الله ويكون كلامهم دينًا ، ولو كان يخالف كلام الله وكلام رسوله ، وعبدوا المسيح بن مريم فاتخذوه ربا وإلهًا ، وقد أمرهم الله في كتبه على لسان رسوله ألا يعبدوا إلا إلهًا واحدًا وهو الله الواحد الأحد — لأنه لا يستحق العبادة في حكم العقل والشرع إلا الإله الواحد ، فبعملهم هذا أشركوا بالله — تنزه الله عن الإشراف في العبادة ، والخلق والصفات — وأصل دينهم لاشرك فيه ، فما بعث الله رسوله إلا بالتوحيد والنهي عن الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ (٣) .

ب — وقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ (٤) فقد جعل الله قول النصارى ﴿ إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ شركًا .

وادعاء النصارى وغيرهم أن الله ولدا هو ما استعظم الله افتراءه من قائله ، وشدد عليهم النكير فيه ، فقال تعالى : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنهم لَكاذِبون ﴾ (٥) وقال : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ (٦) .

ج — وأثبت الله بالدليل القاطع أعظم وأشنع أنواع الشرك للنصارى ، وهو قولهم : إن الله ثالث ثلاثة : أب والد غير مولود ، وابن مولود غير والد ، والروح القدس الناشئ عنهما ، فقال تعالى — مؤكداً كلامه بالقسم ، ومتوعدا لهم بأشد أنواع العذاب وأقساه على هذا الشرك إن لم يقلعوا عنه — : ﴿ لقد

(١) التوبة ٣١ (٢) الأنبياء ٢٥ (٣) الزخرف ٤٥ (٤) المائدة ٧٢ (٥) الصفات ١٥٢٤١٥١ (٦) الزمر ٤

كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴿١﴾ فأى شرك وأى تشنيع ووعيد عليه أعظم وأقبح وأشد من هذا ؟ .

٢ — إن الله تعالى إذا ذكر طوائف الديانات مجتمعة جعل المشركين علما على عباد الأوثان ، لأنهم لقدمهم فى وثنيّتهم يعيقون فى الشرك والكفر ، أصلاء فيه ، أما أهل الكتاب فالشرك والكفر قد عرض للكثير منهم عروضاً ، وليس من أصل دينهم ، وذلك نحو قوله تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ﴾ (٢) .

وإذا ذكر إحدى الطوائف الدينية التى أشركت من أهل الكتاب منفردة ذكرها بوصف الشرك كما فى الآيات السابقة .

٣ — إن قوله « والنصارى أقربهم مودة للمسلمين ، فيتضح أن النصارى غير مشركين بالله » كلام غير منطقي فلا ينتج المطلوب ؛ لأنه لا يلزم من وجود مودة بين جماعتين إحداها موحّدة كون الأخرى موحدة ، فقد وجدت المودة والتحالف والتعاطف بين الرسول ﷺ وأصحابه من جهة وبين قبيلة خزاعة من جهة أخرى قبل فتح مكة ، وأكثرهم مشركون ، قال تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ (٣) .

٤ — إن هذه الآية نزلت فى النصارى الذين أسلموا فأمنوا بمحمد وكتابه ، وعملوا بمقتضى ذلك ، ويدل على هذا الآيات التى ترك ذكرها بعد هذه الآية ، وهى قوله تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فأكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين .

فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء
المحسنين ﴿١﴾ .

وإليك معنى الآيات لترى أنها أنزلت فيمن أسلم من النصارى :

والمعنى : لتجدنّ — يا محمد — أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ،
والذين أشركوا من أهل مكة وغيرهم ، لتضاعف كفرهم وجهلهم بحقيقة الأمر ،
وانهماكهم في الهوى والضلال ، وموالاته بعضهم لبعض ، وتحزبهم جميعاً ضد
المسلمين ، كما حصل في غزوة الخندق وغيرها ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى
الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ (٢) ويقولون للذين
كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴿٣﴾ .

﴿ ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ وقرب
مودتهم للمؤمنين بسبب أن منهم قسيسين ، أى علماء ورهبانا ، أى عبادا ، وأنهم
لا يستكبرون عن اتباع الحق ، كما يستكبر اليهود والمشركون ، وأنهم إذا سمعوا ما
أنزل إلى الرسول محمد ﷺ من القرآن ترى أعينهم تمتلئ بالدمع حتى يفيض
منها ، (مما عرفوا من الحق) أى من أجل معرفتهم أنه كلام الله ، وأنه حق
(يقولون ربنا آمننا) أى يقولون ياربنا صدقنا بنبيك محمد ﷺ ، وكتابك الذى
أنزلته عليه (فاكتبنا مع الشاهدين) أى مع المقرين من أمة محمد ﷺ الذين
يشهدون على الأمم يوم القيامة .

وقالوا في جواب من غيرهم بالإسلام من اليهود ﴿ وما لنا لا نؤمن بالله
وما جاءنا من الحق ﴾ أى وأى مانع يمنعنا من أن نصدق بالله وحده وبما جاءنا من
الحق وهو القرآن المنزل على محمد ﷺ مع وجود المقتضى ، وقيام الدلائل على
ذلك ، ونحن نرجو أن يدخلنا ربنا الجنة مع القوم الذين صلحت عقائدهم
وأعمالهم .

فكتب الله لهم ثواباً لاعترافهم ، هو جنات تجري الأنهار تحت أشجارها
وقصورها وهم ماكثون فيها دائماً ، وذلك الجزاء الذى نالوه هو جزاء كل محسن

(١) المائدة ٨٣ : ٨٥ (٢) بالجبت والطاغوت : كل معبود أب مطاع غيره تعالى

(٣) النساء ٥١

ويدل على أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من النصارى بمحمد ﷺ وبالقرآن الكريم الذى أنزل عليه وعملوا بمقتضى ذلك ما يأتي :

أ - ما جاء فى سبب نزولها ، وهو ما أخرجه ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب وأبى بكر بن عبد الرحمن ، وعروة بن الزبير قالوا : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري وكتب معه كتابا إلى النجاشى فقدم على النجاشى ، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين معه وأرسل إلى الرهبان والقسيسين ثم أمر جعفر بن أبى طالب فقرأ عليهم سورة مريم ، فآمنوا بالقرآن ، وفاضت أعينهم من الدمع ، فهم الذين أنزل الله فيهم ﴿ ولتجدن أقرهم مودة ﴾ إلى قوله : ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ (١)

ب - وقوله تعالى : ﴿ وأنهم لا يستكبرون ﴾ أى لا يستكبرون عن اتباع الحق كما استكبر غيرهم .

ج - وقوله ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آتينا مع الشاهدين ﴾ فهم سمعوا القرآن فتأثروا به فآمنوا إيمانا عميقا ، وقالوا : ربنا آتينا بنبيك محمد ﷺ الذى أرسلت وبكتابك الكريم الذى أنزلت فاكتبنا مع المقرين بتصديقهما .

د - وأنه لما غيرهم من غيرهم بالإسلام أجابوه قائلين : ﴿ ومالنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾ .

هـ - وأن الله سبحانه إذا أثنى على جماعة من أهل الكتاب المعاصرين لنزول القرآن إنما يثنى على من دخلوا فى الإسلام وآمنوا بالقرآن ، ومن أنزل عليه ، كما آمنوا بسائر كتب الله ورسله السابقين ، كما سبق فى قوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليك وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ (٢) .

و كما فى قوله : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ (٣) وقوله : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من

(١) لباب القول للسيوطى ١ / ١١٧ (٢) آل عمران ١٩٩ (٣) البقرة ١٢١

قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴿١﴾، وقوله: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً. ويخرون للأذقان يكون ويزيدهم خشوعاً﴾ ﴿٢﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

أما سبب عداوة اليهود للمسلمين :

فقد ذكرها الله في الآيات السابقة على هذه الآيات فقال تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون. ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون . لتجدن ﴿٣﴾ .

فقد ذكرت السبب في شدة عداوة اليهود للمسلمين ، ومودة النصارى لهم ، حيث كان اليهود يتآمرون مع المشركين الكفار ، ويوالونهم ويتحالفون معهم ضد المسلمين ، في حين أن دينهم متحد في أسسه مع الدين الذي يدعو إليه النبي محمد ﷺ ، ولو كانوا مخلصين لدينهم لما اتخذوهم أولياء ، لأنهم أعداء لدينهم ، ودين النبي محمد المتحدّين في الأصول .

وحيث كان يبدو من النصارى رقة قلب وإخلاص وتواضع ، وعدم عناد ، ومسارعة إلى الاعتراف بالحق ، ويتضح لهم اتساق ما نزل على النبي ﷺ مع ما عندهم ، فيدعوهم ذلك إلى الإيمان به ، ولذا كان من دخل في الإسلام من النصارى أكثر ممن دخل فيه من اليهود .

ووصف بغض اليهود للمسلمين ودسائسهم ضدهم ، وتربصهم بهم ، وكيدهم لهم قد تكرر في القرآن في آيات عديدة ، جمعها وتوضيحها يحتاج إلى كتاب ليس هذا موضعه الآن .

(١) القصص ٥٢ ، ٥٣ (٢) الإسراء ١٠٧ : ١٠٩ (٣) المائدة ٧٨ : ٨١

والخلاصة :

أن معاداة اليهود ، والمشركين للمسلمين ترجع إلى عوامل منها السياسية والاجتماعية ، والحلقية والوراثية ، ومنها أنانية الرؤساء والرعماء ، وأجبار اليهود والربانيين ، وخوفهم على ما كانوا يتمتعون به ، من متع الحياة ونفوذها .

أما النصارى فلم يكن لهم كيان قومي ، ومصالح خطيرة في دار الدعوة ، وفي عهديةا المكى والمدنى ، فلم يقع بسبب ذلك بينهم وبين النبي ﷺ والمسلمين احتكاك واصطدام في العقائد والسياسة ، كما كان أمر اليهود الذين كانوا يخشون على سلطانهم في المدينة وما جاورها .

أما حين تجاور الدينان ودخل بعض النصارى في الإسلام ، وأما حين استعمر النصارى معظم الأقطار الإسلامية ، أو التحموا معهم في دولة واحدة ، فقد تفننوا في اضطهاد المسلمين وتقتيلهم بالجملة ، وعاملوهم بكل قسوة ، وبأقبح معاملة ، بل أرغموهم في كثير من المناطق على النصرانية ، ومن أبوها كان جزاؤهم الإبادة الجماعية ، وما عليك إلا أن تتصفح التاريخ ، أو تلقى نظرة على البلاد التي يحكمها مسيحيون ولو قلة ، أو تكون فيها قلة إسلامية فسترى العجب العجيب ، وستنقلب منها بقلب حزين ، وطرف كليل ، وعما قريب سيأتيك مزيد تفصيل .

* * *

المبحث السابع .

والقرآن لا يشهد للمسيحين أنهم غير كفرة

وقال القمص زكريا في ص ٨ :

ثالثا : أنهم غير كفرة — يقصد أيضا أن القرآن يشهد للمسيحين أنهم غير كفرة — ثم زعم أن القرآن يؤيد مدعاه فقال :

٢ — سورة آل عمران :

﴿ إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ (١) .

ثم قال : فمن هذا يتضح أن الذين اتبعوا المسيح (أى المسيحين) ليسوا كفرة ، بل إن الله يميزهم عن الكفرة ويرفعهم عليهم .

ودحضا لهذا الافتراء أيضا أقول :

القرآن لا يشهد للمسيحين المعاصرين لنزوله ، ولم يؤمنوا به وبرسوله أنهم غير كفرة ، بل يشهد أنهم كفار ، ومخلدون في النار ، وإليك البيان :

١ — كما أن اليهود الموجودين حين بعثة عيسى — عليه السلام — إن لم يؤمنوا به وبالإنجيل فهم كفار ، فاليهود والنصارى الموجودون بعد بعث محمد ﷺ إن لم يؤمنوا به وبالقرآن الكريم ، كما يؤمنون بسائر كتب الله ورسله ، فإنهم كفار في نظر القرآن الكريم ، ومادمت تستدل بالقرآن على ما تريد ، فاقبل ما جاء فيه ، وما حكم به عليهم ، فقد وصفهم الله وحكم عليهم بالكفر ، ودمغهم

(١) آل عمران ٥٥

به في عدة آيات منها :

١ - قوله تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون ﴾ (١) .

٢ - وقوله : ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ (٢) . الخير : العمة والفضل ، والمراد به في الآية النبوة والوحى والقرآن العظيم .

والمعنى : لا يحب الذين كفروا من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، ولا المشركين عبدة الأصنام أن ينزل الله عليكم - أيها المؤمنون - أى شئ من الخير الذى ينفعكم بسبب حسدهم وبغضهم لكم ، وجهلهم أن الله يختص برحمته من يريد دون أن يضره سخط الساخطين ، أو حسد الحاسدين ، وهو صاحب الفضل العظيم على جميع المخلوقات ، وقال ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ ولم يقل ما يود أهل الكتاب ، ليسجل عليهم كفرهم بكتبهم ؛ لأنهم لو آمنوا بها حقا لصدقوا الحمد لله الذى أمرتهم بكتبهم بتصديقه واتباعه .

٣ - وقوله : ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ أى وأنتم توفنون من صميم قلوبكم أن الله حق ، وأن محمداً رسول الله صدقا .

٤ - وقوله : ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾ (٣) .

أى قل - يا محمد - لأهل الكتاب من اليهود والنصارى لم تكفرون بآيات الله التى دلتكم على صدق محمد وكتابه ، والله شهيد على أقوالكم وأعمالكم وسيجزىكم عليها .

٥ - وقوله : ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم

(١) البقرة ٤٠ ، ٤١ (٢) البقرة ١٠٥ (٣) آل عمران ٧٠ ، ٩٨

لأول الحشر ﴿٦﴾ .

٦ — وقوله ﴿٦﴾ أم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لمن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ﴿٦﴾ (١) . فقد دمنهم الله بالكفر وهم من أهل الكتاب لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ وكتابه .

٧ — وقوله : ﴿٧﴾ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة ﴿٧﴾ (٢) . فالقرآن لم يثن ويمدح أحدا من اليهود أو النصارى بعد تبديل دينهم ونسخه بالإسلام ، وكيف يثنى عليهم أو يمدحهم ، وهو يكفرهم ويذمهم في مواضع كثيرة منه .

ب — إن من يؤمن بموسى وعيسى — عليهما السلام — ويؤمن بكتايبهما لايعتد بإيمانه إلا إذا آمن بمحمد ﷺ وكتابه ؛ لأن كلا من موسى وعيسى أخبر قومه بوجوب الإيمان بمحمد ﷺ ورسالته قال تعالى : ﴿٨﴾ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴿٨﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿٩﴾ ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ﴿٩﴾ (٤) .

ج — وبناء على ذلك فقوله تعالى : ﴿١٠﴾ إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلى مطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴿١٠﴾ معناه وجاعل الذين اتبعوك — في الدين وآمنوا بأنك عبد الله ورسوله ، وصدقوك في قولك ﴿١١﴾ يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴿١١﴾ (٥) . ثم آمنوا بعديكم بمحمد — فوق الذين مكروا بك من اليهود ، ومن سار بسيرتهم ممن لم يهتد بهديك ويسير على دربك .

(١) الحشر ٢ ، ١١ (٢) البينة ١ : ٣

(٣) البقرة ١٤٦ (٤) الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧ (٥) الصف ٦

والمراد أنهم أعلى منهم روحا ، وأحسن خلقا ، وأكمل آدابا ، فهذه الفوقية فوقية دينية روحانية ، وهي فضلهم عليهم في حسن الأخلاق ، وكمال الآداب ، واتباع الحق واجتناب الباطل .

وقال أبو السعود في تفسيره ﴿ وجاعل الذين اتبعوك ﴾ : قال قتادة والربيع ، والشعبي ، ومقاتل ، والكلبي : هم أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه من أمة محمد ﷺ ، دون الذين كذبوه ، وكذبوا عليه من النصارى ﴿ فوق الذين كفروا ﴾ وهم الذين مكروا به عليه السلام ، ومن يسير بسيرتهم من اليهود فإن أهل الإسلام فوقهم ظاهرين بالعزة والمنعة والحجة .

د — وقال الإمام ابن تيمية : إن المسيح بشر بأحمد ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ . فإذا لم يتبعوا أحمد كانوا مكذبين للمسيح ، وعندهم من البشارات ، عن المسيح وغيره من الأنبياء ، بأحمد ما هو مبسوط في مواضع (١) .

وهكذا ، فكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ بعد بعثته ولم يؤمن بالقرآن ويعمل بما جاء فيه ، وكل من يقول بالثالوث ، أو أن عيسى ابن الله أو هو الله حقيقة ، فليس مؤمنا بعيسى — عليه السلام — ولا متبعا له فيما جاء به وقاله .

وهكذا ، ثبت أن كل من كان في عصر الرسالة الحمديّة ، ولم يعتنق الإسلام ، ويلتزم أحكام القرآن ، لا يشهد لهم القرآن بالإيمان ، ولا بالتوحيد ، بل يشهد لهم بالكفر والخلود في النار ، وقد جاء ذلك في آيات كثيرة متواترة منها قوله تعالى : ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ (٢) . وقوله : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسوله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾ (٣) . وقوله : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدن فيها أولئك هم بشر البرية ﴾ (٤) .

(١) الجواب الصحيح ١ / ٢٨٤ (٢) آل عمران ٨٥ (٣) النساء ١٥٠ ، ١٥١ (٤) البينة ٦

وقوله ﷺ : (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة :
يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب
النار) رواه مسلم عن أبى هريرة (١) .

* * *

المبحث الثامن

المسيح — عليه السلام — ابن مريم وليس ابن الله

وقال القمص زكريا في ص ١٧ :

المسيح هو ابن الله المتجسد ، ثم قال : وابن الله من له طبيعة الله ، ثم قال :
وابن الله : أى الله حقا .

وإبطالا لهذا الباطل أقول :

١ — لاشك أنه يقصد بقوله (المسيح هو ابن الله المتجسد) البنية الحقيقية ،
بدليل قوله (وابن الله من له طبيعة الله) وقوله (وابن الله : أى الله حقا) وكما
سبق بيانه في عقيدتهم التى يرددونها فى الكنائس خلف قساوستهم :
(نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل
الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو الآب فى
الجوهر ، كل شئ به كان ، وبغيره لم يكن شئ مما كان) .

وهذا ما استعظم الله افتراءه من قائله ، وشدد عليهم النكير فيه ،
وتوعدهم عليه بعظيم عقابه ، وصب عليهم بسببه سوط عذابه ، فقال تعالى :

١ — ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إداً ^(١) . تكاد السموات
يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولدا . وما
ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن
عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتية يوم القيامة فردا ^(٢) .

٢ — وقال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . ما هم به من علم

(١) منكراً عظيماً . (٢) مريم ٨٨ : ٩٥ .

- ولا لأبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴿١﴾ .
- ٣ — وقال : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون ﴾ (٢) ﴿ (٣) .
- ٤ — وقال : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (٤) .
- ٥ — وقال : ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان (٥) بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ (٦) .
- ٦ — وقال : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة (٧) وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴾ (٨) ﴿ (٩) .
- ٧ — وقال — جل شأنه : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ (١٠) .

معاني مفردات هاتين الآيتين :

عزير : هو من يسميه أهل الكتاب عزرا . يضاهئون : يشابهون ويحاكون . قاتلهم الله : المراد لعنهم وطردهم من رحمته . أنى يؤفكون : كيف يصرفون عن الحق إلى غيره . أحبارهم : هم علماء اليهود ، جمع حبر بفتح الحاء وكسرهما . رهبانهم : جمع راهب وهو عند النصارى المنقطع للعبادة .

(١) الكهف ٤ ، ٥ (٢) مطيعون خاضعون (٣) البقرة ١١٦
(٤) مريم ٣٥ (٥) حجة وبرهان (٦) يونس ٦٨ ، ٦٩ (٧) زوجة (٨) حفيظ
(٩) الأنعام ١٠١ ، ١٠٢ (١٠) التوبة ٣٠ ، ٣١

سبب النزول .

أخرج ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى ، وأبو أنس ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ، وأنت لاتزعم أن عزيز ابن الله فأنزل الله ﴿ وقالت اليهود عزيز ابن ﴾ الآية (١) .

وإسناد هذا القول إليهم جملة وإن كان قد صدر من بعضهم لأن المنكر الذى يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه يؤاخذون به كلهم ، كما قال تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ (٢) .

والمعنى : وقالت اليهود ، أى بعضهم : عزيز ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقد كان القدماء منهم يقولون به قاصدين معنى التكريم والحية ، فكان إطلاقاً مجازياً ، ثم سرت إليهم وثنية الأمم السابقة ، فانفتحت كلمتهم على أنه ابن الله حقيقة ، وعلى أن ابن الله بمعنى الله ، وبمعنى روح القدس ، إذ هذه الثلاثة واحد حقيقة ، وهذا تعليم الكنائس الذى قرره الجامع الرسمية بعد المسيح ، وتلاميذه بثلاثة قرون وقد خالف فى ذلك من يسمون الموحدين أو العقليين ولكن الكنائس الكاثوليكية ، والأرثوذكسية ، والبروتستنتية لا تعتد بنصرانيتهم ولا بدينهم .

﴿ ذلك قولهم بأفواههم ﴾ أى هذا الذى قالوه فى عزيز والمسيح قول تلوكة الألسنة فى الأفواه ، لا يؤيده برهان ، ولا يتجاوز حركة اللسان ، بل البرهان دال على عكسه لاستحالة إثبات الولد لمن هو منزه عن الحاجة إلى الغير ، واتخاذ الصاحبة .

﴿ يضاهنون قول الذين كفروا من قبل ﴾ يشابهون ويحاكون به قول الذين كفروا من قبلهم ، كقدماء المصريين وبراهمة الهند والبوذيين ، ومشركى العرب الذين قالوا مثل هذا القول ، إذ قالوا : « الملائكة بنات الله » .

وقد علم من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله

(١) فتح القدير للشوكانى ٢/ ٣٥٤ (٢) الأنفال ٢٥

والحلول والتثليث كانت موجودة عند البراهمة والبوذيين وفي الهند والصين واليابان ، وقدماء الفرس والمصريين واليونان والرومان كما سبق .

فبيان القرآن لهذه الحقيقة التي لم يكن أحد من العرب ولا من حولهم يعرفها ، بل لم تظهر إلا في هذا الزمان معجزة من معجزاته الكثيرة التي تظهر على مر الزمان ، وتصديقها المشاهدة والعيان .

﴿ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ أى لعنهم الله وطردهم من رحمته ، كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ، ويبدلون الحقائق ، ويصرفونها عن غير وجهها الطبيعي إلى قول لا يقبله عقل ، فما المسيح وعزير إلا مخلوقان من مخلوقات الله الذى خلق هذا الكون العظيم ودبر أمره ، ولا ينبغي لأحد من هذه المخلوقات أن يجعل لخالقه ومدبر شئونه ولداً من جنسه مع علمه بأنه كان يأكل ويشرب ويتعب ويتألم .

ثم بين سبحانه كفرهم وشركهم فقال :

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ أى اتخذ أهل الكتاب رؤساء أديانهم أرباباً وآلهة من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل ، فاليهود اتخذوا أحبارهم ورهبانهم ، والنصارى اتخذوا قساوستهم ورهبانهم أرباباً غير الله .

عن عدى بن حاتم رضى الله عنه ، قال : أتيت النبي ﷺ ، وفي عنقى صليب من ذهب ، فقال : يا عدى ، اطرح عنك هذا الوثن ، وسمعته يقرأ ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ قال : « إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » رواه الترمذى (١) .

﴿ والمسيح بن مريم ﴾ اتخذته النصارى رباً معبوداً بعد ما قالوا إنه ابنه واعتقدوا فيه الحلول ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وتأخيره في الذكر — مع أن اتخاذهم له رباً معبوداً أقوى من مجرد الإطاعة في أمر التحليل والتحریم كما هو المراد باتخاذهم الأحبار والرهبان — لأنه مختص بالنصارى ، ونسبته إلى أمه مع

(١) / تفسير الوصول ١ / ١٢٦ .

دالاتها على مربيته المنافية للربوبية للإيدان بكمال انحطاط رأيهم ، والقضاء عليهم
بنهاية الجهل والحماقة .

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ أى اتخذ اليهود والنصارى رؤساء
دينهم أرباباً من دون الله تعالى ، والربوبية تستلزم الألوهية بالذات ، إذ الرب هو
الذى يجب أن يعبد وحده ، واتخذ النصارى المسيح رباً وإلهاً ، والحال أنهم ما أمروا
فى التوراة والإنجيل على لسان موسى وعيسى ، ومن اتبعهما فيما جاء به عن الله
إلا أن يعبدوا ويطيعوا فى الدين إلهاً واحداً بما شرعه لهم ، وهو ربهم ورب كل
شئ ومليكه .

﴿ لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ أى لا وجود لغير الإله الواحد
لا فى حكم الشرع ، ولا فى نظر العقل ، وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونه
بمحض الهوى والجهل ، تنزيهاً له عن الشرك فى الألوهية والعبادة والطاعة .

٨ - وقال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم
يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ (١) أى الله واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله ،
منفرد بتصرف العالم وتدبير شئونهم ، وهو العلى الأعلى الذى لا يقصد فى قضاء
الحوائج غيره ، وليس له مكافئ ومماثل ، فكيف يشبهونه بخلقه ، ويقولون ﴿ ولد
الله وإنهم لكاذبون ﴾ (٢) .

٩ - وعن أنى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قال الله تعالى : « كذبنى
ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقولته لن يعيدنى كما
بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقولته اتخذ الله
ولداً ، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد » رواه
البخارى (٣) .

١٠ - وما ذكره الله من قول عيسى - عليه السلام - لقومه ﴿ إن الله
ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ (٤) .

١١ - عيسى - عليه السلام - بشر كسائر رسلهم ، ومن طبيعتهم ،

(١) الإخلاص (٢) الصفات ١٥٢ (٣) فى ٦ / ٣١١ .

(٤) آل عمران ٥١ .

ولد كما ولدوا ، وعاش كما عاشوا ، يأكل ويشرب وينام ، ويفرح ويحزن ، مثلهم تماماً قال تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر ألى يؤفكون ﴾ (١) وفي الإنجيل « جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب . . » (٢) .

فالآية الكريمة تخبرنا أن عيسى له أم من البشر ، ولا شك أن كل من له أم حدث بعد أن لم يكن ، وكل من كان كذلك كان مخلوقاً ، فكيف يكون هو الله ؟ أو ابن الله له طبيعته ؟ .

وتخبرنا كذلك أنه رسول كسائر رسل البشر ، ورسول البشر من خلق الله ، فكيف ترفعونه عنهم إلى مستوى الله ؟ فتقولون إنه الله ، أو ابن الله له حقيقة الله ؟ .

وتخبرنا أيضاً أنه وأمه كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة ، والإله الحق هو الذى يكون غنياً عن جميع الأشياء فكيف يعقل أن يكون المسيح إلهاً ؟ وتشير الآية إلى أن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد ، فلو كان المسيح إلهاً لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب ؛ لكنه لم يقدر ، فلا يكون إلهاً ورباً للعالمين .

١٢ — لو كان المسيح ابن الله حقيقة لكان الله مشابهاً للحوادث ، ولو شابهها لكان حادثاً مثلها ، وذلك محال عقلاً ونقلأ كما سبق ، وكما جاء فى التوراة ، وقال موسى لفرعون : « لكى تعرف أن ليس مثل الرب إلهنا » (٣) .

١٣ — ولماذا تقولون إن عيسى ابن الله ، أو أفنوم فى اللاهوت ، أو إله ؟ إن كان لوجوده من غير أب فآدم وجد بلا أب وأم ، فلا تماثل بينهما فى الأصل ، ولكن التماثل فى وجودهما بكلمة « كن » التى حيرت عقولكم وأطاشت صوابكم .

١٤ — كتب رينان عن المسيح — عليه السلام — كتاباً يثبت فيه « أن السيد المسيح لم يكن إلهاً ، ولا ابن إله ، وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامى ،

(١) المائدة ٧٥ .

(٢) متى ١١ : ١٩ . (٣) خروج ٨ (١٠) .

وبالروح الكريمة « وإذا قوضت فكرة المسيح الإله ، أو المسيح ابن الإله ، فقد انهارت المسيحية الحالية من أساسها(١) .

١٥ — كان المسيح — عليه السلام — حريصاً على أن يدعو نفسه ابن الإنسان ، وتكرر هذا الوصف لنفسه على لسانه في كافة الأناجيل :

ففى متى ٨ : ٢٠ ، ١١ : ١٩ ، ٢٠ : ٢٨ ، ٢٤ : ٣٠ ، ٢٥ : ٣١ ، ٢٦ : ٢٤ .

ومرقص : ٢ : ٢٨ ، ٩ : ٩ ، ١٤ : ٤١ .

ولوقا : ٩ : ٥٦ ، ١٧ : ٢٤ ، ١٨ : ٨ .

ويوحنا : ٣ : ١٣ ، ٥ : ٢٧ ، ١٣ : ٣١ ، ٦ : ٢٧ .

وغير ذلك كثير ، فكيف بعد هذا تخالفون نصوص الإنجيل وتعاليم المسيح عليه السلام ، وكتب الله المنزلة ، وبداهة العقول ، وتقولون إنه ابن الله حقاً ، وله طبيعة الله صدقاً ؟ إن هذا هو الضلال البعيد ، والكفر الذى ليس بعده مزيد .

فخير لكم — ما دتم تستشهدون بآيات القرآن المجيد — أن تؤمنوا بما جاء فيه ، وتستجيبيوا لنداء موحيه ، حيث يقول لكم : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ (٢) .

فليس هو الله ، ولا إلهاً معه ، ولا ابنه له طبيعته .

* * *

(١) انظر أوروبا فى الإسلام العدد السابع للدكتور عيد الحلبي محمود ص ١٣ .

(٢) النساء ١٧١ .

المبحث التاسع

المسيح — عليه السلام — ليس هو الله

وقال في ص ١٧ أيضاً :

المسيح هو الله المتجسد — ثم استشهد على ذلك فقال :

- أ — شهادة القرآن « سورة القصص ٢٩ » كما حل في الشجرة .
- ب — شهادة أئمة الإسلام : أهل النصيرية والإسحاقية « الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ٢٥ » .

الشيخ أبو الفضل القرشي « هامش الشيخ القرشي على البيضاوى ج ٢ ص ١٤٢ .

ودحضاً لهذا الافتراء والاختلاق على الله والقرآن الكريم أقول :

- ١ — الآية التي استشهد بها من سورة القصص رقم ٣٠ لا ٢٩ ، وهي بعيدة عن مدعاه بعد المشرق من المغرب ، وإليك نصها مع الآية التي قبلها لارتباطها بها ، قال تعالى :

﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إلى آنست نارا لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إلى أنا الله رب العالمين ﴾ .

معاني المفردات : قضى موسى الأجل : وفى الأجل الذى اتفق عليه مع حميه ، بأهله : المراد بهم زوجه ومن معه من ولده ورعاة غنمه . آنس : أبصر . الطور : هو الجبل المعروف . امكثوا : انتظروا . بخبر : المراد أجد من يخبرني عن

الطريق وكانوا قد ضلوه ، لأنهم كانوا في ليلة مظلمة ، وجو شديد البرد . جذوة : هي عود فيه نار بلا لهب . تصطلون : تستدفون لدفع البرد . من شاطيء الوادى الأيمن : من لابتداء الغاية ، والأيمن صفة الشاطيء ، أو للوادى ، والمراد جانب الوادى الموصوف بالمقدس . الأيمن : المراد أنه كان على يمين موسى ، أو مأخوذ من اليمن وهو البركة . في البقعة المباركة : متعلق بنودى ، أو بمحذوف على أنه حال من الشاطيء ، أى حال كون موسى موجوداً في المكان المبارك لسماعه فيه كلام ربه ، واختياره رسولاً . من الشجرة : بدل اشتغال من الشاطيء ، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطيء ، كقوله تعالى : ﴿ جعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم ﴾ والمراد من قبل الشجرة .

والمعنى : فلما وفى موسى الأجل الذى اتفق عليه مع حميه سار بأهله وغنمه التى وهبها له ، وسلك بهم الطريق إلى مصر في ليلة ممطرة ، وظلمة باردة ، ونزل منزلاً ، فجعل كلما أورى زنده لا يضىء شيئاً ، فعجب لذلك .

وبينا هو كذلك رأى ناراً تضىء عن بعد ، فقال لأهله : انتظروا قليلاً ، إلى أبصرت ناراً لعل آتيكم منها بخبر عن الطريق ، وكانوا قد ضلوا عنها ، أو آتيكم بقطعة من الحطب فيها نار لتستدفئوا بها من البرد ، وكان الوقت شتاء فلما جاء إلى النار التى أبصرها ناداه ربه من جانب الوادى الأيمن ، أى المبارك والذى عن يمين موسى في البقعة المباركة من ناحية الشجرة : يا موسى إني أنا الله ربك ورب العالمين جميعاً ، وقد خلق الله فيه علماً يقينياً بأن المتكلم هو الله تعالى ، وأن ذلك الكلام كلامه ، وقد جعلت البقعة مباركة لأن الله تعالى كلم موسى فيها ، وبعثه نبياً .

فالآية تدل على أن موسى — عليه السلام — سمع نداء الله من قبل الشجرة ، لا من الشجرة نفسها .

فكيف تقولون : إن الله حلَّ في شجرة ؟ هذا مذهب الحلولية الذين يقولون : بأن الله حال في مخلوقاته ، وهو مذهب باطل ، لأنه يؤدى إلى التجسيم والتشبيه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فالله له السمو والعلو على خلقه ، فكيف تنزلون به إلى أدنى خلقه مستوى ، وهو القائل : ﴿ وهو القاهر فوق

عباده وهو الحكيم الخبير ﴿١﴾ .

على أن موسى — عليه السلام — لو سمع كلام الله من نفس الشجرة لما دل ذلك على أن الله هو الشجرة ، ولا حال فيها ، فمن سمع كلام شخص من مذياع لا يدل ذلك على أن الشخص هو المذياع ولا حال فيه .

وما أروع ما قاله جل جلاله : ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (٢) أى وله الوصف البديع الذى ليس لغيره ما يدانيه ، كالإرادة الكاملة ، والقدرة الشاملة ، والحكمة التامة ، والمخالفة لجميع الحوادث .

٢ — وأما قوله « شهادة أئمة الإسلام : أهل النصيرية ، والإسحاقية — المثل والأهواء والنحل جـ ٢ ص ٢٥ » وقوله « الشيخ أبو الفضل القرشى — هامش الشيخ القرشى على البيضاوى جـ ٢ ص ١٤٢ » فلدحض هذا الافتراء والأهواء الزائفة أقول :

١ — قلت فى أول هذه المباحث : إن العقائد المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله ، لا يستدل عليها إلا بقول ثابت بنص دينى متواتر ، أو برهان عقلى قاطع ، وليس لكم على ما زعمتم من دعوى الاتحاد أو الحلول شىء من ذلك ، بل ذلك مستحيل على الله سبحانه عقلاً ونقلاً فدليلكم باطل وما أدى إليه من الاتحاد أو الحلول باطل .

ب — أئمة الإسلام عندنا هم من يسرون فى عقائدهم حسب الآيات القرآنية المحكمة ، والبراهين العقلية القاطعة ، وكل من حاد عن ذلك فليس من أئمة الإسلام فى شىء ، بل هو ممن قال الله فيه : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ (٣) .

فلا تحتاج علينا — أيها المتأول لكلام الله على حسب هواه — فى أمور العقيدة بمثل هذه الأساطير والأهواء الباطلة ، بل بنص دينى متواتر ، أو برهان عقلى قاطع ، لا بأقوال النصيرية الذين يقولون بالحلول والاتحاد فى أهل البيت النبوى ، وقد كفروا بذلك .

(١) الأنعام ١٨ . (٢) الروم ٢٧ . (٣) الجاثية ٢٣ .

جـ - على أنى تتبعت أقوال من ذكرت في مواطنها ، فلم أجد لهم نصاً يدل على ما ذكرت ولو وجد ما كان حجة ، بل يدل على انحرافهم وإلحادهم ، وقد توعد الله الملحدون في دينه بشديد عقابه ، وعظيم عذابه ، فقال تعالى : ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خيراً أم من يأتي آمناً يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾ (١) ومعنى يلحدون في آياتنا : يعرفونها ، ويميلون بها عن الصراط المستقيم .

٣ - ألا ترى أن في قولك « الله المتجسد » « والله شجرة أو حل في شجرة » عدم تقدير لله ، وتجسيماً وتشبيهاً له بخلقه ، وهو منزه عن مشابهة الحوادث ، لأن من شابهها في شيء فهو حادث مثلها ، فما شابه الشيء يعطى حكمه ؟ .

٤ - المسيح مولود من السيدة مريم - عليهما السلام - وذلك باعتراف الجميع ، والسيدة مريم حادثة ، فالمسيح - عليه السلام - حادث مثلها ، فكيف يكون هو الله ، تعالى الله عن مشابهته للحوادث والحلول فيها .

٥ - والعجب العجيب حين يأتينا بعقيدة باطلة وهي قوله « المسيح هو الله المتجسد » ويجادل عنها بالباطل ليقنعنا بها ، ويزعم أن القرآن يدل عليها ، وقد جاء القرآن بضعها ، وتكفير من قال بها فقال تعالى مؤكداً كلامه بالقسم : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ (٢) .

ولتوضيح عقيدة المسيحيين أقول :

المسيحيون في هذا العصر يقولون بالتثليث كما سبق ، ويعدون الموحد غير مسيحي ، كما أن جميع فرق النصارى في هذا العصر تقول : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وإن المسيح ابن مريم هو الله .

والعمدة عندهم في هذه العقيدة عبارة جاءت في إنجيل يوحنا ، وهي : « في

(١) فصلت ٤٠ . (٢) المائدة ١٧ .

البدء كانت الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، والله هو الكلمة » وقد فسروا الكلمة بالمسيح ، فيصير معنى الفقرة الثالثة « والله هو المسيح ابن مريم » وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم ، فلم يفتر عليهم في شيء مما نسبته إليهم .

ولا شك أن هذه العقيدة وثنية أخذت عن قدماء المصريين والبراهمة والبوديين وغيرهم من وثني الشرق والغرب كما سبق بيانه .

ومعنى : ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ﴾ .

أى قل — أيها النبي الكريم لهؤلاء النصارى — من يقدر على دفع الهلاك والموت عن المسيح وأمه ، بل عن سائر الخلق جميعاً ، إن أراد أن يهلكهم ويبيدهم ؟ لا أحد ، لأن الله هو مالك الملك الذى يصرفه بمقتضى مشيئته وإرادته ، وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمه الهلاك ، كما لا يستطيع أن يدفع عن غيره ، فكيف يكون هو الله الذى بيده ملكوت كل شيء ؟ .

ثم ذكر الله ما هو كالدليل على ذلك فقال :

﴿ والله ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أى فمن يملك من الله شيئاً إن أراد إهلاك المسيح وأمه ، وأهل الأرض قاطبة ؟ فهو صاحب الملك المطلق والتصرف الكامل فى السموات والأرض ، وما بين العالمين : العلوى والسفلى بالنسبة إليكم .

ثم دفع شبهة تحوك فى صدورهم من كيفية خلق عيسى فقال : ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ أى إن تلك الشبهة التى عرضت لكم ، وجعلتكم تزعمون أن المسيح بشر وإله ، هو أنه خلق على غير السنة العامة ، وأنه عمل أعمالاً عجيبة لا تصدر من أعامة البشر ، فالله له ملك السموات والأرض ، ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته .

فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة وأنوثة ، كأصول أنواع الحيوان ، ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام ، وقد يخلق بعضها من ذكر فقط كحواء ، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط كعيسى — عليه السلام — وقد يخلق

بعضها من ذكر وأثنى كسائر البشر .

وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها على بعض ، ولا على ألوهية لبعضها ، ولا على حلول الإله الخالق فيها ، فسنة الله في خلق المسيح ومزاياه لا تبدل على كونه إلهاً ورباً ؛ لأن هذه المزايا في الخلق كلها بمشيئة الخالق تعالى ، ولا يخرج بها المخلوق عن كونه مخلوقاً .

﴿والله على كل شيء قدير﴾ وبقدرته وإرادته يخلق ما يشاء كما يشاء دون أن يقف شيء أمام إرادته أو قدرته ، فهو كما يقول : ﴿ذو العرش المجيد﴾ فعال لما يريد ﴿(١)﴾ فكل ما تعلق به مشيئته ينفذ بقدرته ، وإنما يعد بعضه غريباً بالنسبة إلى علم البشر الناقص ، لا بالنسبة إليه تعالى ، وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون عن علم كسبي يجهله غيرهم ، أو عن تأييد رباني لا صنع لهم فيه ولا تأثير .

ولأن هذه العقيدة باطلة كل البطلان كرر الله كلامه في القرآن بكفر من قال بها مؤكداً كلامه بالقسم أيضاً فقال تعالى في آية أخرى : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ (٢) .

ومعنى : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ أى أقسم الله أن هؤلاء الذين ادعوا أن الله هو المسيح ابن مريم قد كفروا وضلوا ضلالاً بعيداً ، ثم ذكر أن المسيح يكذبهم في ذلك فقال :

﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ أى والحال أن المسيح قال لهم ضد ما يقولون ، فقد أمرهم بعبادة الله وحده ، معترفاً بأنه ربه وربهم ، ودعا بني إسرائيل الذين أرسل إليهم إلى عبادة الله وحده ، ولا يزال هذا الأمر محفوظاً في الأناجيل التي كتبت لبيان بعض سيرته وتاريخه .

ففي إنجيل يوحنا « وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته » (٣) .

(١) البروج ١٥ ، ١٦ . (٢) المائدة ٧٢ . (٣) يوحنا ١٧ (٣) .

فدين المسيح مبني على التوحيد المحض ، وهو دين الله الذي أرسل به جميع رسله ، وفي هذه المقالة تنبيه إلى ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى ؛ لأنه — عليه السلام — لم يفرق بين نفسه وغيره ، في أن دلائل الحدوث ظاهرة على الجميع .

وبعد أن أمرهم — عليه السلام — بالتوحيد الخالص أتبعه بالتحذير من الشرك والوعيد عليه فقال : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ .

أى إن من يشرك بالله شيئاً من ملك أو بشر أو كوكب أو حجر ، أو غير ذلك ، فيجعله نداً له أو متحداً به أو يدعوه لجلب نفع أو دفع ضرر ، أو يزعم أنه يقربه إليه زلفى ، فيتخذة شفيعاً يؤثر في إرادته تعالى وعلمه ويجعله على شيء غير ما سبق به علمه ، وخصصته إرادته في الأزل ، من يفعل ذلك فإن الله قد حرم عليه الجنة في سابق علمه ، وبمقتضى شرعه الذى أوحاه إلى جميع رسله ، فلا مأوى له إلا النار ، التى هى دار العذاب والذل والهوان ، وما للظالمين أنفسهم بشركهم بالله من نصير ينصرهم ولا شفيع ينقدهم مما يحل بهم ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ (١) .

وفي هذا إشارة إلى أن النصارى كانوا يتكلمون على كثير من القديسين ، إذ كانت وثنية الشفاعة قد فشت فبهم ، وإن لم تكن من أصل دينهم وقال يوحنا : « الله لم يره أحد قط » (٢) ، وقال في رسالته الأولى : « الله لم ينظره أحد قط » (٣) .

وقال بولص في رسالته الأولى إلى تيموثاوس : « الذى لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه » (٤) وقد رأى الناس المسيح ، فكيف يكون هو الله ؟ والله بمقتضى هذه النصوص والأدلة العقلية القاطعة لا يرى ؟ .

وقال مرقص في الساعة ويوم القيامة : ١٣ — ٣٢ « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلم يعلم بها أحد ، ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن إلا الآب » .

(٢) يوحنا ١ / ١٨ .

(١) البقرة ٢٥٥ .

(٤) السادس ١٦ .

(٣) الرابع ١٢ .

فلو كان الابن عين الآب كما يقولون لكان يعلم كل ما يعلمه الآب .
وقوله — عليه السلام — في القيامة موافق لقول الله سبحانه في القرآن
خطاباً لحاتم رسله ﷺ : ﴿ قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها
إلا هو ﴾ (١) .

وهكذا : توالت الآيات ، وتضافرت البراهين النقلية والعقلية القاطعة على أن
الله ليس كمثله شيء ، وعلى بطلان عقيدة « المسيح هو الله المتجسد » وعلى أن
من يحاول إقناع المسلمين بها فإنما يحاول مستحيلاً في كتب الله المنزلة ، وعلى
رأسها القرآن الكريم الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »
ومستحيلاً لدى العقول النيرة ، والقلوب الواعية ﴿ ذلك الدين القيم ولكن أكثر
الناس لا يعلمون ﴾ (٢) .

* * *

(١) الأعراف ١٨٧ .

(٢) يوسف ٤٠ .

المبحث العاشر

الله منزّه عن التجسد والحلول

وقال في ص ١٩ : هل خلت السماء من الله عند تجسده ؟ ثم قال : كلا ،
فإنّ الله روح موجود في كل مكان ولا يحده مكان « سورة النور ٣٥ » .

ثم تساءل قائلاً : ما الداعي لتجسد الله ؟ ثم أجاب : خلاص البشرية وفداؤها
بموته على الصليب « انظر بحث صلب المسيح » .

وقبل دحض هذا الافتراء أسوق عقيدة النصارى في المسيح والصلب كما
جاءت في مؤلفاتهم وهي :

أن آدم لما عصى الله تعالى بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها
صار هو وجميع أفراد ذريته خطاة مستحقين العقاب في الآخرة بالهلاك الأبدى ،
ثم إن جميع ذريته جاءوا خطاة مذنبين ، فكانوا مستحقين للعقاب أيضاً بذنوبهم ،
كما أنهم مستحقون له بذنب أبيهم الذي هو الأصل لذنوبهم .

ولما كان الله تعالى متصفاً بالعدل والرحمة جميعاً طراً عليه — سبحانه وتعالى
عن ذلك — مشكل منذ عصى آدم ، وهو أنه إذا عاقبه هو وذريته كان ذلك
منافياً لرحمته ، فلا يكون رحيماً !! وإذا لم يعاقبه كان ذلك منافياً لعدله
فلا يكون عادلاً !!

فكأنه منذ عصاه آدم كان يفكر في وسيلة يجمع بها بين العدل والرحمة !
فلم يبتدئ إلى ذلك إلا في عام الحمل بعيسى وميلاده ، أي منذ ١٩٨٥ سنة م بالنسبة
إلى سنتنا هذه — تعالى الله عن ذلك — وذلك بأن يجعل ابنه تعالى — الذي هو هو
نفسه — في بطن امرأة من ذرية آدم ويتحد بجنين في رحمها ، ويولد منها فيكون

ولدها إنساناً كاملاً من حيث هو ابنها ، وإلهاً كاملاً من حيث هو ابن الله ، وابن الله هو الله ، ويكون معصوماً من جميع معاصي بنى آدم .

ثم بعد أن يعيش زمناً معهم يأكل مما يأكلون منه ، ويشرب مما يشربون منه ، ويتلذذ كما يتلذذون ، ويتألم كما يتألمون ، يسخر أعداءه لقتله أفضح قتلة ، وهى قتلة الصلب التى لعن صاحبها فى الكتاب الإلهى ، فيتحمل اللعن والصلب لأجل فداء البشر وخلصهم من خطاياهم ، كما قال يوحنا فى رسالته الأولى ٢ : ٢ « وهو كفارة لخطايانا ، ليس لخطايانا فقط ، بل لخطايا كل العالم أيضاً » ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ (١) .

ثم يفلسفون عقيدة الصلب والفداء فيقولون :

يقول القديس بولص : « لا توجد مغفرة بدون سفك دم » .

ولكن ما هو الشخص الذى يستحق أن ينوب عن آدم ، وما هى الدماء التى يكفى سفكها لتخليص آدم وزوجته من الخطيئة ؟ .

يقول الكتاب : إن خطيئة آدم لا تشتري إلا بدم ذكى نفيس ، وهذا الدم لا يكون دم إنسان من البشر ، ذلك أن البشر ملوثون ودمائهم نجسة ، كذلك ليس دم حيوان من الحيوانات التى تعود الوثنيون واليهود ذبحها كفارة عن ذنوبهم ، ذلك أن الحيوان لم يشترك فى خطيئة آدم ، كذلك ليس دم ملاك لأن الملائكة ليس لهم دم ، وبالتالي لا يصلحون للفداء .

وإذا فلا بد أن يكون الدم دماً إلهياً طاهراً ، ولكن فى الوقت نفسه يمثل البشرية ، فهو دم طاهر ، ولا طاهر إلا الله فيمثل الإنسان .

ولكن هل للإله دم ؟ وكيف يكون الدم إلهياً ويمثل البشرية فى نفس الوقت ؟ المشكلة تحل بنظرية التجسد ، يرسل الله ابنه الوحيد ليحل فى جسد العذراء مريم ، ويظل فى بطنها فأحشائها تسعة أشهر ، ثم يولد بالجسد إنساناً ذا لحم ودم ، ولكنه الله نفسه .

(١) الصفات ١٨٠ :

يقول بولص : « ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة ، مولوداً تحت الناموس ليفتدى الذين تحت الناموس لننال التبني » (١) .

هذه النظرية يقوم عليها الدين المسيحي كله يقول القس بولص إلياس :
« إن موت المسيح وبالتالي سر الفداء يمثل نقطة الدائرة من الدين المسيحي ،
لقد تم مفعول الوساطة بموت المسيح وسفك دمه الذى به كفر عن خطايانا ،
وأرضى الله أباه » (٢) .

دحض هذه العقيدة المفتراة :

ثم أقول : إن كل ما جاء في هذه العقيدة لا يقره نقل ، ولا يقبله عقل ،
وذلك لأمر منها :

١ — أنه جاء في القرآن الكريم أن آدم وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة
بإغراء الشيطان لهما ، وتظاهره بنصحهما تذكرتا زلتما فندما على ما فعلا
وأههما ربهما كلمات تضرعا بها إليه ﴿ قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا
وترحمنا لكونن من الخاسرين ﴾ (٣) فتاب الله عليهما ، قال تعالى : ﴿ فتلقى آدم
من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ (٤) .

٢ — وكان — عليه السلام — ممن اصطفاهم الله على العالمين ، فقال
تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على
العالمين ﴾ (٥) .

أى اختارهم وجعلهم صفوة العالمين وخيارهم ، يجعل النبوة والرسالة فيهم ،
فآدم أول البشر ارتقاء إلى هذه المرتبة ، فإنه بعد ما تنقل في الأطوار إلى مرتبة
التوبة والإنابة اصطفاه تعالى واجتباه ، كما قال تعالى : ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه
وهدى ﴾ (٦) .

(١) غلاطية ٤ (٤) .

(٢) بولص إلياس في « يسوع المسيح » ص ٩٤ . (٣) الأعراف ٢٣ .

(٤) البقرة ٣٧ . (٥) آل عمران ٣٣ . (٦) طه ١٢٢ .

٣ — أن سنة الله سبحانه وقانونه في السيئات — كما جاء في كتبه من القرآن وغيره — ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وألا تتحمل نفس ذنب غيرها ، قال تعالى : ﴿ أم لم ينأ بما في صحف موسى ﴾ وإبراهيم الذي وفي ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (١) وقال : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قرنى ﴾ (٢) .

وفي التوراة « لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل » (٣) .

ومعنى هذا أن أية نفس تكون مثقلة بالذنوب فتدعو من يحمل عنها شيئاً منها لا يحمل عنها من تدعوه للحمل ولو كان من أقربائها ، فكيف تعارضون آيات الله وقوانينه ، وتقولون بأن المسيح ضحى بنفسه ليتحمل الذنوب عن خلق الله ؟ .

٤ — إن أية مشكلة من مشاكل البشر الجماعية — مهما كانت عويصة أو معقدة — تعرض على أهل العلم بها لحلها ، ولا تلبث إلا زمناً يسيراً حتى تحل فكيف تجعلون الله سبحانه وتعالى — وهو العليم الحكيم — أخذ يفكر آلاف السنين لحل قضية فردية هي خطيئة آدم ؟ .

ألا تستحيون حين لا تسوون الله — الذي أحاط بكل شيء علماً ، ووسع كل شيء رحمة وفضلاً . وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون — بكم أيها البشر ؟ .

٥ — إن الأمم الراقية تضع لنفسها دساتير تتحاكم إليها ، وتعرض شئونها عليها ، فلا تلبث أية مشكلة — أن تجد لها حلاً عند عرضها على دستورها ، فالله الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما يكون عندكم أقل درجة منكم ؟ ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ .

٦ — نحن المسلمين نؤمن بأن الله — سبحانه وتعالى — يعلم ما كان وما يكون قبل حصوله ، ووضع لكل شيء جزاءه ، وصدق الله حيث يقول : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (٤) ، وحيث يقول : ﴿ وكل شيء فعلوه في

(١) النجم : ٣٦ : ٣٨ . (٢) غافر : ١٨ . (٣) تثنية : ٣٤ : ١٦ . (٤) القمر : ٤٩ .

الزبر^(١) « وكل صغير وكبير مستطر »^(٢) ، كما يقول تعالى : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار » عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال »^(٣) .

٧ — وإنما معشر المسلمين لانتقد أن الله سبحانه وتعالى يفعل الأشياء جزافاً أو ارتجالاً ، وإنما نؤمن بأن الله يعلم كل ما يحدث في السموات والأرض قبل أن يكون ، بل ذلك مدون ومكتوب في الكتاب العظيم الذي يعوى كل ما يحدث في ملكوت الله ، قال تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين »^(٤) ، كما قال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين »^(٥) .

فما يقوله النصارى مغايراً لهذا فهو باطل ، ومستحيل حدوثه .

٨ — تجسد الله مستحيل لمشابهته للحوادث ؛ لأن الجسم لا ينفك عن الحركة والسكون وهما محدثان ، وما لا ينفك عن المحدث فهو محدث ، ولأن كل جسم متناه في المقدار ، وكل ما كان متناهياً في المقدار فهو مُحدث ، ولأن كل جسم مؤلف من أجزاء ، وكل ما كان كذلك افتقر إلى من يركبه ويؤلفه ، وكل ما كان كذلك فهو محدث ، فكيف تنسبون إلى الله ما هو مستحيل عليه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

أما قوله : فالله روح موجود في كل مكان ، ولا يحده مكان « سورة النور ٣٥ » فواضح التناقض ، فالله لا يحويه مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، فهو منزّه عن الحدود والنهايات ، مستغن عن المكان والزمان ، لأن هذا من صفات المخلوقات .

ولذا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه ، في كتابه الفقه الأكبر ص ١٧ : واعلموا أن الباري لا مكان له ، والدليل عليه هو أن الله تعالى كان ولا مكان ، فخلق المكان وهو على صفته الأزلية كما كان قبل خلقه المكان ، لا يجوز عليه التغيير في ذاته ، والتبديل في صفاته ، ولأن ما له مكان وله تحت يكون متناهياً الذات محدوداً ، والمحدود مخلوق ، تعالى الله عن ذلك . أهـ^(٦) .

(١) الكتب السماوية (٢) القمر ٥٢ ، ٥٣ . (٣) الرعد ٨ ، ٩ .

(٤) يس ١٢ . (٥) هود ٦ - (٦) إنحاف الكائنات للشيخ محمود خطاب ٢٠ .

وسئل على بن أبى طالب رضى الله عنه : أين كان ربنا قبل أن يخلق السماء والأرض ؟ فقال : أين توجب المكان ، وكان الله عز وجل ولا مكان (١) .

وقال نعيم بن حماد الخزاعى شيخ الإمام البخارى : من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه (٢) .

وبالجملة — فجميع الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزه عن الجلول فى الأمكنة لقيام الأدلة العقلية والنقلية القاطعة بذلك .

وأما قوله تعالى فى سورة النور ٣٥ : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ فليس معناه أنه حال فىهما ، وإنما معناه أنه منورهما ، كما يقال فلان عدل ، أى عادل ، وفلان نور المجلس ، أى منوره ، فالله منور السموات والأرض بما أقام فىهما من الأدلة والبراهين الدالة على وجوده ، وعلى جلاله وكاله ، كما قال تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبواب ﴾ (٣) .

* * *

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ١ / ٧٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٢٠ .

(٣) آل عمران ١٩٠ .

المبحث الحادى عشر

حول عقيدة التجسد والحلول والصلب

١ - قال الإمام ابن القيم الجوزية^(١) : ومن المعلوم أن هذه الأمة^(٢) ارتكبت محظورين عظيمين ، لا يرضى بهما ذو عقل ، ولا معرفة .

أحدهما : الغلو فى المخلوق ، حتى جعلوه شريك الخالق ، وجزءاً منه وإلهاً آخر معه ، وأنفوا أن يكون عبداً له .

والثانى : تنقص الخالق وسبه ، ورميه بالعظائم ، حيث زعموا أنه — سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً — نزل من العرش عن كرسى عظمته ، ودخل فى فرج امرأة ، وأقام هناك تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم والنجو ، وقد علتة أطباق المشيمة والرحم والبطن ، ثم خرج من حيث دخل رضيعاً صغيراً يمص الثدي ولف فى القمط وأودع السرير يبكى ويجوع ، ويعطش ويبول ويتغوط ، ويحمل على الأيدى والعواتق ، ثم صار إلى أن لظمت اليهود خديه ، وربطوا يديه وبصقوا فى وجهه وشفعوا قفاه ، وصلبوه جهراً بين لصين وألبسوه إكليلاً من الشوك ، وسمروا يديه ورجليه ، وجرعوه أعظم الآلام ، هذا وهو الإله الحق ، الذى بينه أتقنت العوالم وهو المعبود المسجود له .

ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ، ماسبه بها أحد من البشر قبلهم ، ولا بعدهم كما قال تعالى فيما يحكى عنه رسوله الذى نزهه ، ونزه أخاه المسيح عن هذا الباطل الذى ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا ﴾^(٣) فقال : « قال الله : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم

(١) فى كتابه إغاثة اللهفان ٢ / ٢٨٢ : ٢٨٤ .

(٢) يقصد الأمة المسيحية . (٣) مريم ٩٠ .

يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقلوه لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته ، وأما شتمه إياي فقلوه اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد . لم ألد ولم أولد . ولم يكن لي كفواً أحد » رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه (١) .

وقال ابن القيم : ولعمر الله ، إن عباد الأصنام — مع أنهم أعداء الله عز وجل على الحقيقة ، وأعداء رسله عليهم السلام ، وأشد الكفار كفراً — يأنفون أن يصفوا آهتهم التي يعبدونها من دون الله تعالى — وهي من الحجارة والحديد والخشب — بمثل ما وصفت به هذه الأمة رب العالمين ، وإله السموات والأرضين ، وكان الله تعالى في قلوبهم أجل وأعظم من أن يصفوه بذلك ، أو بما يقاربه ، وإنما شرك القوم أنهم عبدوا من دونه آلهة مخلوقة مربوبة محدثة ، وزعموا أنها تقربهم إليه ، لم يجعلوا شيئاً من آهتهم كفواً له ، ولا نظيراً ولا ولداً ، ولم ينالوا من الرب تعالى ما نالت منه هذه الأمة .

وقال ابن القيم : وعذرهم في ذلك أقبح من قولهم ، فإن أصل معتقدهم أن أرواح الأنبياء — عليهم السلام — كانت في الجحيم ، في سجن إبليس من عهد آدم إلى زمن المسيح ، فكان إبراهيم وموسى ونوح وصالح وهود معذبين مسجونين في النار بسبب خطيئة آدم عليه السلام وأكله من الشجرة وكان كلما مات واحد من بني آدم أخذه إبليس وسجنه في النار بذنب أبيه ثم إن الله سبحانه وتعالى لما أراد رحمتهم وخلصهم من العذاب تحيل على إبليس بحيلة فزل عن كرسی عظمته ، والتحم بطن مريم ، حتى ولد وكبر وصار رجلاً ، فمكن أعداء اليهود من نفسه حتى صلبوه وتوجوه بالشوك على رأسه ، فخلص أنبياءه ورسله ، وفداهم بنفسه ودمه ، فهرق دمه في مرضاة جميع ولد آدم ، إذ كان ذنبه باقياً في أعماق جميعهم ، فخلصهم منه بأن مكن أعداءه من صلبه وتسميره وصبغه إلا من أنكر صلبه أو شك فيه أو قال : بأن الإله يجلب عن ذلك ، فهو في سجن إبليس معذب حتى يقر بذلك ، وأن إلهه صلب وصبغ وسم .

فنسبوا الإله الحق سبحانه إلى ما يأنف أسقط الناس وأقلهم أن يفعل به مملوكه وعبده ، وإلى ما يأنف عباد الأصنام أن ينسب إليه أوثانهم ، وكذبوا الله عز وجل في كونه ، تاب على آدم عليه السلام ، وغفر له خطيئته ، ونسبوه إلى أقبح

الظلم ، حيث زعموا أنه سجن أنبياءه ورسله وأوليائه في الجحيم ، بسبب خطيئة أبيهم ، ونسبوه إلى غاية السفه حيث خلصهم من العذاب بتمكينه أعداءه من نفسه حتى قتلوه وصلبوه وأراقوا دمه ، ونسبوه إلى غاية العجز ، حيث عجزوه أن يخلصهم بقدرته من غير هذه الحيلة ، ونسبوه إلى غاية النقص ، حيث سلط أعداءه على نفسه وابنه ، ففعلوا به ما فعلوا .

وبالجملة — فلا نعلم أمة من الأمم سبت ربها ومعبودها وإلهها بما سبت به هذه الأمة ، كما قال عمر رضى الله عنه : « إنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر » .

وكان بعض أئمة الإسلام إذا رأى صليبياً أغمض عينيه عنه ، وقال : لا أستطيع أن أملاً عيني ممن سب إلهه ومعبوده بأقبح السب . ولهذا قال عقلاء الملوك : إن جهاد هؤلاء واجب شرعاً وعقلاً فإنهم عار على بنى آدم ، مفسدون للعقول والشرائع . أهـ .

٢ — وقال الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق : نقل أنه تنصر ثلاثة أشخاص ، وعلمهم بعض القسيسين العقائد الضرورية ، سيما عقيدة التثليث ، وكانوا في خدمته ، فجاء محب من أجباء هذا القسيس ، وسأله عن تنصر ، فقال : ثلاثة أشخاص تنصروا ، فسأله هذا المحب : هل تعلموا شيئاً من العقائد الضرورية ؟ .

فقال : نعم . وطلب واحداً منهم ليرى محبه ، فسأله عن عقيدة التثليث ، فقال : إنك علمتني أن الآلهة ثلاثة ، أحدهم الذي هو في السماء والثاني الذي تولد في بطن مريم العذراء . والثالث الذي نزل في صورة الحمامة على الإله الثاني بعدما صار ابن ثلاثين سنة ، فغضب القسيس وطرده ، وقال : هذا جهول .

ثم طلب الآخر منهم وسأله ، فقال : إنك علمتني أن الآلهة كانوا ثلاثة ، وصلب واحد منهم فالباقي إلهان ، فغضب عليه القسيس أيضاً وطرده .

ثم طلب الثالث ، وكان ذكياً بالنسبة إلى الأولين ، وحريصاً في حفظ العقائد ، فسأله ، فقال : يا مولاي حفظت ما علمتني حفظاً جيداً ، وفهمت فهماً كاملاً ، بفضل السيد المسيح : إن الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحد ، وصلب

واحد منهم ومات ، فمات الكل لأجل الاتحاد ، ولا إله الآن وإلا يلزم نفى
الاتحاد (١)

٣ - إن حادثة صلب المسيح مكذوبة بلا نزاع لأن المسيحيين يعولون في
إثباتها على ما جاء في أناجيلهم ، وهي متناقضة تمام التناقض في كل جزء من
أجزائها بالزيادة والنقص ، والإثبات والنفي ، والمخالفة للآداب وروح العصر .

٤ - وقال ابن تيمية (٢) : بل جميع ما أثبتوه من التثليث والحلول والاتحاد
ليس في كتب الأنبياء التي بأيديهم ما يدل عليه ، بل فيها أقوال كثيرة صريحة
بنقيض ذلك ، مع القرآن والعقل ، فهم مخالفون للعقول وكتب الله
المنزلة . أهـ .

* * *

(١) من تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ٦ / ٤٨٥ .

(٢) في الجواب الصحيح ٢ / ٢٥٢ .

الفصل الثاني

في الرد على ما جاء في رسالة البابا شنودة
مما يتعارض مع ما جاء به القرآن الكريم
وبه اثنا عشر مبحثاً

- خلق آدم أعجب من خلق عيسى عليهما السلام .
- معجزة كل نبي من جنس ما اشتهر به قومه .
- القرآن مصدق لما أنزله الله في الكتب السابقة ولم يحرف .
- الأدلة القرآنية على وقوع التحريف في الكتب السابقة .
- ما لا يصدقه القرآن من التوراة والإنجيل .
- عالمية الرسالة المحمدية ونسخها لغيرها .
- دحض بعض أباطيل البابا شنودة .
- البراهين العقلية والعلمية على عالمية الرسالة المحمدية ونسخها لغيرها .
- دحض افتراءات البابا شنودة حول إعجاز القرآن وخلوده .
- البابا شنودة يقلب الحقائق .
- البابا شنودة يحرف كالم القرآن عن مواضعه .
- البابا شنودة يؤول آيات القرآن تبعاً لهواه .

مقدمة

في رسالة للبابا شنودة مطبوعة بعنوان « القرآن والمسيحية » بمطبعة المجد
بمحرم بك بالإسكندرية .

جاء فيها على لسانه أمور كثيرة تتعارض مع ما جاء به القرآن الكريم ، وتعاليم
الإسلام الحنيف ، فوجدت نفسي مضطراً دينياً للرد على معظم فقراتها في المباحث
التالية .

المبحث الأول

خلق آدم أعجب من خلق عيسى عليهما السلام

قال البابا شنودة في ص ١ :

إن المسيح ولد بطريقة عجيبة لم يولد بها إنسان من قبل ، ولا من بعد ، بدون أب جسدى .

وللرد عليه أقول :

إن عيسى — عليه السلام — ولد بطريقة عجيبة حقاً ، بالنسبة لنا ، حيث ولد من أم بلا أب ولكن الطريقة التى خلق بها آدم — عليه السلام — أعجب ، حيث خلقه الله من غير أب وأم .

والعجب إنما هو بالنسبة لما اعتاده البشر ، وأما بالنسبة لله فلا عجب كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) .

على أن خلق حواء أعجب من خلق المسيح ، فإنها خلقت من ضلع آدم ، كما قال تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (٢) .

والمسيح خلق في بطن مريم — عليهما السلام — فإذا خلق الله آدم من تراب ، وهو مغاير لبدن الإنسان ، أفلا يقدر أن يخلق المسيح من امرأة هى من جنس بدن الإنسان ، بلا عجب من أمر الله ؟ .

* * *

(١) يس ٨٢ .

(٢) أول النساء .

المبحث الثاني

معجزة كل نبي من جنس ما اشتهر به قومه

وقال في صفحة ٢ : وعاش « أى عيسى » على الأرض يهدى الناس ، ويقوم بمعجزات لم يعملها أحد مثله . . وللرد على ذلك أقول :
إنه قد جرت سنة الله تعالى أن تكون معجزة كل نبي من جنس ما اشتهر به قومه في زمنه .

فأعطى موسى — عليه السلام — العصا فابتلعت ما كانوا يأفكون ؛ لأن المصريين في ذلك العصر كانوا مشهورين بالسحر ، وأعطى عيسى — عليه السلام — من المعجزات ما هو من جنس الطب الذى حذقه أطباء عصره .

وأعطى محمد ﷺ معجزة القرآن ؛ لأن التفاخر في ذلك العصر كان بالفصاحة والبيان ، فمعجزة كل رسول صادرة عن الله سبحانه وتعالى ، ومناسبة لما اشتهر به قومه ، والله على كل شئ قدير .

وإنما كانت معجزة رسولنا محمد ﷺ ، هي القرآن الكريم لأن فيه آلاف المعجزات التى لا يتسع المقام لبسطها ، ولأنها خالدة خلود الأرض والسماء ، كما أن رسالته كذلك .

أما معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد ، قصيرة الأمد ، ذهبت بذهاب زمانهم ، وماتت بموتهم ، ومن يطلبها الآن لا يجدها إلا في خير كان ، ولا يسلم له شاهد بها إلا هذا القرآن ، وتلك نعمة يمنها القرآن على سائر الكتب والرسل وما صح من الأديان كافة ، قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما

بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه ﴿١﴾ .

ولذا قال ﷺ : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » رواه الشيخان عن أبي هريرة (٢) .

الآيات : المعجزات الخوارق ، والمعنى أن كل نبي أعطى آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن لأجلها . « وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ » أى إن معجزتي التي تحدت بها هي الوحي الذي أنزل على ، وهو القرآن لما اشتمل من الإعجاز في الأسلوب والهداية .

وليس المراد حصر معجزاته فيه ، ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتى من تقدمه ، بل المراد أنه المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره ، لأن كل نبي أعطى معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره تحدى بها قومه ، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه ، كما سبق .

على أن للنبي ﷺ معجزات أخرى كثيرة مذكورة في صحيح السنة منها : انشقاق القمر فرقتين ، وتسليم الحجر عليه ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الماء القليل وتفجره من العيون بسبب دعائه ، وتكثير الزاد القليل حتى يطعم منه العدد الكثير ، وإبراء ذوى العاهات ، فقد رد عين قتادة بعد أن سألت على نحوه فصارت أحسن عينيه ، وتفل في عين على رضى الله عنه وهى رمداء فبرئت ، وكذا استجابة دعائه ، وإخباره عن كثير من الأمور الغيبية .

ومن معجزاته المذكورة في القرآن : الإسراء والمعراج ، وعصمته من الناس ، وقتال الملائكة معه في أكثر من غزوة ، فمعجزاته ﷺ كثيرة جداً ، حتى إن أبا بكر بن العربي في تفسيره « أنوار الفجر » أوصلها إلى ألف معجزة عدداً ، وقال : لقد لخصت واختصرت وأعظمها القرآن الذى لا تنتهى عجائبه ، ولا تقف معجزاته عند حد (٣) .

(١) المائدة ٤٨ . (٢) اللؤلؤ والمرجان ١ / ٣٠ .

(٣) انظر صحيح مسلم ٥ / ٣٨ ، ٤٤ ، وإحياء علوم الدين للغزالي ٢ / ٣٨٤ ، والنبوة إصلاح للأستاذ

سعدى ياسين ١٣ .

المبحث الثالث

القرآن مصدق لما أنزله الله في الكتب السابقة ولم يحرف

وقال في ص ٢ : والإنجيل له مكانة عظيمة في القرآن الذي كان مصدقاً له ، وداعياً للناس إلى الإيمان به ، وقال في ص ٦ : وكون القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب فهذا يعني صحة الإنجيل والتوراة وسلامتهما من التحريف وإلا فإنه يستحيل على المسلم أن يؤمن بأن القرآن نزل مصدقاً لكتاب محرف . وللرد على ذلك أقول :

الإنجيل وكل الكتب المنزلة من عند الله ولم يحصل فيها تغيير ، لها مكانة عظيمة في القرآن لأنها من عند الله ، ولكن أين هي الآن الكتب التي أنزلها الله وبقيت محفوظة كما أنزلها الله تعالى ؟ .

والقرآن مصدق للكتب التي أنزلها الله تعالى قبله ، ولم يحرف ما فيها ، أو يبدل أو ينسى ، أو ينسخ تبعاً للأهواء ، وأين هي ؟ .

فهو مصدق للتوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام ، وكتبها بنفسه ، ولكن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ، وأخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل بحفظها « كما نص على ذلك في الفصل الحادى والثلاثين من سفر تثنية الاشرع » قد فقدت باتفاق مؤرخى اليهود والنصارى عند سبى البابليين لليهود ، ولم يكن عندهم إلا هذه النسخة ، ولم يكونوا يستظفرونها ، كما كان المسلمون يستظفرون القرآن الكريم في عهده صلوات الله عليه ، زيادة على كتابته وقت نزوله واستمر حالهم على ذلك للآن .

وقد حقق كثير من مؤرخي الفرنجة أن هذه التوراة التي بين أيديهم كتبت بعد موسى — عليه السلام — ببضعة قرون . كتبها عزرا الكاهن بعد أن أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى بلادهم .

ولذا قال الله تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ فهو لم يأخذ التوراة من أيدي اليهود الذين زعموا أن عزرا كتبها بعد الرجوع من سبي بابل ، وإن كان يجتج عليهم بما كانوا يخالفونه مما حفظوه منها ، وقد اختلفوا في كتبهم وفي شرعهم إلى مذاهب ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَرِيبٍ ﴾ (١) .

ومصدق للإنجيل الوحيد ، وهو الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام ، وبشر به ، وليس مصداقاً لهذه الأناجيل العديدة التي كثيراً ما يناقض بعضها بعضاً ، وكثيراً ما يكون التناقض في الإنجيل الواحد منها ، والتي حصل فيها تحريف وتبديل ونسيان لحظ عظيم منها ، كما حصل فيها نسخ تبعاً لأهوائهم (٢) .
إنهم يعترفون بأن الإنجيل الذي بأيديهم لم يكتبه المسيح ، ولا أملاه على من كتبه ، وإنما أملاه بعد رفع المسيح متى ويوحنا ، وكانا قد صحبا المسيح ، ومرقص ولوقا ، وهما لم يريا المسيح عليه السلام .

وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح ، وبعض أخباره ، وأنهم لم يستوعبوا أقواله وأفعاله ، ونقل اثنين أو ثلاثة يجوز عليه الخطأ ، لا سيما وقد غلطوا في المسيح حيث اشتبه عليهم بالمصلوب .

فالقرآن مصدق للإنجيل الصحيح الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام ، ولم يحرف ، لا الإنجيل الموجود الآن عند المسيحيين ، وفيه التثليث والصلب ، فإنه مخالف للقرآن الذي يصف الله تعالى بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، والحي الذي لا يموت .

والله قد نجى الأنبياء أولى العزم من أعدائهم ، وعصمهم من كيد الكافرين

(١) هود ١١٠ .

(٢) انظر « المسيح في القرآن » للأستاذ عبد الكريم الخطيب ٧٨ : ٨٣ .

بهم : فنجى نوحاً من الغرق ، ونجى إبراهيم من النار ، وموسى من فرعون ،
ومحمداً من كيد المشركين ومكرهم ، فكيف لا ينجى عيسى من قتل اليهود
وصلبهم له؟ كما يقول المسيحيون ؟ .

لقد جرت سنة الله في عيسى على نسق سنته في إخوانه من أولى العزم من
الرسل — عليهم الصلاة والسلام — فنجاه الله من قتل اليهود وصلبهم له ، وسجل
الله ذلك في كتابه ، فقال تعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه
لهم ﴾ (١) .

على أن نظرية الصلب التي في الإنجيل الموجود عند المسيحيين اليوم نظرية
بطلانها معها ، فهي لا يقبلها عقل ، ولا تقرها شريعة سماوية ، فكيف يكون
القرآن الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ مصدقاً لمثل هذا
الإنجيل ؟ وإليك الأدلة القاطعة بتحريف التوراة والإنجيل من القرآن ومن التوراة
والإنجيل نفسيهما ، وبعض ما لا يصدقه القرآن منهما في المبحثين التاليين :

* * *

المبحث الرابع

الأدلة القرآنية على تحريف الكتب السابقة

القرآن الكريم نزله الله هدى للعالمين إلى يوم الدين ، لذلك تعهد بحفظه من التحريف والتغيير فقال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (١) فبقى محفوظاً بحفظ الله له من التحريف والتغيير ، وينقل من جيل لآخر بالتواتر سماعاً وكتابة لم يتغير فيه حرف واحد حتى يكون حجة قائمة لله على عباده ، ولما كانت الكتب السابقة قد نزلت لأقوام مخصوصين ولأمد محدود تنتهي بانتهائه فقد ترك الله حفظها لأصحابها فقال تعالى : ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ (٢) أى بسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع ، فوقع التحريف والتغيير .

هذا ، وقد شهد القرآن الكريم — وشهادته مقطوع بها لتواتره سماعاً وكتابة — أن أهل الكتاب كانوا يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، أى من بعد وضعه في مواضعه ، وتحريفهم إما لفظياً بإبدال كلمة بكلمة ، أو بإخفائه وكتانه ، أو بالزيادة فيه ، أو بالنقص منه ، وإما معنوياً يحمل اللفظ على غير ما وضع له ، وإليك ما جاء في ذلك من القرآن الكريم :

١ — قال تعالى : مخاطباً بنى إسرائيل : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ (٣) .

والمعنى : ولا تخطئوا الحق الموجود في التوراة بالباطل الذى تخترعونه ، ولا تكتموا وصف النبى وبشارته التى هى حق وأنتم تعلمون أنه حق وصدق

(٣) البقرة ٤٢ .

(٢) المائدة ٤٤ .

(١) الحجر ٩ .

وليس جزاء العالم يوم القيامة كالجاهل .

٢ — وقال تعالى : ﴿ أَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿ (١) .

والمعنى : أنسيتم أفعالهم وأعمالهم فتطمعوا أن يؤمن — لأجل دعوتكم — ويستجيب لكم هؤلاء اليهود ، وقد كان منهم جماعة — وهم الأخبار — يسمعون كلام الله في التوراة ويفهمونه حق الفهم ، ثم يغيرونه ويبدلونه حسب أهوائهم وميولهم ، وهم يعلمون أن هذا العمل يتنافى مع الحقيقة ، وأن كتب الله المنزلة لا يجوز تغييرها .

ونقيصة أخرى من نقائصهم ، وهي أن منافقهم كانوا إذا تقابلوا مع المؤمنين قالوا نحن مؤمنون بالله وبرسوله محمد ، إذ هو المبشر به عندنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض عاتبهم الفريق الآخر على ما قالوا ، وقالوا لهم : كيف تحدثون أتباع محمد بما أنزله الله عليكم في التوراة ، وهم يأخذون كلامكم حجة عليكم ، فيخاصمونكم به عند ربكم يوم القيامة ؟ .

أتحدثونهم بذلك فلا تعقلون أنه حجة عليكم ، حيث تعترفون بمحمد ثم لا تتابعونه ، وينكر الله عليهم حالهم هذه فيقول ﴿ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان وسيجزئهم عليه .

هذا شأن من عرف الكتاب منهم — وهم علماءهم وأخبارهم — أما الأميون منهم فإيهم لا يعرفون عن دينهم إلا أكاذيب سمعوها ولم يعقلوها ، وهي أنهم شعب الله المختار ، وأن أنبياءهم سيشفعون لهم ، وأن النار لا تمسهم

(١) البقرة : ٧٥ : ٧٩ .

إلا أياماً قليلة ، وما هم في ذلك إلا واهمون ، فلا تطمع — يا محمد — في إيمانهم ، ولا تأس على أمثالهم ، فالعذاب الشديد لهؤلاء الذين ينسخون التوراة بأيديهم فيغيرون فيها ما شاءوا تبعاً لأهوائهم ، ومعنى ﴿ يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ أنهم يكتبون شيئاً لم يأتيهم من رسلهم ، بل يضعونه ويبتكرونه ، كما دل عليه قوله ﴿ ثم يقولون هذا من عند الله ﴾ المشعر بأن ذلك قولهم بأفواههم ليس مطابقاً لما في نفس الأمر .

قال أبو السعود (١) : روى أن أحبار اليهود خافوا ذهاب ملكهم وزوال رياستهم حين قدم النبي ﷺ المدينة فاحتالوا في تعويق أسافل اليهود عن الإيمان فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة وكانت هي فيها : حسن الوجه ، حسن الشعر ، أكحل العينين ربعةً غيروها وكتبوا مكانها : طوال أزرق ، سبط الشعر ، فإذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لصفته عليه السلام فيكذبونه — وثم للتراخي الرتبي ، فإن نسبة المحرف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحاً أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل . أهـ

ومع هذا تبلغ الجرأة بهم أن ينسبوا ما افتروه إلى الله سبحانه ليأخذوا بهذا الكذب الشائن ثمناً دنيوياً لا قيمة له ، سواء كان مالاً أو رياسة أو جاهاً ، فالدنيا كلها لا تساوي شيئاً في جانب الآخرة ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ وقد جنى اليهود الكاتبون ثلاث جنائيات : تغيير صفة النبي ﷺ ، والافتراء على الله ، وأخذ الرشوة ، فهددوا على كل جنابة بالويل والثبور .

روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه (٢) أنه قال : « يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذى أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله ، تقرأونه لم يُشب ، وقد جدثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله ، وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مبعائلتهم ، ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم » .

(١) في تفسيره ١ / ٩٤ .

(٢) في ٤ / ١٥ .

٣ - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴿١﴾ قال ابن كثير (٢) قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب كتموا صفة محمد ﷺ.

والمعنى: أن الذين يخفون ما أنزله الله بكنمه عن الناس مع حاجتهم إليه، أو يضعون شيئاً مكذوباً من عندهم مكانه، فجزاؤهم الطرد من رحمة الله، وغضبه، وغضب ملائكته والناس أجمعين عليهم، إلا من تاب منهم، ورجع عن كتمان كلام الله، وأصلح ما أفسده، بأن أزال ما وضعه من عنده، وكتب الأصل، وبلغ ما أنزله الله من غير تحريف ولا تبديل فأولئك يتوب الله عليهم ويغفر لهم ذنوبهم، لأنه هو التواب الرحيم.

٤ - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم وهم عذاب أليم﴾ * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار * ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴿٣﴾.

سبب النزول: قال الفخر الرازي (٤): قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، ومالك بن الصيف، وحبي بن أخطب وأبي ياسر بن أخطب كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث محمد عليه السلام خافوا انقطاع تلك المنافع، فكتموا أمر محمد عليه السلام وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية.

والمعنى: أن الذين يكتمون من أهل الكتاب ما أنزل الله من الكتاب المنزل عليهم من صفة النبي ﷺ وبيان زمانه ومكانه، وغير ذلك مما يشهد بصدق نبوته، وكال رسالته حرصاً على رياسة كاذبة، وعرض زائل، قد باعوا الخير والهدى بثمن بخس قليل لا ينفع، أولئك البعيدون في الضلال لا يأكلون في

(١) البقرة ١٥٩، ١٦٠. (٢) في تفسيره ١ / ٢١١.
(٣) البقرة ١٧٤، ١٧٦. (٤) في تفسيره ٢ / ٨٩.

بطونهم إلا ما هو موجب لدخول النار ، ومن شدة غضب الله عليهم أنه لا يكلمهم يوم القيامة كلام رضا كما يكلم المؤمنين ، بل يكلمهم كلام غضب ، كقوله : ﴿ اخصسوا فيها ولا تكلمون ﴾ (١) ولا يثنى عليهم بالخير ، ولا يطهرهم من دنس الذنوب ، كما يفعل مع أهل الجنة ، ولهم عذاب شديد في الدنيا والآخرة .

أولئك الذين اعتاضوا عن الهدى — وهو تصديق الرسول ﷺ ، ونشر ما في كتبهم من صفاته ، وذكر مبعثه والبشارة به واتباعه — بالضلالة — وهى تكذيبه والكفر به ، وكتمان صفاته في كتبهم — واعتاضوا عن المغفرة بالعذاب ، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة .

وقوله ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ أى ما أشد صبرهم على نار جهنم ؟ وهو تعجيب للمؤمنين من جرأة أولئك الكفار على اقرار أنواع المعاصي ، وإذا كانت حالتهم في الآخرة لا تطاق فلماذا لا يرتدعون عما يؤدى بهم إلى ذلك ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴾ أى إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ ، وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل ، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه ، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهم يكذبونه ، ويحسدونه ويكتمون صفته في كتبهم ، فاستهزؤا بآيات الله المنزلة على رسله فاستحقوا بذلك العذاب والنكال .

وقوله : ﴿ وإن الدين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ﴾ أى وإن الذين اختلفوا فى كتب الله ، فقالوا بعضها حق ، وبعضها باطل لفى ضلال بعيد عن الحق والصواب .

٥ — وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ (٢) .

(١) المؤمنون ١٠٨ . (٢) آل عمران ٧٠ ، ٧١ .

والمعنى : يا أهل الكتاب قد أرسلت لكم رسلاً ومعهم كتب فيها إرشاد إلى العقائد الصحيحة ، والأعمال الصالحة ، والبشارة بالنبي المبعوث من ولد إسماعيل ، وهو عربى أسمى ، فلم تكفرون بآيات الله التى نزلت فى التوراة والإنجيل ، ولم تعملوا بمقتضاها ، وبالآيات التى فى القرآن فلم تؤمنوا بها ، والعجب أنكم تقرون وتشهدون بصدق رسالة محمد ﷺ ، وصدق بشارته التى فى كتبكم فيما بينكم ، ولكنكم لا تعملون بمقتضى ذلك .

يا أهل الكتاب لم تخطون الحق الذى جاء به النبيون ، ونزلت به كتبهم من عبادة الله وحده والبشارة بنبي من بنى إسماعيل يعلم الناس الكتاب والحكمة ، بالباطل الذى لفته أحباركم ورؤساؤكم بتأويلاتهم الفاسدة ، وتجعلون ذلك ديناً يجب اتباعه ، كما جاء فى الآية الآتية ﴿ ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ﴾ .

وتكتبون شأن محمد ﷺ ونعته ، وهو مكتوب عندكم فى التوراة والإنجيل ، وأنتم تعلمون أنه حق ، ولكنكم تكتبونه عناداً وحسداً .

٦ - وقال تعالى فى أهل الكتاب : ﴿ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ (١) .

أصل اللى قتل الحبل والميل به عن الاتجاه المستقيم ، ولوى رأسه أماله ، والمراد به هنا تحريف الكتاب وتوجيهه إلى ما يريدونه ، كما فى الألفاظ التى جاءت على لسان عيسى عليه السلام من نحو ابن الله ، وتسمية الله أباً له ، وأباً للناس ، فهذا مما لا يراد به المعنى الحقيقى ، لكنهم لَوَّوه ونقلوه إلى المعنى الحقيقى بالنسبة إلى المسيح ، وأوهموا الناس أن الكتاب جاء بهذا .

والجمهور على أن المراد بهذا الفريق بعض علماء اليهود الذين كانوا حول المدينة ، وإن كان التشنيع عليهم يتناول من كان على شاكلتهم ، منهم ومن غيرهم .

(١) آل عمران ٧٨ .

والمعنى : وإن من أهل الكتاب لجماعة من أحبارهم وعلماهم يفتلون ألسنتهم ويميلونها عن الآيات المنزلة ، بأن يزيدوا في كلام الله ، أو ينقصوا أو يحرفوا الكلم عن مواضعه ، أو يقرءون كلامهم بنغم وترتيل يشبه نغم الكتاب وترتيله ، فيوهمون الناس بأنه من التوراة ، وأن الكتاب جاء بذلك لتحسبوه من الكتاب ، والواقع أنه ليس منه ، ويقولون على الله الكذب ويفتجرونه وهم يعلمون أنه ليس من عند الله ، ولكنه من عند الشيطان والهوى ، فهم لا يعرضون ولكن يصرحون بذلك لقسوة قلوبهم وفجورهم .

٧ - وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (١) .

الميثاق : العهد المؤكد الذى أخذ على أهل الكتاب بواسطة الأنبياء . لتبينه : لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار حتى يعرفه الناس على وجهه الصحيح . فنبدوه وراء ظهورهم : طرحوا تعاليمه وأهلوها .

سبب نزول هذه الآية : قال ابن عباس رضى الله عنه : هى لليهود : أخذ عليهم العهد فى أمر محمد ﷺ ، فكنتموه ، وهى عامة فى كل من علمه الله علماً (٢) .

والمعنى : قال ابن كثير (٣) : هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وأن ينهوا بذكره فى الناس فيكونوا على بينة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعه ، فكنتموا ذلك ، وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوى السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم ، وفى هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم . . .

٨ - وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۗ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا

(١) آل عمران ١٨٧ . (٢) التسهيل لابن جزي ١ ١٢٦ . (٣) فى تفسيره ١ ٤٣٦ .

وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا
سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم
فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴿١﴾ .

والمعنى : أنه تعالى يخبر عن فريق من أهل الكتاب أنهم يشترون الضلالة
بالمهدى ويعرضون عما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ ، ويتركون ما بأيديهم من
العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ ، ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام
الدنيا ، ويودون لو تكفروا بما أنزل عليكم ، أيها المؤمنون ، وتتركون ما أنتم
عليه من الهدى والعلم النافع ، والله أعلم بهم ويحذركم منهم ، وكفى به ولياً لمن
لجأ إليه ، ونصيراً لمن استنصره ، ثم أخبرنا الله تعالى أن من الذين هادوا قوماً
﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ أى يميلونه عنها ، ويزيلونه ، لأنهم إذا بدلوه
ووضعوا مكانه كلما غيره فقد أمالوه عن مواضعه في التوراة التي وضعه الله تعالى
فيها وأزالوه عن مكانه ، وذلك نحو تحريفهم أبيض ربعة عن موضعه في التوراة
بوضعهم آدم طوال مكانه .

وقد ذكر هنا ﴿ عن مواضعه ﴾ وفي المائة ﴿ من بعد مواضعه ﴾ فمعنى
﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ يزيلونه عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله
وضعه فيها ومعنى ﴿ يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴾ يزيلونه ويميلونه عن
مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها ، والمعنيان متقاربان ، والمراد تحريف أحكام
الله وتغييرها بأحكام أخرى ﴿ ويقولون سمعنا وعصينا ﴾ أى سمعنا ما قلته
يا محمد ، ولا نطيعك فيه ، وهذا منتهى الوقاحة في كفرهم وعنادهم ، حيث
يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم
والعقوبة .

وقولهم ﴿ واسمع غير مسمع ﴾ أى اسمع ما نقول لا سمعت ، وهذا استهزاء
منهم واستهتار ، ويحتمل واسمع غير سامع مكروهاً ، كما يقال واسمع لا سمعت
مكروهاً ، كانوا يخاطبون به النبي ﷺ استهزاء ، مظهرين إرادة المعنى الأخير وهم
مضمرين في أنفسهم المعنى الأول .

(١) النساء ٤٤ : ٤٦ .

وكانوا يقولون « وراعنا » وهو كلام أيضاً كالذى قبله ، يحتمل انظرنا وتمهل علينا ، ويحتمل أنه من الرعونة والحمق ، وراعنا : كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها ، فكانوا سخرية بالدين وهزواً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل الإهانة والتكريم ، ينوون به الشتيمة والإهانة ، ويظهرون به التوقير والإكرام .

فهذه جرائم ثلاث كانوا يقولونها للنبي ﷺ تارة في مجلسه ، وتارة بعيداً عنه ، يفعلون هذا ﴿ لِيَأْ بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ وفتلاً بها وتحريفاً ، وصرفاً للكلام عن إرادة الخير إلى إرادة الشر والسب ﴿ وَطَعْنَا فِي السَّبِيحِ ﴾ وقدحاً فيه بالاستهزاء والسخرية ، وهذا منتهى الجراءة في الباطل والعدوان على الحق .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ عندما سمعوا أمراً أو نبياً ، ولم يقولوا سمعنا وعصينا ، وقالوا ﴿ وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا ﴾ عند خطاب النبي ﷺ ، بدل ﴿ وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ عند الله « وأقوم » أى أعدل وأسد .

ولكنهم لم يقولوا ذلك فخذلهم الله ولعنهم وطردهم من رحمته بسبب اختيارهم الكفر ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ منهم قد آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه ، أو إلا إيماناً قليلاً ضعيفاً لا يعاب به .

٩ — وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَمَا نَقِضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

معاني المفردات : نقيب القوم : كبيرهم الذى يعنى بهم وبمصالحهم ، ويعرف دخائلهم ، وهو الضامن لهم . والتعزير : النصره مع التعظيم . القرض الحسن : ما كان عن طيب نفس . سواء السبيل : وسط الطريق .

والمعنى : وبالله لقد أخذ الله العهد المؤكد على بنى إسرائيل بالسمع والطاعة ، والعمل بما فى التوراة ، وأقام عليهم اثنى عشر رئيساً منهم بتنفيذ العهد . ووعدهم وعداً مؤكداً أن يكون معهم بالعون والنصر إن أدوا الصلاة على وجهها ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم ، وصدقوا برسله جميعاً ، ونصروهم ، وأنفقوا فى سبيل الخير ، وإذا ما فعلوا ذلك تجاوز الله عن ذنوبهم ، وأدخلهم جناته التى تجرى من تحتها الأنهار ، فمن كفر ونقض العهد منهم بعد ذلك فقد حاد عن الطريق المستقيم ، واستحق العذاب الأليم .

﴿ فَمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ أى فبسبب نقض اليهود ميثاقهم الذى أخذه الله عليهم ، ومن ذلك الإيمان بمن يرسل إليهم من الرسل ، ونصرهم وتعظيمهم استحقوا غضب الله ومقته ، والبعد عن لطفه ورحمته ، فإن نقض الميثاق أفسد فطرتهم ، ودنس نفوسهم ، وقسى قلوبهم حتى قتلوا الأنبياء بغير حق ، وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً ، وأهانوا المسيح عليه السلام ، الذى أرسل إليهم لإصلاح ما فسد من عقائدهم وأخلاقهم ، وحاولوا قتله مفتخرين بذلك ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، فبكل هذا بعدوا عن رحمة الله ، إذ جرت سننه أن الأعمال السيئة تؤثر فى النفوس آثاراً سيئة ، فتجعل القلوب قاسية ، لا تخضع لحجة ، ولا تؤثر فيها موعظة ، فاستحق غضب الله ومقته ، والبعد عن فضله ورحمته .

وما مثل هذا إلا مثل من يهمل العناية بنفسه ، ولا يراعى القوانين الصحية ، فهو ولا شك سيصاب بالأمراض والأسقام ، ولا يلوم من حينئذ إلا نفسه ، لأنه هو السبب فى ذلك بإهماله .

﴿ يَجْرِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ وذلك إما بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والتغيير والتبديل ، والزيادة والنقصان والإخفاء والكتان ، وإما بتحريف المعانى بحمل الألفاظ على غير ما وضعت له ، وكل منهما قد وقع فى التوراة وغيرها من كتبهم كما تقدم ، لأن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام وأخذ العهد والميثاق على بنى إسرائيل بحفظها ، كما نص على ذلك فى الفصل الحادى والثلاثين من سفر تثنية الاشتراع قد فقدت باتفاق مؤرخى اليهود والنصارى عند سبى البابليين لليهود ، ولم يكن عندهم إلا هذه النسخة ، ولم يكونوا يستظفرونها كما يستظفرون المسلمون قرآنهم من بدء نزوله للآن .

وهناك أسفار خمسة ينسبونها إلى موسى ، فيها خبر كتابته التوراة وأخذه للعهد عليهم بحفظها ، ولا شك أن هذا ليس منها قطعاً ، وفيها خبر موته وأنه لم يبق بعده أحد مثله إلى ذلك الوقت ، أى الوقت الذى كتب فيه سفر تثنية الاشتراع وفى هذا أكبر دليل على أن الكاتب كان بعد موسى — عليه السلام — بوقت طويل من الزمن ، كما أن فيها كثيراً من الكلمات البابلية الدالة على أنها كتبت بعد السبي، لكل هذا حقق كثير من مؤرخى الفرنجة أن هذه التوراة التى بين أيديهم كتبت بعد موسى بيضعة قرون ، كتبها عزرا الكاهن بعد أن أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى بلادهم .

﴿ ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ أى ونسوا نصيباً جزيلاً ، وقسطاً وافراً مما ذكروا به من التوراة ، لأنهم أضاعوها عندما أحرق البابليون هيكلهم وخرّبوا عاصمتهم ، وسبوا من بقى منهم حياً ، فلما عادت إليهم الحرية جمعوا ما كانوا قد حفظوه من التوراة ووعوه بالعمل به ، فالتكثير فى قوله تعالى ﴿ ونسوا حظاً ﴾ للتكثير ، لأن الحظ هو النصيب الكبير الذى يعد محظوظاً من يظفر به .

وهذا يدل على أن الجزء الذى نسيه أولئك اليهود هو جوهر الكتاب ولبه ، لأن القارىء للتوراة المتداولة لا يجد فيها ذكراً لليوم الآخر ، وما يجرى فيه من حساب يترتب عليه الثواب والعقاب ، وهذا دليل قاطع على أن القرآن معجزة محمد ﷺ أثبتته التاريخ بعد بعثة النبى بعدة قرون من موت موسى عليه السلام .

﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم ﴾ الخائنة بمعنى الخيانة ، كالقائلة بمعنى القيلولة ، والخاطئة بمعنى الخطيئة . أى إنك أيها النبى لا تزال تطلع من هؤلاء اليهود على خيانة بعد خيانة ، فلا تظن أنك أمنت كيدهم بتأمينك إياهم على أنفسهم ، فهم قوم لا وفاء لهم ولا أمانة ، فمن نقض عهد الله وميثاقه كيف يرجى منه وفاء ، وكيف يطمع منه فى أمانة ؟ .

إلا قليلاً منهم ، وهم من أسلم منهم وصدق الله ورسوله كعبد الله بن سلام وإخوانه ، فلا تظن بهؤلاء سوءاً ، ولا تخف منهم خيانة ولا خداعاً ﴿ فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ أى فاعف عن هؤلاء اليهود الذين هموا أن

يسطوا أيديهم إليك ، وإلى أصحابك بالقتل ، واصفح عن أساء إليك منهم ،
فإني أحب من أحسن بالعمفو والصفح إلى من أساء إليه ، إثارة للإحسان والفضل
على ما يقتضيه العدل .

ومحل العفو والصفح ما لم يؤثر موقفهم على كيان الأمة الإسلامية ، والدعوة
المحمدية ، فإذا ما نقضوا عهودهم ، وخانوا الله ورسوله والمؤمنين ، وأصبح العفو
عنهم مضراً بالمسلمين ، وجبت معاملتهم بما يقى المسلمين شرورهم ، لأن العفو
عنهم في هذه الحالة يلقي بالمسلمين إلى التهلكة .

وعن أبي مسلم أن ضمير عنهم عائد على القليل المستثنى ، أى فاعف عما
فرط. من هؤلاء القليل واصفح عن أساء منهم ، وعاملهم بالإحسان الذى يحبه
الله تعالى ، فأنت أحق الناس باتباع ما يحبه الله ويرضاه .

١٠ — وقال تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا
حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم
الله بما كانوا يصنعون ﴾ (١) .

والمعنى : ومن الذين ادعوا أنهم نصارى ، وسموا أنفسهم بذلك أخذنا عليهم
الميثاق بالإيمان بالله وتوحيده ، والتصديق برسله خصوصاً خاتمهم محمد ﷺ ،
والعمل بما أنزلناه عليهم فى الإنجيل ، فتركوا نصيباً وافراً مما أمروا به فيه ، وسلكوا
فى ميثاقنا طريق اليهود ، فبدلوا دينهم ونقضوا الميثاق الذى أخذناه عليهم بالوفاء
بعهدنا ، فعاقبناهم على ذلك بإثارة العداوة والخصومة الشديدة بينهم ، فصاروا
فرقاً متعادية إلى يوم القيامة ، لأن نسيانهم حظاً عظيماً من كتابهم كان سبباً فى
تفرقهم فى الدين واتباع أهوائهم ، وتبع هذا أن وقعت بينهم العداوة والبغضاء .
بمقتضى سنته تعالى فى هذه الحياة .

وسيجبرهم الله تعالى عند الحساب فى الآخرة — تبيكيتاً وتوبيخاً — بما كانوا
يصنعون فى الدنيا ، من الشرك ، ونقض الميثاق ، وتبديل الكتاب ، وتحريف
الأوامر والنواهي وبجازيهم على ذلك بما يستحقون ليوقنوا أن حكم الله عدل
لا يجابى أحداً .

١١ — وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهتدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (١) .

سبب النزول : عن عكرمة في قوله ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم ﴾ إلى قوله ﴿ صراط مستقيم ﴾ قال : إن نبي الله أتاه اليهود يسألونه عن الرجم ، واجتمعوا في بيت . قال : أيكم أعلم ؟ فأشاروا إلى ابن صوريا ، فقال : أنت أعلمهم ؟ قال : سل عما شئت ، قال : أنت أعلمهم ؟ قال : إنهم ليزعمون ذلك . قال فناشده بالذي أنزل التوراة على موسى ، والذي رفع الطور ، وناشده بالمواثيق التي أخذت عليهم ، حتى أخذها أفكل (٢) ، فقال : إن نساءنا نساء حسان فكثير فينا القتل فاخصرنا أنحصورة (٣) ، فجلدنا مائة وحلقنا الرعوس ، وخالفنا بين الرعوس إلى الدواب — أحسبه قال الإبل — قال فحكم عليهم بالرجم ، فأنزل الله فيهم ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم . . . ﴾ الآية وكذا أخفوا صفات النبي ﷺ ، والبشارات به ، وحرفوا بالحمل على معان أخرى اليهود والنصارى في هذا سواء (٤) .

والمعنى : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ خاتم النبيين ، داعياً إلى الحق ، يظهر لكم كثيراً من الأحكام التي كنتم تخفونها ، وقد أنزلها الله عليكم ، كحكم رجم الزاني ، وهو مما حفظتموه من أحكام التوراة ، كما هو ثابت في سفر التثنية ٢٢ / ٢٠ — ٢٤ ، لكنكم لم تلتزموا العمل به ، وأنكره عالمكم ابن صوريا أمام النبي ﷺ ، فأقسم عليه وناشده الله فاعترف به .

وكذلك أخفى اليهود والنصارى صفات النبي ﷺ ، والبشارات به ، وحرفوها بالحمل على معان أخرى ، إلى ما أضاعوه من كتبهم ، ونسوه ، كنسيان اليهود ما جاء في التوراة من أخبار الحساب والجزاء في الآخرة ، وأظهره الرسول لهم ، وكانت الحجة عليهم فيه أقوى ، إذ هم يعلمون أنه نبي أمي لم يطلع على

(٢) بوزن أرنب : الرعدة .

(١) المائدة ١٥ ، ١٦ .

(٣) كالأقصوة : الشيء المختصر . (٤) من تفسير ابن جرير ٦ / ١٦١ .

شيء من كتبهم .

ومن ثم آمن به من آمن من علمائهم المنصفين ، واعترفوا بعد إيمانهم بما بقي عندهم من البشارات ، وصفات النبي ﷺ ، وكان هذا البيان من دلائل نبوته ﷺ ومعجزات القرآن التي لا يشك فيها .

ومع هذا فقد يعفون عن كثير مما تخفونه ، ولا تدعو الحاجة إلى إظهاره ، والفائدة في ذكر بعضه إعلامهم بأن الرسول ﷺ عالم بكل ما يخفونه ، فيكون ذلك داعياً لترك الإخفاء ، حتى لا يفتضحوا ، ومن شأن علماء السوء في كل أمة أن يكتنوا من العلم ما يكون حجة عليهم ، وكاشفاً سوء حالهم ، أو يخفوه بحمله على غير ظاهر معناه .

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ النور هو النبي محمد ﷺ ، وسمى بذلك لأنه للبصيرة كالنور للبصر ، فكما أنه لولا النور ما أدرك البصر شيئاً من المبصرات ، كذلك لولا ما جاء به النبي ﷺ من القرآن والإسلام لما أدرك ذو البصيرة من أهل الكتاب ولا من غيرهم حقيقة الدين الحق ، ولا ما طرأ على التوراة والإنجيل من ضياع بعضهما أو نسيانه ، وعبث الرؤساء ببعض الآخر ، بإخفاء شيء منه أو تحريفه ، وظلوا في ظلمات الجهل والكفر لا يبصرون . والكتاب المبين : هو القرآن الكريم ، وهو بين في نفسه ، مبين لما يحتاج الناس إليه في هدايتهم .

﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ أى يهدي الله بهذا الكتاب إلى سبيل النجاة من اتجه إلى مرضاته ويخرجهم من ظلمات الشرك والكفر إلى نور الإيمان وهدى القرآن بتوفيقه ، ويرشدهم إلى طريق الحق والسعادة في الدنيا والآخرة .

١٢ - وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم

بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴿١﴾ .

معاني المفردات : لا يمزقك : لا يؤلمك . يسارعون في الكفر : يقعون فيه بسرعة ورغبة ، والمراد أنهم ينتقلون مسرعين من بعض فنون الكفر إلى بعض آخر . فنتته : اختباره حتى يظهر ما تنطوى عليه نفسه . السحت : الخبيث من المكاسب ، وهو في اللغة الهلاك والشدة ، وسمى المال الحرام سحتاً لأنه يسحت الطاعات والبركات ، أى يذهبها .

مما جاء في سبب نزول هذه الآيات :

١ — ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر رضی الله عنه : « أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ » فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، فقال عبد الله بن سلام : كذبتم إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفع يده ، فإذا فيها آية الرجم ، فقالوا : صدق ، يا محمد ، فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، قال عبد الله بن عمر : فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقبها الحجارة ﴿٢﴾ يجنأ على المرأة : ينحني عليها .

٢ — وما رواه مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب (٣) قال : « مرُّ على النبي ﷺ بيهودى مُحَمَّمًا مجلوداً ، فدعاهم ﷺ فقال : هكذا تجدون حد الزانى في كتابكم ؟ قالوا : نعم . فدعا رجلاً من علمائهم ، فقال : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزانى في كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، ونجده الرجم ، ولكنه كثر في أشرفنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، قلنا تعالوا فلنجتمع على شئ نقيم على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . فقال رسول الله ﷺ : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، فأمر به فرجم ، فأنزل

(١) المائدة ٤١ : ٤٣ . (٢) اللؤلؤ ٢ / ١٨٨ . (٣) في ١١ / ٢٠٩ .

الله عز وجل : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ إلى قوله : ﴿ إن أوتيتم هذا فخذوه ﴾ .

يقول : ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ في الكفار كلها .

معنى الآيات :

﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ .

خاطب الله محمداً ﷺ بقوله « يا أيها النبي » في مواضع كثيرة ، وما خاطبه بيا أيها الرسول إلا في هذا الموضوع ، وموضع آخر بعده ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ وهذا الخطاب للتشريف والتعظيم ، وتأديب المؤمنين وتعليمهم أن يخاطبوه بوصفه كما كان يفعل بعض أصحابه بقولهم « يا رسول الله » وجهل هذا بعض الأعراب لخشونتهم ، وسداجة فطرتهم ، فكانوا ينادونه « يا محمد » حتى أنزل الله ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ﴾ فكفوا عن نداءه باسمه .

والنهي عن الحزن — وهو أمر طبيعي لا اختيار للإنسان فيه — مراد به النهي عن لوازمه ، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم وقعها ، وبذلك يتجدد الألم وتعز السلوى .

والمعنى : لا تهتم أيها الرسول بهؤلاء المنافقين الذين يقعون في الكفر بسرعة ورغبة ، ويبادرون إلى إظهاره متى ظهرت لهم أية فرصة ، فإني ناصرهم عليهم ، وكافيك شرهم .

﴿ من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا ﴾ أي لا يحزنك ويؤمك — أيها الرسول — شأن الذين يسارعون في الكفر ، ويتنقلون فيه من نوع إلى آخر ، ومن أدناه إلى أعلاه من المنافقين الذين ادعوا الإيمان بألسنتهم ، وقلوبهم خالية منه ، ومن اليهود ، فإن الله ناصرهم وكافيك

شرهم ، فالمسارعون في الكفر طائفتان : طائفة من المنافقين ، وطائفة من اليهود .
﴿ سماعون للكذب ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره هم سماعون للكذب ،
والظاهر أن الضمير المقدر عائد على الفريقين : المنافقين واليهود ، بقرينة الحديث
عن الفريقين ، أى هم كثير وسماع الكذب — سماع قبول — وهم يعرفونه
كذباً ، والمراد بالكذب كذب أحبارهم الزاعمين أن حكم الزنى في التوراة
التحميم ، وأن نعوت النبي ﷺ غير موجودة في كتابهم ، وقد قال بعض
المفسرين : إن المراد بالمنافقين هنا منافقو اليهود ، فيكون الكلام هنا في أولئك
اليهود عامة — الذين أظهروا الإسلام نفاقاً والذين ظلوا على دينهم — ويدخل في
عموم الأول المنافقون من غير اليهود ، على قاعدة العبرة بعموم اللفظ ،
لا بخصوص السبب ، أى ومن المنافقين .

ومن اليهود قوم كثير وسماع الكذب — سماع قبول — من أحبارهم الذين يلقون
إليهم الأخبار الكاذبة في حق النبي ﷺ ، وفي أحكام دينهم التي يتلاعبون فيها
بأهوائهم ، وكثيرو الاستماع لكلام الرسول ﷺ ، وإخبار أحبارهم به لأجل
الكذب عليه بالتحريف ، واختلاق الشبهات في تعاليم الإسلام .

﴿ سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ وهم أيضاً مبالغون في قبول كلام قوم
آخريين لم يحضروا مجلسك تكبراً وإفراطاً في العداوة والبغضاء ، وجهوهم عيوناً
وجواسيس لهم لأجل أن يبلغوهم ما سمعوا من رسول الله ﷺ .

فهم منعوتون بصفتين : سماع الكذب من أحبارهم ونقله إلى عوامهم ،
وسماع الحق من النبي ﷺ ونقله إلى أحبارهم ليحرفوه تبعاً لأهوائهم ، فهم
جواسيس بين المسلمين لأعدائهم .

وجملة ﴿ سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ خبر ثان عن المبتدأ المحذوف ،
وآخرين صفة أولى لقوم ، و (لم يأتوك) صفة ثانية .

والمعنى : أنهم يقبلون ما يأمرهم به قوم آخرون من كتم غرضهم عن النبي
ﷺ حتى إن حكم بما يهون اتبعوه ، وإن حكم بما يخالف هواهم عصوه ، أى
هم أتباع لقوم مستترين ، هم الآخرون ، وهم أهل خيبر ، وأهل فدك ، الذين
بعثوا بالمسألة ولم يأت أحد منهم النبي ﷺ ، واللام في « لقوم » للتقوية لضعف

اسم الفاعل عن العمل في المفعول ﴿ يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴾ صفة
 ثلاثة لقوم ، أو حال ، أى يحرف هؤلاء اليهود الذين لم يأتوك كلم التوراة من بعد
 وضعه في مواضعه التى وضعه الله تعالى فيها ، إما تحريفاً لفظياً بإبدال كلمة
 بكلمة ، أو بإخفائه وكتنائه ، أو بالزيادة فيه أو بالنقص منه ، وإما تحريفاً معنوياً
 بجمل اللفظ على غير ما وضع له .

وقد قال تعالى هنا ﴿ من بعد مواضعه ﴾ وفى سورة النساء ﴿ عن
 مواضعه ﴾ لأن آية سورة النساء فى وصف اليهود كلهم وتحريفهم فى التوراة ،
 فهو تغيير كلام التوراة بكلام آخر عن جهل أو قصد ، أو خطأ فى تأويل معانى
 التوراة ، أو فى ألفاظها ، فكان إبعاداً للكلام عن مواضعه ، أى إزالة للكلام
 الأصلى ، سواء عوض بغيره أم لم يعوض .

وأما هاته الآية فى ذكر طائفة معينة أبطلوا العمل بكلام ثابت فى التوراة ،
 إذ ألغوا حكم الرجم الثابت فيها دون تعويضه بغيره من الكلام ، فهذا أشد جراءة
 من التحريف الآخر ، فكان قوله ﴿ من بعد مواضعه ﴾ أبلغ فى تحريف الكلام ،
 لأن لفظ بعد يقتضى أن مواضع الكلم مستقرة ، وأنه أبطل العمل بها مع بقائها
 قائمة فى كتاب التوراة .

﴿ يقولون إن أوتيم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ أى يقولون لمن
 أرسلوهم إلى الرسول ﷺ ، ليسألوه عن حكم الرجل والمرأة اللذين زنيا منهم —
 وأرادوا أن يحابوهم بعدم رجمهما — إن أعطاكم محمد رخصة بالجلد عوضاً عن الرجم
 فخذوها وارضوا بها وإن حكم بالرجم فاحذروا قبول ذلك ولا ترضوا به .

﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾ أى ومالك تحزن عليهم ؟
 والحال أنه من يرد الله أن يختبره فى دينه ، ويظهر أمره فلن تملك له من الله شيئاً
 يمنع ذلك ، وهؤلاء المنافقون واليهود قد أظهرت فتنه الله لهم مقدار فسادهم ، فهم
 الذين وضعوا أنفسهم للكذب ونقله ، وتحريف الكلم وكتنائه اتباعاً لأهوائهم ،
 ومرضاة لرؤسائهم ، وذوى الجاه فيهم فلا تحزن عليهم ، ولا تطمع فى جذبهم إلى
 الإيمان فإنك لا تملك لأحد نفعاً وإنما عليك البلاغ والبيان .

﴿ أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم هم فى الدنيا خزي وهم فى الآخرة

عذاب عظيم ﴿ أى أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الكفر والنفاق ويزكى نفوسهم من الرجس والإثم وسىء الأخلاق ؛ لأن سنة الله في خلقه ﴾ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴿ أن النفس إذا مرت على السوء والشر لم يعد لها طريق للخير ، ولا سبيل للنور ، لهم في الدنيا ذل بفضيحتهم ، وهتك سترهم ، وظهور الإسلام والقضاء عليهم ، وهم في الآخرة عذاب شديد عظيم هوله ، شديد وقعه .

﴿ سماعون للكذب أكلون للسحت ﴾ أعاد الله وصفهم بكثرة السماع للكذب للتأكيد وتقرير المعنى ، وإفادة اهتمام المتكلم به ، وبيان أن أمرهم كله مبنى على الكذب الذى هو شر الرذائل ، وأضر المفاصد ، وليرتب عليه قوله ﴿ أكلون للسحت ﴾ ومعنى ﴿ أكلون للسحت ﴾ أتخاذون له ، لأن الأكل استعارة لإتمام الانتفاع ، والسحت : الشيء المسحوت ، أى المستأصل ، يقال : سحته إذا استأصله ، وأتلفه سعى به الحرام لأنه لا يبارك فيه لصاحبه ، فهو مسحوت وممحوق ، أى مقدر له ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ يحق الله الربا ﴾ .

والسحت يشمل جميع المال الحرام ، كالربا والرشا وأكل مال اليتيم والمغصوب ، فهؤلاء القوم فوق كونهم سماعون للكذب الذى هو رأس كل رذيلة ، فإنهم كذلك أكلون للمال الحرام بجميع صورته وألوانه ، فترتب على ذلك فساد أمورهم الدينية والدنيوية .

﴿ فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ﴾ أى فإن جاءوك متحاكمين إليك فأنت مخير بين الحكم بينهم والإعراض عنهم وتركهم إلى رؤسائهم ، وهذا التخيير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة ، فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم في بلادهم ، وإن تحاكموا إليهم ، بل هم مخيرون يرجحون في كل حال ما يروونه من المصلحة .

وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا ، لأن من أخذت منه الجزية تجرى عليه أحكام الإسلام في البيوع والمواثيق وسائر العقود إلا في بيع الخمر والخنزير ، فإنهم يقرون عليه ، ويمنعون من الزنا كالمسلمين ، فإنهم نهوا عنه ، ولا يجمعون لأن من شروط الرجم الإسلام .

... وإن اخترت الإعراض عنهم ولم تحكم بينهم فلن يضروك شيئاً من الضرر ، فإن الله حافظك من كيدهم .

﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾ أى وإن اخترت أن تحكم بينهم فاحكم بينهم بالعدل الذى أمرت به ، وهو ما تضمنه القرآن ، وجاءت به شريعة الإسلام ، ولا تستمع لرغبتهم وأهوائهم ، إن الله يحب العادلين فى الناس ، القاضين بينهم بما شرع الله ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن -- عز وجل -- وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا » رواه مسلم (١) .

﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ أى وكيف يطلبون حكمك فى قضية مع أن حكم الله فيها منصوص عليه عندهم فى التوراة ، والعجب من أمرهم أنهم يعرضون عن حكمك إذا لم يوافق هواهم ، مع أنه الموافق لما فى كتابهم ، فما هم بمؤمنين بالتوراة ولا بالقرآن ، ولا بمن أنزلهما ، فمن أيقن أذعن ، ومن أذعن عمل ، لأن الإيمان الإذعانى هو صاحب السلطان الأعلى على الإرادة ، والإرادة هى المصرفة للجوارح فى الأعمال .

١٣ — وقال تعالى: ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها ويخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ (٢) .

ما ورد فى سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : « قالت اليهود : يا محمد أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : نعم ، قالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً قال : فأنزل الله « قل — يا محمد — من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » إلى قوله : « ولا آباؤكم » قال : الله أنزله » وعن السدى قال : قال فنحاص اليهودى : ما أنزل الله على محمد من شيء (٣) .

(١) ك ١٢ / ٢١١ | الأعمام ٩١ .

(٣) أخرجهما ابن جرير فى تفسيره ٧ / ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

والمعنى : وما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته في اللطف
بعباده والعناية بهم إذ أنكروا بعثة الرسل وإنزال الكتب بغيا ومكابرة ، فقالوا :
ما أنزل الله على بشر شيئا من الأشياء ، قاصدين بذلك الطعن في نبوة محمد
ﷺ ، وكتابه الكريم .

وقد أمر الله رسوله أن يلزمهم الحجة ، وأن يرد على نفهم العام بقضية بديهية
التسليم ، فقال : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس
تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ﴾ القراطيس : جمع قرطاس ، وهو
ما يكتب فيه من ورق ونحوه ، أى قل — يا محمد — هؤلاء الزاعمين بأن الله
ما أنزل على بشر شيئا من الأشياء : من الذى أنزل التوراة وهى الكتاب الذى جاء
به موسى نوراً يضىء من ظلمات الجهالة ، وهدى يرشد ويعصم من الضلالة .

إنكم أيها اليهود تجعلون هذا الكتاب أوراقاً مكتوبة مفرقة ، تظهرون منها
ما يتفق وأهواءكم ، وتخفون كثيراً مما يلجئكم إلى الإيمان ، والتصديق بالقرآن ،
أو يكون حجة عليكم لمحمد ﷺ . والغرض من هذه الجملة ذم المحرفين لكتاب
الله ، وتوبيخهم على هذا الفعل الشنيع الذى يريدون منه الطعن في نبوة محمد
ﷺ وكتابه .

﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم
يلعبون ﴾ أى والحال أنكم علمتم بواسطة التوراة ما كنتم تجهلون من أمور الدين
وقوانين الأخلاق والتعامل ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم ، وتوَلَّ أنت أيها
النبيّ الجواب ، وقل لهم : الله هو الذى أنزل التوراة ، ثم اتركهم يمشون في
الضلال عابثين كالصبيان .

وهكذا ثبت ثبوتاً قطعياً من هذه الآيات الكثيرة التى تقدمت تحريف التوراة
والإنجيل لفظياً ومعنوياً .

فهل تريدون من القرآن — الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — أن
يصدق هذا المحرف ، أو يكذب بعضه بعضاً ؟ .

على أن القرآن لم يناقش قضية التحريف ، مناقشة تفصيلية تستوعب كل
ما جاء فيها ، وإلا لطال الأمر ، وخرج عن مهمته من الهداية إلى معرّكة مع

الخصم ، من الجدل والنقد يطول أمدها ، وتخرج به عن القصد ، ولذا اكتفى
ببيان أمهات المسائل ، وقواعد الدين الكلية التي يفهم في ضوئها ما يتعارض مع
عقائده ومسلّماته .

* * *

المبحث الخامس

ما لا يصدقه القرآن من التوراة والإنجيل

وإليكم بعض الأمثلة لما لا يصدقه القرآن من التوراة والإنجيل :

١ - القرآن لا يصدق ما جاء في التوراة من قول موسى — عليه السلام — لربه : « ارجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك ، فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعلُه بشعبه »^(١).

٢ - ولا يصدق ما تقوله عن إيليا « إيلياس » : وصرخ إلى الرب وقال : أيها الرب إلهي أأيضاً إلى الأرملة التي أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها؟^(٢).

٣ - والقرآن لا يصدق ، بل يكذب وينكر أشد الإنكار ، ما تقوله التوراة عن هارون : « أنه صنع لبني إسرائيل عجلاً جسداً من ذهب على أنه الإله المعبود »^(٣).

٤ - وما تقوله : من أن ابنتي لوط سقتا أباهما خمرأ حتى غاب ، واضطجعت كل منهما معه في ليلة لتحمل منه ، فحملت كل منهما من أبيها ، وهو لا يعلم باضطجاعها ولا بقيامها^(٤).

٥ - وما تقوله على لسان موسى — عليه السلام — : « من مثلك بين الآلهة يارب »^(٥).

٦ - وما تقوله على لسانه أيضاً : « الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة »^(٦) فهذا قول بتعدد الآلهة وما أنزل القرآن ، ولا الكتب السماوية جميعها ،

(٤) اقرأ تكوين ١٩ » ٣٠ : ٣٦ .

(٥) خروج ١١ : ١٥ .

(٦) خروج ١١ : ١٨ .

(١) خروج ٣٢ » ١٢ — ١٤ .

(٢) الملوك الأول ١٧ : ٢٠ .

(٣) خروج ٣٢ » ١ — ٦ .

ولا أرسلت الرسل كلها إلا لتدعو العالم كله إلى التوحيد الخالص ، وعبادة إله واحد لا شريك له .

٧ — والقرآن لا يصدق ما جاء في إنجيل يوحنا :

« لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك ، كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية »^(١) .

٨ — ولا ما جاء فيه « أنا والآب واحد »^(٢) .

٩ — ولا يصدق ما جاء في إنجيل مرقس : « ثم إن الرب بعدما كلمهم ارتفع إلى السماء ، وجلس عن يمين الله »^(٣) .

١٠ — والقرآن لا يصدق العقائد والشرائع التي ابتدعتها المسيحيون بغير إذن من الله : مثل القول بالتثليث والأقانيم ، والقول بالتجسد والحلول ، والاتحاد بين الناسوت واللاهوت ، وقولهم إن المسيح هو الله ، أو ابن الله ، أو إله حق من إله حق .

١١ — والقرآن ينكر ما هم عليه من عقيدة الصلب والفداء ، وعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر على الوجه الصحيح ، وتحليل ما حرمه الله ورسله ، كالخنازير .

١٢ — والقرآن لا يقر التناقض الذي جاء في إنجيل متى — وهو عمدة الأناجيل الأربعة — حيث يقول السيد المسيح لبطرس أحد الحوارين الإثنى عشر :

« وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات »^(٤) .

ثم يقول في نفس الإصحاح آية ٢٣ لبطرس : « اذهب عنى يا شيطان أنت معثرة لى لأنك لا تهتم بالله ، لكن بما للناس » فكيف يرفع السيد المسيح حواريه بطرس إلى أعلى عليين ، ثم يلقى به إلى منازل الشياطين في أسفل سافلين ؟ .

(٣) مرقس ١٦ : ١٩ .

(١) يوحنا ٣ : ١٦ .

(٤) متى ١٦ : ١٩ - ٢٠ .

(٢) يوحنا ١٠ : ٣٠ .

ويقول متى أيضاً في الإصحاح ١٩ من إنجيله آية ٢٨ : يقول السيد المسيح للحواريين الإثنى عشر الذين معه : « متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسيّاً تدينون أسباط إسرائيل الإثنى عشر » . والمعروف أن يهوذا الإسخريوطي هو الذي أسلم المسيح لليهود ودلهم عليه ، ليقدموه للمحاكمة ، ثم الصلب ، نظير دراهم معدودة ، هو واحد من الإثنى عشر حوارياً ، فكيف تكون له تلك المنزلة الرفيعة ، وهو الذي فعل بالمسيح — عليه السلام — هذه الفعلة الشنعاء؟ ويقول فيه المسيح — عليه السلام — : « ولكن ويل لذلك الرجل الذي به يُسَلَّم ابن الإنسان ، كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد » (١) .

وفي الإصحاح العاشر من مرقس ٢٩ ، ٣٠ يقول السيد المسيح لتلاميذه وحواريه : « الحق أقول لكم : ليس أحد ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات ، أو أباً أو أمّاً ، أو امرأة ، أو أولاداً ، أو حقولاً لأجل ولأجل الإنجيل إلا يأخذ مائة ضعف الآن في هذا الزمان ، بيتاً وإخوة وأخوات ، وأمّهات ، وأولاداً ، وحقولاً مع اضطهادات ، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية » .

وقد ورد هذا الخبر في لوقا ١٨ « ٢٩ — ٣٠ » وفي متى ١٩ « ٢٩ — ٣٠ » .

ويقول الشيخ أبو بكر عمر التميمي (٢) تعليقاً على هذا الخبر الذي أجمعت عليه الأناجيل الثلاثة : وهو — أي الخبر — غلط يقيناً ، لأن الإنسان إذا ترك امرأة لأجل الإنجيل أو المسيح ، لا يحصل على مائة امرأة في هذه الدنيا يقيناً ؛ لأن المسيحيين لا يجوزون الزواج بأكثر من امرأة واحدة ، وإذا كان المراد بهن في هذا القول المؤمنات بالمسيح — عليه السلام — بدون عقد نكاح يكون الأمر أفحش وأفسد ، والعياذ بالله تعالى . وقوله « حقولاً مع اضطهادات » لا معنى له ، فإن الكلام هنا في حسن المكافأة والمجازاة فما دخل الشدائد والاضطهادات هنا ؟ .

ويقول لوقا في الإصحاح الرابع عشر من إنجيله آية ٢٦ على لسان المسيح

(٢) في كتابه السيف الصقيل ١٩٨ .

(١) متى ٢٦ : ٢٤ .

— عليه السلام — « إن كان أحد يأتي إلى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده ، وإخوته ، وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً » .

وكيف يكون هذا كلام السيد المسيح ، ومن مقاصد الديانات السماوية جميعها البر بالوالدين والأقارب والإنسانية كلها ، والسيد المسيح — عليه السلام — يقول في وصاياه في إنجيل متى ١٩ : ١٩ : « أكرم أباك وأمك ، وأحب قريبك كنفسك » .

هذا والتحريف والتناقض في الأناجيل كثير لا يتسع المقام لذكره ، وصدق الله حيث يقول في القرآن الكريم : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (١) .

ولهذا التناقض الواضح والخلاف البعيد بين الأناجيل ، تعرضت لنقد مرير من علماء المسيحية أنفسهم ، فضلاً عن غيرهم ، فيقول أول ديوارنت في تعليق عام على الأناجيل الأربعة : « وملاك القول أن ثمة تناقضاً كثيراً بين الأناجيل ، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً في صحتها وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشبهة مما يروى عن آلهة الوثنيين ، وكثيراً من الحوادث التي يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات كثير من التنبؤات الواردة في العهد القديم (٢) .

فهل بعد هذا — وغيره كثير — تريدون من القرآن أن يصدق ما جاء في هذه الأناجيل العديدة ، من عقائد باطلة ، وشرائع مبتدعة ، وآراء متضاربة ؟ إن القرآن لا يصدق إلا ما جاء في الإنجيل الواحد الذي أنزله الله على عيسى — عليه السلام — ولم يحرف ، أو يبدل ، أو ينسى فائتوا به إن كنتم مستطيعين ، لنعرضه على القرآن الكريم ﴿ فإن لم تفعلوا — ولن تفعلوا — فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ (٣) .

إنكار أهل الكتاب نسخ شريعة القرآن لشريعتهم

هذا ، وقد تصدى أهل الكتاب لشريعة القرآن فأنكروا نسخها لشريعتهم ،

(١) النساء ٨٢ . (٢) قصة الحضارة .

(٣) البقرة ٢٤ .

وتنادوا وتناصروا على ذلك .

فالبابا شنودة يقول في رسالته « القرآن والمسيحية » ص ٢ : ولم يذكر في القرآن إطلاقاً أنه نسخ التوراة أو الإنجيل ، بل على العكس ذكر أن المؤمنين ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل . وقال في ص ٨ : إن كل ما سبق ينفي بأسلوب قاطع الفكرة الخاطئة التي ظنها البعض ، وهي أن القرآن نسخ التوراة والإنجيل . من المحال أن يكون ناسخاً لهما وفي نفس الوقت يدعو إلى الإيمان بهما ، ويحذر من إهمال ذلك . والبابا شنودة ليس وحيداً في ذلك ، فقد أنكر اليهود والنصارى قديماً وحديثاً ذلك توسلاً للقوم بنفى نبوة محمد ﷺ وشريعته لهم .

فالشعوبية من اليهود يقولون : بامتناع النسخ عقلاً وسمعاً ، والعناية منهم يقولون بجوازه عقلاً وامتناعه سمعاً ، والفرقة الثالثة منهم وهم العيسوية ينكرون نسخ الشريعة المحمدية لليهودية ، فهم يعترفون برسالة محمد ﷺ ولكنهم يقولون إنها خاصة بالعرب^(١) .

وجميع نصارى هذا العصر ينكرون النسخ ، ويقولون بامتناعه عقلاً وسمعاً ، وتشيعوا له تشيعاً ظهر في حملاتهم المتكررة ضد الإسلام^(٢) ، وقد عبر عن ذلك كثير منهم :

فالقسيس الدكتور فندر في كتابه « ميزان الحق » يدعى أن الكتاب المقدس « التوراة والإنجيل » لم ينسخ ، ولا يمكن أن ينسخ لا في حقائقه ولا في عقائده ، ولا في مبادئه الأدبية ، كما ادعى أن التوراة غير منسوخة بالإنجيل ، وأن الإثنين غير منسوخين بالقرآن^(٣) .

والأستاذ ج . ك في رسالته « وإلهنا وإلهكم واحد »^(٤) ص ٢٥ : ٢٧ ينحو هذا النحو .

(١) انظر الإحكام في أصول الأحكام للآمدى ٢ / ٦٦ ، وتفسير الفخر الرازي ١ / ٤٣٣ .

(٢) انظر مناهل العرفان للأستاذ الزرقاني ٢ / ٨٢ .

(٣) راجع كتاب « ميزان الحق » له ٦١ : ٩٤ ، وكتاب أدلة اليقين في الرد على كتاب ميزان الحق وغيره للأستاذ الجزيري ١١٨ .

(٤) مطبعة أفرام . درعون . حريصاً بلبنان .

وقال الدكتور أحمد الحوفي^(١) : والمسيحيون يقرون بنبوّة موسى وبالتوراة ، لكنهم ينقمون على اليهود أنهم يجرحون نسب عيسى ، ويحدون رسالته . والإسلام في زعمهم دين افتراه عربى ادعى النبوة ، وادعى أن دينه ينسخ ما قبله ، وفي زعمهم أن الدين الناسخ لما قبله إنما هو المسيحية ، فيجب أن تنفرد بالبقاء والسيادة .

ودحضاً لهذا الافتراء والادعاء الكاذب أسوق البراهين الساطعة والأدلة القاطعة والمتواترة من النقل والعقل والعلم بكثرة كاثرة على عالمية الرسالة المحمدية ، وشمولها لجميع الثقليين : الجن والإنس من أهل الكتاب وغيرهم ، وعلى نسخها لجميع الشرائع السماوية السابقة في المباحث الثلاثة التالية وبالله التوفيق .

* * *

(١) في كتابه سماحة الإسلام ١٦٨ .

المبحث السادس

عالمية الرسالة المحمدية ونسخها لغيرها

نبينا محمد ﷺ ، رسول الله إلى جميع العالمين ، جنأ وإنساً ، عرباً وعجماً ، أهل كتاب أولاً في كل زمان ومكان من يوم بعثته حتى تقوم الساعة .

والقرآن الكريم الذي أنزله الله عليه في شهر رمضان المبارك هو كتاب الله الخالد لجميع الجن والإنس وإن اختلفوا زماناً ومكاناً حتى يرث الله الأرض ومن عليها(١) ، وذلك معلوم من دين الإسلام بالضرورة ، والأدلة الصريحة على ذلك من القرآن والسنة الصحيحة كثيرة جداً ، يطول ذكرها كلها فنكتفى ببعضها :

فمن القرآن :

١ — قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ (٢) .

الفرقان : القرآن لأنه يفرق بين الحق والباطل . والعالمون : ما سوى الله تعالى من العقلاء ، إنساً أو جنأ .

٢ — وقوله : ﴿ إن في هذا لبراهين لِقَوْمٍ عَابِدِينَ * وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٣) .

أي إن في هذا القرآن لكفاية لدخول الجنة لقوم عاملين به ، وما أرسلناك

(١) رسالته ﷺ إلى جميع المكلفين من الثقلين : الإنس والجن رسالة تكليف اتفاقاً . وما كلف به الإنس تفصيلاً وإجمالاً فقد كلف به الجن كذلك .

(٢) أول الفرقان .

(٣) الأنبياء ١٠٦ ، ١٠٧ .

يا محمد إلا لرحمة الإنس والجن بك .

٣ - وقوله : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ (١) أى قل - أيها النبي - لقومك : لا أطلب منكم على تبليغ كلام الله أجراً . ما هذا القرآن إلا تذكير للعالمين : الإنس والجن .

٤ - وقوله : ﴿ وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ (٢) .

٥ - وقوله : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ (٣) أى وما القرآن إلا عظة للإنس والجن ، ووالله لتعلمن خبر صدقه يوم القيامة .

٦ - وقوله : ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ (٤) .

٧ - وقوله : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ (٥) .

٨ - وقوله : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ (٦) أى لينذر من كان حياً من الإنس والجن من يوم البعثة المحمدية حتى تقوم الساعة .

٩ - وقوله : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ (٧) فمن اسم موصول لجميع العقلاء من الجن والإنس أهل كتاب أولاً ، أى فذكر بالقرآن جميع العقلاء من الثقلين الذين يخافون عقاب الله ويرجون ثوابه .

١٠ - وقوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٨) . فحيث كان التحدى بالقرآن الكريم تحدياً للإنس والجن على امتداد الزمان والمكان . فإن معنى هذا التحدى أن يكون الإنس والجن مدعويين جميعاً إلى ما يدعو إليه الرسول الذى

(٥) التكوير ٢٧ ، ٢٨ .

(٦) يس ٦٩ ، ٧٠ .

(٧) آخر ق .

(٨) الإسراء ٨٨ .

(١) الأنعام ٩٠ .

(٢) يوسف ١٠٤ .

(٣) آخر ص .

(٤) آخر القلم .

جاء بتلك المعجزة ، وهو الإيمان به ، وكتاباه ، فمن استجاب لذلك كان مؤمناً ، ومن أبى كان كافراً ، إنساً أو جنأ ، أهل كتاب أو لآ .

ولذلك قال ابن تيمية رحمه الله : ومما يجب أن يعلم هو أن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى جميع الإنس والجن ، فلم يبق إنس ولا جن إلا وجب عليه الإيمان بمحمد ﷺ واتباعه ، فعليه أن يصدقه فيما أخبر ، ويطيعه فيما أمر ، ومن قامت عليه الحجة برسالته ثم لم يؤمن به فهو كافر ، إنسياً كان أو جنياً (١) .

هذا ، وكل الآيات السابقة سورها مكية ، وهي تدل على عالمية الرسالة المحمدية من أيامها الأولى ، لا كما يدعى بعض المؤرخين غير المسلمين أن الدعوة الإسلامية نشأت محلية ، ثم طمحت بعد اتساع رقعة الفتوح أن تكون عالمية ، فهي منذ نشأتها رسالة للعالمين ، طبيعتها طبيعة عالمية شاملة ، ووسائلها إنسانية كاملة ، وغايتها نقل البشرية كلها من عهد خاص إلى عهد عام ، ومن نهج قومي إلى نهج عالمي .

ومع أن البشر داخلون في العالمين دخولاً أولياً ، ولكن الله نص عليهم بالذات تأكيداً لعموم رسالته ﷺ وكتاباه لجميع الناس ، وذلك في نصوص عديدة منها :

١ - قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٢) فلفظ الناس يشمل العرب والعجم وأهل الكتاب وغيرهم .

٢ - وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بَرَهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مَبِينًا ﴾ (٣) فالبرهان الرسول ﷺ ، لأن أخلاقه وصفاته الكريمة دليل على صدق رسالته والنور القرآن ، لأنه يهدي الناس إلى الخير .

٣ - وقوله : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَاسْتَنْزِلُ مَنْ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (٤) المراد بأم القرى أهمها وهي مكة ، لأنها قبلة المسلمين وفيها أول

(١) من الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ص ٨٠ .

(٢) النساء ١٧٠ . (٣) النساء ١٧٤ . (٤) الأنعام ٩٢ .

بيت وضع للناس ، ومن حولها : المحيطون بها من سائر جهاتها حتى نهاية المعمور من الأرض ، أى ولتندر أهل مكة وسائر الناس ، ومن يؤمن بالآخرة يؤمن بالقرآن ويحافظ على الصلاة عمود الدين .

٤ — وقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ (١)

٥ — وقوله : ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ﴾ (٢) .

٦ — وقوله : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ (٣) والمعنى : ما كان للناس أن يعجبوا وينكروا وحيناً إلى رجل منهم ، هو محمد ليحذر الناس من عذاب الله ، ويشر الذين آمنوا منهم بأن لهم منزلة عالية عند ربهم ، لا يتخلف وعد الله بها .

٧ — وقوله : ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾ (٤) .

٨ — وقوله : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ (٥) الذكر : القرآن .

٩ — وقوله : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ (٦) .

والمعنى : هو الله الذى أرسل رسوله محمداً ﷺ ، بالقرآن الذى يهدى الناس إلى الخير ، وبالدين الحق وهو الإسلام ، ليعليه على باقى الأديان بالحجة والبرهان ، وكفى بالله شهيداً على أنك مرسل بما ذكر ، وأن ما أراد الله كائن لا محالة .

١٠ — وقوله : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأُمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ وكلماته : قرآنه

(١) الشورى ٧ . (٢) الزمر ٤١ . (٣) يونس ٢ . (٤) آخر يونس . (٥) النحل ٤٤ (٦) الفتح ٢٨

أى قل لجميع البشر من عرب وعجم ، أهل كتاب أولاً : إني رسول الله إليكم كافة ، لا إلى قومي خاصة .

١١ - وقوله : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ (١) .

١٢ - وقوله : ﴿ وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴾ (٢) أى وقد نزلنا هذا القرآن مفرداً في مدة ثلاث وعشرين سنة لتقرأه على الناس على مهل وتؤدة ليفهموه ، ونزلناه شيئاً فشيئاً على حسب الوقائع والمصالح ومقتضى الحكمة .

١٣ - وقوله : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً ﴾ (٣) أى وكفى بالله شهيداً على أنك مرسل إلى جميع الناس .

١٤ - وقوله : ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ (٤) .

١٥ - وقوله : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٥) أى وما أرسلناك إلا لإرسالة عامة لجميع الناس ، فإنها إذا عمتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم ، والمراد رسالة عامة للناس جميعاً .

١٦ - وقوله : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ (٦) .

١٧ - وقوله : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ (٧) أى هذا القرآن أنزل لتبليغ الناس ما به من أحكام وتشريعات .

ومع أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يشملهم لفظ العالمين ، ولفظ الناس شمولاً لا شك فيه ، فقد نص الله عليهم بالذات ، وذكرهم صراحة في كثير من الآيات زيادة في البيان ، وتأكيدياً لما سبق ، حتى لا يتخيل متخيل ، أو يتأول متأول ، أو يكابر مكابر في أن الرسالة المحمدية وكتابتها لا يشملانهم ، بل هما خاصان بغير أهل الكتاب ، وأنها غير ناسخة لشرائعهم ، كما يحاول ذلك كثير منهم

(١) أول إبراهيم . (٢) الإسراء ١٠٦ . (٣) النساء ٧٩ . (٤) الحج ٤٩ .

(٥) سبأ ٢٨ . (٦) البقرة ١٨٥ . (٧) آخر إبراهيم .

قديماً وحديثاً والآيات في ذلك كثيرة منها :

١ — قوله تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ (١) أى وآمنوا بما أنزلت على محمد وهو القرآن حال كونه مصداقاً لما معكم فى التوحيد والنبوة ومكارم الأخلاق وصالح الأعمال ، ولا تكونوا أول كافر من أهل الكتاب بالقرآن ، ولا تستبدلوا بسبب تحريف آيات التوراة والإنجيل الدالة على صدق رسولنا محمد ثمناً قليلاً هو حب الرياسة وزخرف الدنيا ، وإياى فخافون فى ذلك دون غيرى ولا تخلطوا الحق الذى أنزلت عليكم بالباطل الذى تفترونه ، ولا تكتموا النعت الحق لمحمد وأنتم تعلمون أنه حق .

وهذه الآيات من أقوى الأدلة على نسخ الشريعة المحمدية لليهودية والمسيحية ، وجميع الشرائع السماوية السابقة ، حيث أمرهم بالإيمان بمحمد وكتابه والتزام أحكامه ، والخضوع لشريعته واستقبال قبلته والصلاة مع المصلين فى مساجد المسلمين .

٢ — وقوله : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبىون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ (٢) الأسباط : أولاد يعقوب عليه السلام — اثنا عشر رجلاً ، ولد كل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط — وقال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى بنى إسماعيل .

والمعنى : أن المؤمنين من هذه الأمة يصدقون بجميع ما أنزله الله وبكل نبى بعثه الله ولا يكفرون بأحد من ذلك ، فإن آمن الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به — أيها المؤمنون — من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه ، وإن تولوا عن الحق إلى الباطل بعد

(١) البقرة ٤٠ : ٤٣ . (٢) البقرة ١٣٦ . ١٣٧ .

قيام الحجّة عليهم فإنما هم في خلاف معكم فسينصركم الله عليهم ويظفركم بهم ، وهو السميع لأقوالهم العليم بأحوالهم .

٣ - وقوله : ﴿ قل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ (١) .

والمعنى : **قل** - يا محمد - لليهود والنصارى ومشركي العرب أسلموا وخص هؤلاء بالذكر مع أن البعثة عامة لأنهم هم الذين خوطبوا أولاً بالدعوة فإن أسلموا فقد اهتدوا من الضلال ، وإن تولوا عن الإسلام فإنما عليك تبليغ الرسالة ، والله خبير بعباده فيجازيهم بأعمالهم .

قال ابن كثير (٢) : وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث .

٤ - وقوله : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (٣) .

والمعنى : **قل** يا محمد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى تعالوا إلى الكلمة السواء ، وهي العدل والنصف والأمر الوسط ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ، ولا أى شيء آخر ، ولا يعظم بعضنا بعضاً بما يعظم به الله أو يطيعه في معصية ، فإن تولى اليهود أو النصارى عن ذلك فقولوا لهم اشهدوا بأنا مسلمون حقاً ، ومنقادون صدقاً لله وحده مخلصين له الدين ، وأما أنتم فلا وهذه الآية الكريمة هي التي كان يكتبها رسول الله في رسائله إلى رؤساء المسيحية وأقوامهم داعياً لهم إلى الإسلام ، ونص كتابه إلى قيصر ملك الروم . كما في الصحيحين وهو : (٤)

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ،

(٣) آل عمران ٦٤ .

(٤) اللؤلؤ ٢ / ٢٢١ .

(١) آل عمران ٢٠ .

(٢) في تفسيره ١ / ٣٥٤ .

وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (١). و ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ .

٥ — وقوله: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ (٢).

٦ — وقوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ (٣) إصرى: عهد المؤكد.

وهكذا بين الله أنه أخذ الميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وينصروه إذا أدركوه وأكد ذلك غاية التأكيد اعتناء به وأشاد بشرفه وفضله، فمن أعرض عن الإيمان بالنبي بعد هذا الميثاق المؤكد فهو الفاسق الخارج عن شرع الله الكافر بالأنبياء أولهما وآخرهما.

قال ابن كثير في تفسيره ٣٧٨/١: قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضى الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمداً وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

٧ — وقوله تعالى: ﴿قل آما بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ ومن يتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ (٤) أى فمن يطلب بعد مبعث محمد ﷺ ديناً وشريعة غير دين الإسلام، والشريعة الحمديّة فلن يرضى الله منه ذلك لنسخها غيرها، وهو في الآخرة من الذين خسروا أنفسهم فاستوجبوا العذاب الأليم.

٨ — وقوله: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على

(٢) آل عمران ٧٠ .

(٤) آل عمران ٨٤ ، ٨٥ .

(١) الفلاحين .

(٣) آل عمران ٨١ ، ٨٢ .

ما تعملون ﴿١﴾ .

والمعنى : أن الله سبحانه أمر رسوله بتوبيخ أهل الكتاب من اليهود والنصارى على استمرارهم على الكفر والضلال والتضليل فقال : قل يا محمد لأهل الكتاب يا أهل الكتاب لا وجه لكفركم ، فلائى سبب تكفرون بدلائل الله الدالة على نبوة محمد ﷺ ، وصدقه ، والله مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها .

٩ - وقوله : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ (٢) .

والمعنى : ولو آمن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بما أنزل على محمد لكان إيمانهم خيراً لهم لنجاتهم به من عذاب الله ودخولهم جناته ، لكنهم يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون ببعضها ، ويؤمنون ببعض الرسل كموسى وعيسى ، ويكفرون بمحمد ، على أنهم كيف يدعون الإيمان وفي كتبهم البشارة بمحمد وصفاته وهم ينكرونها حتى لا يلزمهم الإيمان به .

ولكن من أهل الكتاب قوم مؤمنون حقاً ، كعبد الله بن سلام وأضرابه من اليهود ، وبعض نصارى الحبشة والشام ، وكثير منهم خارجون عن حدود دينهم ، وواقعون في الكفر والعصيان لربهم .

١٠ - وقوله : ﴿ يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نظمس وجوهاً فتردها على أدبارها أو نلغنها كما لغنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً ﴾ (٣) .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أجباز يهود منهم عبد الله بن صوريا وكعب بن أسيد ، فقال لهم يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فوالله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به الحق ، فقالوا : ما نعرف ذلك يا محمد ، وجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر ، فأنزل الله فيهم ﴿ يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نظمس وجوهاً فتردها على أدبارها أو نلغنها كما لغنا أصحاب السبت وكان

(١) آل عمران ٩٨ (٢) آل عمران ١١٠ (٣) النساء ٤٧ .

أمر الله مفعولاً ﴿١﴾ .

وهذه الآية كانت سبباً في ترك كعب الأبحار اليهودية واعتناقه الإسلام ، ذلك أنه خرج من اليمن يريد بيت المقدس ماراً بالمدينة زمان عمر ، فعرض عليه الإسلام فامتنع ، قال ابن كثير في تفسيره ١ / ٥٠٨ : ثم خرج حتى انتهى إلى حمص ، فسمع رجلاً من أهلها حزيناً وهو يقول : ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها ﴾ الآية قال كعب : يا رب أسلمت ، مخافة أن تصيبه هذه الآية ، ثم رجع فأقى أهله في اليمن ، ثم جاء بهم مسلمين .

١١ — وقوله تعالى — عن أهل الكتاب — : ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴾ (٢) .

فقد أخبر الله في هذه الآية بأن المؤمنين من أهل الكتاب في عهد الرسالة الحمديّة هم الذين يؤمنون به ﷺ وبما أنزل عليه وعلى من قبله من الرسل إلخ ، وبذلك ثبتت رسالته ﷺ لأهل الكتاب .

قال ابن عباس : أنزلت في عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسد بن سعية ، وأسد بن عبيد الذين دخلوا في الإسلام ، وصدقوا بما أرسل الله به محمداً ﷺ (٣) .

ويقطع بأن هذه الآية نزلت في القلة المستقيمة من أهل الكتاب أن الآيات التسع السابقة كانت تتحدث عن جرائم الكثرة من أهل الكتاب بدأت بقوله تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة . . ﴾ ثم استثنى الله منهم القلة المستقيمة بهذه الآية .

(١) تفسير ابن جرير ٥ / ١٢٤ ، ولباب النقول ١ / ٨٠ .

(٢) النساء ١٦٢ . (٣) تفسير ابن كثير ١ / ٥٨٤ .

١٢ — وقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله . . . ﴾ الآية فقد أمر الله أهل الكتاب بالإيمان بالله ورسله ومنهم محمد ﷺ .

١٣ — وقوله : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (٢) .

فقد أخبر الله في هاتين الآيتين أن محمداً ﷺ مرسل إلى أهل الكتاب — كما هو مرسل لغيرهم — وأن كتابه أنزل لهدايتهم كما أنزل لهداية غيرهم .

١٤ — وقوله : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾ (٣) .

فلمراد بالرسول في هذه الآية هو محمد ﷺ ؛ لأنه هو الذي جاء على فترة من الرسل .

١٥ — وقوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ (٤) فهذا أمر من الله له ﷺ ليبلغه أهل الكتاب ، وهو دليل قاطع على رسالته لهم .

١٦ — وقوله : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (٥) .

(١) النساء ١٧١ .
(٢) المائدة ١٥ ، ١٦ .
(٣) المائدة ١٩ .
(٤) المائدة ٧٧ .
(٥) الصف ٦ ، ٧ .

والمعنى : واذكر حين قال عيسى بن مريم : يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما تقدمنى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدى إليكم وإلى جميع البشر اسمه أحمد ، فلما جاءهم الرسول المبشر به وهو محمد ﷺ بالآيات الواضحات والبراهين المعجزات قالوا : هذا الذى جئتنا به سحر بين ، ومن أشد ظلماً ممن اختلق على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام دين الحق والخير والله لا يهدى القوم المصرين على الظلم

١٧ — وقوله : ﴿ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأسمى الذى يمجدهونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل﴾ (١) .

ومن السنة :

١ — مارواه الشيخان عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأبى رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم وكان النبى يبعث فى قومه خاصة وبعثت لى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة » (٢) .

٢ — ومارواه مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً وأرسلت لى الخلق كافة وختم لى النبيون » (٣) الرعب : الخوف يقذفه الله فى قلوب أعدائه ﷺ ، فيكون من ذلك نصره وهزيمتهم .

٣ — وعن أنس بن مالك أن ضمّام بن ثعلبة قال للنبى ﷺ : « أسألك بربك ورب من قبلك الله أرسلك لى الناس كلهم ؟ فقال : اللهم نعم .. » الحديث رواه البخارى (٤) .

٤ — ومارواه مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى (٥) قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث لى قومه خاصة ، وبعثت لى كل أحر وأسود ... » (٦) الحديث .

(٢) اللؤلؤ والمرجان ١ / ١٠٤ .

(٤) فى ١ / ٤٢ .

(٦) المراد جميع الناس .

(١) الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٣) فى ٥ / ٥ .

(٥) فى ٥ / ٣ .

٥ - وقوله ﷺ : « أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة . . » الحديث رواه أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (١) .

٦ - وقوله ﷺ : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تخفروا الله في ذمته » رواه البخاري عن أنس بن مالك (٢) - ذمة الله : أمانته وعهده . فلا تخفروا الله : فلا تنقضوا عهده وتغدروا . والحديث يدعو الناس جميعاً عربهم وعجمهم من أهل الكتاب وغيرهم إلى الدخول في الإسلام ، ويبين أنه لا ينجو من عذاب الله ويحفظ حرمة إلا من شهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وصلى صلاة المسلمين ، واستقبل قبلتهم ، وأكل ذبيحتهم ، وانقاد لشريعتهم .

٧ - وقوله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودى ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » رواه مسلم عن أبي هريرة (٣) .

ومعنى قوله « لا يسمع بي أحد من هذه الأمة » أى ممن هو موجود في زمنى وبعدى إلى يوم القيامة ، فكلهم يجب عليهم الدخول في طاعته ، وإنما ذكر اليهودى والنصرانى تنبيهاً على من سواهم ، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب ، فإذا كان هذا شأنهم مع أنهم لهم كتاب فغيرهم ممن لا كتاب لهم أولى .

٨ - وما رواه ابن عباس أن معاذاً قال : « بعثنى رسول الله ﷺ قال : « إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » رواه الشيخان (٤) .

٩ - وما رواه أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : « يا معشر اليهود ،

(١) المسند ج ١٢ حديث ٧٠٦٨ . (٣) فى ١٨٦ / ٢ .

(٢) فى ١٧٤ / ١ . (٤) واللفظ لمسلم فى ١٩٦ / ١ ، والبخارى فى ٢٣٩ / ٢ .

ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقاً وإنى جئتكم بحق فأسلموا» قالوا : ما نعلمه ، قالوا للنبي ﷺ . قالها ثلاث مرات . . . » الحديث رواه البخارى (١) .

١٠ - وما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : بينا نحن فى المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « انطلقوا إلى يهود » فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس فقام النبي ﷺ فناداهم « يا معشر يهود ، أسلموا تسلموا » فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم ، فقال : « ذلك أريد » ، ثم قالها الثانية ، فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم ، ثم قال الثالثة .. » الحديث رواه الشيخان (٢) بيت المدراس : موضع قراءتهم التوراة .

١١ - وما رواه أنس أن نبى الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر ، وإلى النجاشى ، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى ، وليس بالنجاشى الذى صلى عليه النبي ﷺ رواه مسلم (٣) .

١٢ - وقوله ﷺ لعلى - حين أرسله لقتال أهل خيبر من اليهود - : « على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم ، فوالله لأن يُهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم » رواه الشيخان (٤) .

١٣ - وقوله ﷺ فى كتابه إلى هرقل : « أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم ، وأسلم يوتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك اسم الأريسيين (٥) » الحديث رواه الشيخان عن ابن عباس عن أبى سفيان (٦) .

١٤ - وما رواه أنس رضى الله عنه قال : كان غلام يهودى يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له : « أسلم فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له : أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم . فخرج النبي ﷺ وهو يقول : « الحمد لله الذى أنقذه من النار » رواه البخارى (٧) .

(١) فى ٥ / ١٦٢ .

(٥) الفلاحين .

(٢) للؤلؤ والمرجان ٢ / ٢١٤ .

(٦) اللؤلؤ والمرجان ٢ / ٢٢١ .

(٣) فى ١٢ / ١١٢ .

(٧) فى ٢ / ١٩٨ .

(٤) اللؤلؤ ٣ / ١٣٢ ، وحمر النعم : أحسنها .

١٥ — وما قاله ابن هشام^(١) : « فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه ، وكتب معهم كتاباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام :

فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس ، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية ، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعباد ابني الجلندي الأزديين ملكي عمان ، وبعث سليط بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي إلى ثمامة بن أثال ، وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة ، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين ، وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام ، وبعث شجاع بن وهب إلى جبلة بن الأيهم الغساني ، وبعث المهاجر بن أبي أمية الخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن . »

١٦ — وما جاء في ابن هشام أيضاً أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه فقال لهم : « إن الله بعثني رحمة وكافة ، فأدوا عني يرحمكم الله ، ولا تختلفوا علي كما اختلف الخواريون على عيسى بن مريم »^(٢) .

ولهذا قال ابن كثير^(٣) : « وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ ، بعث كتاباً يدعو إلى الله ملوك الآفاق ، وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم ، كتابيهم وأمهم امتثالاً لأمر الله له بذلك . . . »

وهكذا : تتابعت الآيات وتوالت البيئات على أن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ ، وأنزل عليه القرآن الكريم هدى ورحمة للعالمين : جنأ أو إنساً ، عرباً أو عجماً ، أهل كتاب أو لا ، الموجودين منهم حين البعثة ، ومن سيوجد إلى يوم الدين وعلى أن الشريعة المحمدية ناسخة لجميع ما تقدمها من الشرائع السماوية ، إذ لا معنى لعموم بعثته ﷺ ، وتنزيل القرآن الكريم هدى للعالمين إلى يوم الدين

(١) في سيرته ٤ / ١٨٨ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) في تفسيره ١ / ٣٥٤ .

إلا نسخ الشريعة المحمدية لجميع الشرائع السابقة وقد صار ذلك معلوماً من دين الإسلام بالضرورة ، فمنكره كافر ومخذ في النار ، وبئس القرار .

وقد مر بك ستون نصاً قطعي الثبوت والدلالة على شمول الرسالة المحمدية لأهل الكتاب ، منها سبعة وعشرون نصاً على شمولها للعالمين ولجميع البشر ، وهم منهم ، وثلاثة وثلاثون نصاً موجهاً لأهل الكتاب رأساً على أُنَى تركت نصوصاً أكثر من التي ذكرتها خشية الإطالة ، فمن لم يقتنع بما ذكرت فهو مكابر في الحق مجادل بالباطل .

فدعوى اليهود والنصارى عدم نسخ شريعة القرآن لشريعتهم أمام هذه النصوص القاطعة والمتواترة دعوى باطلة ، وصدق الله : ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ (١) .

وما دفع أهل الكتاب إلى ذلك إلا حقدهم وحسدهم للنبي ﷺ ليصلوا بذلك إلى نفى نبوته وإنكار رسالته كما سبق ، وحرصاً على جاههم وحظوظهم في هذه الحياة ، وقد حكى الله ذلك عنهم في آيات كثيرة سبق بعضها ويأتي الكثير منها ، وما يؤكد ذلك من السنة المحمدية والسيرة النبوية .

على أن وقائع التاريخ في ماضيه وحاضره ناطقة بذلك . والمعركة بين الإسلام وأهل الكتاب وأشياعهم تدور رحاها في هذا الوادي ، وادى الحقد والحسد منذ البعثة المحمدية حتى الآن ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (٢) .

أفلا يروعى هؤلاء القوم بعد تلك البراهين الساطعة والأدلة القاطعة المتواترة بعموم الرسالة المحمدية ونسخها لجميع الشرائع السماوية ويقنعوا عن غيهم وعنادهم ، وعن حقدهم وحسدهم ، وحرصهم على مظاهر الحياة ، ويخشوا أن ينفذ الله فيهم تهديده ، وينزل بهم وعيده ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً ﴾ (٣) .

(٣) النساء ٤٧ .

(١) آل عمران ٨٥ .

(٢) التوبة ٣٢ .

المبحث السابع

دحض بعض أباطيل البابا شنودة

أما قول البابا شنودة : « من المحال أن يكون ناسخاً لهما — أى للتوراة والإنجيل — وفي نفس الوقت يدعو إلى الإيمان بهما ، ويجذر من إهمال ذلك » .
فجوابه أننا نؤمن بأن شريعة القرآن قد نسخت شريعة التوراة والإنجيل ، وكل الشرائع السابقة كما سبق في النصوص الكثيرة المتواترة القطعية الدلالة والثبوت التي تقدمت ، ومع ذلك نؤمن إيماناً جازماً بأنها نزلت من عند الله على رسوله ، ثم نسخت أحكامها ، فالإيمان بنسخ شريعة لا يتعارض مع الإيمان بنزولها من عند الله ، ثم بنسخها بعد استفاد أغراضها .

والقرآن مصدق لما جاء من عند الله من الكتب السابقة ، ولكنه غير مصدق لما حرف منها أو بدل ، فمن المستحيل أن يكون القرآن مصدقاً لما يدعيه النصارى من أن عيسى عليه السلام هو الله ، وهو القائل : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ (١) ومن المستحيل أن يكون مصدقاً لتركيب الإله من ثلاثة أقانيم ، وهو القائل : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ﴾ (٢) .

ومن المستحيل أن يكون مصدقاً بأن عيسى عليه السلام ابن الله على الحقيقة كما يدعي النصارى ، وهو القائل — موبخاً لليهود والنصارى : ﴿ وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون (٣) قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أى يؤفكون ﴾ (٤) .

(٣) يشابهون .

(٤) التوبة ٣٠ .

(١) المائة ٧٢ .

(٢) المائة ٧٣ .

وأما زعم المسيحيين «أن الدين الناسخ لما قبله إنما هو المسيحية ، فيجب أن تنفرد بالبقاء والسيادة » فهذا زعم واضح البطلان . ومكابرة في الحق داحضة بما تقدم من الآيات والأحاديث النبوية المتواترة ، ولأن خصوص رسالة عيسى — عليه السلام — وعدم عالميتها منصوص عليه في القرآن والإنجيل — إن كانوا يؤمنون بما فيهما — في آيات كثيرة منها :

١ — قوله تعالى — عن عيسى عليه السلام — : ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل ﴾ (١) .

٢ — وقوله تعالى : ﴿ وإذا قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾ (٢) .

٣ — وقول المسيح — عليه السلام — في إنجيل متى ١٥ « ٢٤ » : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » .

٤ — وقوله لتلاميذه في نفس هذا الإنجيل ١٠ « ٥ ، ٦ » : « إلى طريق أم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » .

(١) آل عمران ٤٩ .

(٢) الصف ٦ .

المبحث الثامن

البراهين العقلية والعلمية

على عالمية الرسالة المحمدية ونسخها لغيرها

تقوم البراهين العقلية الساطعة ، والأدلة العلمية القاطعة التي لا تحصى ولا تعد على أن الإسلام هو الدين العالمى الخالد ، والناسخ لغيره من الشرائع ، فمن ذلك :

١ — أنه من المقطوع به أن القرآن معجز في مبناه ومعناه ، في أسلوبه وهدهاء لجميع الثقلين على امتداد الزمان والمكان . وذلك برهان عالميته وخلوده ونسخه لغيره ، وإلا فلا معنى لتحديه للإنس والجن على امتداد الزمان ، واختلاف المكان .

أما أنه معجز في مبناه فيكفى للتدليل على ذلك أنه أعجز العرب ، فلم يتصدوا لمعارضته مع كثرتهم وشدة عنادهم له ، ووصولهم إلى القمة في الفصاحة والبلاغة والأدب ، واشتبارهم بذلك . وتكاتفهم ضده ، وحرصهم على معارضته .

وأنه أعجز بالعرب غير العرب في ذلك ، وبقي في فم الدنيا وعلى مسرح الحياة ينادى العالم كله إنسه وجنه أن يأتوا ولو بسورة من مثله ، فلم يفعلوا ولن يفعلوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

ولنستمع إليه ، وهو يتحدى معارضيه ، في قوة واستفزاز ، وتحريض على بذل نهاية الجهد ، والطاقة في معارضته وتحديه — فيقول : ﴿ وإن كنتم في ريب

مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم^(١) من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿٢﴾ .

ومن الإعجاز في الآية الإخبار عن الغيب — وهو عجزهم وعدم قدرتهم على المعارضة — إخبار المتمكن مما يقول ويتحدى بقوله ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ فإنهم لم يفعلوا ولو فعلوا لظهر واشتهر ؛ لأن الطاعين في القرآن كانوا — ولا يزالون — أكثر من المدافعين عنه ، ولو كان هناك أدنى شك في عدم نجاح التحدى ما دعاهم إلى المعارضة مخافة أن يظهر معارض يبطل تحدى القرآن .

وحيث كان التحدى بالقرآن تحدياً للإنس والجن وعلى امتداد الزمان والمكان فإن لا رم لهذا التحدى أن يكون للإنس والجن مطالبين جميعاً بما يدعو إليه الرسول محمد ﷺ الذي بيده معجزة القرآن ، فمن استجاب لدعوته فهو من المؤمنين ، ومن أبى فهو من الكافرين .

بذلك وبآلاف الأدلة وراء ذلك ثبت أن معجزة القرآن حق ، وأنها عالمية وخالدة كما قال تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾^(٣) لأن التحدى صدر للعالم كله إنسه وجنه على مدى الدهور والعصور ، بخلاف معجزات الرسل السابقين ، فقد كانت خاصة بأقوامهم ، وانتهت بانتهائهم ، ولم يعد لها أثر بعدهم وتحقق أن هذا القرآن مصون عن الشك ، فلا ريب فيه ، ولا يأتيه الباطل من أية ناحية من نواحيه ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾^(٤) .

وثبت أن الإسلام ناسخ لغيره كما جاء في القرآن المتحدى به ﴿ ومن يتنغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾^(٥) .

وثبت أن محمداً حق ، وأنه جاء بالحق ، ودعا إلى الحق ، وثبت على الحق حتى آتاه اليقين ، وما أروع قول رب العالمين ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل

(١) نصرء كم .
(٢) البقرة ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) أول الفرقان .
(٤) البقرة ٢ .
(٥) آل عمران ٨٥ .

وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴿١﴾ .

وأما أنه معجز في معناه وهداه فإن عقائده مؤيدة بالبرهان ، ويتقبلها الجنان ، ويطمئن لها الوجدان ، وتقضى على عبادة الإنسان للإنسان . فضلاً عن عبادة الشيطان والأوثان . وعباداته تزكى النفوس ، وتصفى القلوب ، وتطهر من الآثام ، وتنشر المودة والمحبة بين المسلمين ، وتجعل المؤمن للمؤمن كالبنيان يشيد بعضه بعضاً ، فلا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله .

وآدابه تغرس في النفوس ملكات الفضائل ، وتطبع فيها كريم الأخلاق . ومحاسن الصفات ، وتتوثق بها عرى المجتمع ، وتفرض المساواة بين جميع الناس في الحق ، لا فرق بين حر وعبد ، وغنى وفقير ، وأمير ومأمور ، وتمنع الإكراه في الدين ، والتعالى على المؤمنين .

ومبادئه الأساسية تدعو إلى العلم واحترام العقل ، وحرية الإرادة والفهم ، والعمل للدين والآخرة ، وتصون الدين والأنفس والأعراض والأموال .

وتشريعه السياسى والقضائى يجمع بين العدل والرحمة وإخضاع العباد للتشريع الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجعل التقنين فى السياسة لأولى الأمر من الأمة ، فى ضوء الكتاب والسنة ، وما وضعه من القواعد العامة ، والنظم الشاملة ، والأسس الكاملة . وأن تاريخ البشرية لم يعرف كتاباً ألف بين أمة مشتتة شيعاً وأحزاباً ، ومذاهب وأدياناً ، وقبائل وعشائر ، تعيش على السلب والنهب ، ومحاربة القوى للضعيف ، ولا تخضع لسلطان أحد مهما كان ، فألف بينها ، وجمع شتاتها على أسباب القوة ومعانى الخير والعزة ، وجعلها خير أمة أخرجت للناس فى أسرع وقت عرف فى تاريخ أمة كما فعل القرآن الكريم فى الأمة العربية .

لقد نقلها من الضلالة إلى الهدى ، ومن البداوة إلى الحضارة ، ومن الجهالة إلى العلم ، ومن الانطلاق مع الهوى إلى الخضوع لتعاليم الله وحكمه ، ومن التفرق والمحاربة والشقاق إلى التآلف والاتحاد والوفاق ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الذل إلى العزة ، ومن التخاذل إلى التناصر ، ومن الحرب فى سبيل الشيطان إلى الجهاد فى سبيل الرحمن ، وما أصدق قوله تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى

الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم^(١) ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴿٢﴾ .

ومن إعجاز معناه الإعجاز العلمي ، ويكفى للتدليل عليه أن العقل الإنساني مهما بلغ من الرقي والتقدم ، ومهما حصل من العلوم والحقائق السماوية والأرضية لم يستطع ولن يستطيع أن ينقض من حقائقه شيئاً مهما صغر ، أو يتعارض ما وصل إليه مع ما جاء به ، لأن الذي أنزله هو واضع نواميس هذا الكون وسننه ، ويعلم كل الأسرار والحكم ، كما قال تعالى : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾^(٣) .

فمن المحال أن يتعارض قوله سبحانه مع علمه أو يتناقض كلامه مع تكوينه وصنعه ، ولأن التحدى بالقرآن أسلوباً وهداية وعلماً قائم ولا يزال قائماً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وصدق الله : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾^(٤) .

ومأصدق ما قاله فضيلة الأستاذ نديم الجسر مفتي لبنان الشمالي^(٥) : إن إعجاز القرآن لا يقوم على بلاغته فحسب كما يظن البعض ، ولكن يقوم أيضاً على ما فيه من آيات معجزات تحمل لعلماء الطبيعة أسراراً من حقائق الطبيعة ، ولعلماء الاجتماع أسراراً من نواميس المجتمع ، ولل فلاسفة أسراراً من حقائق الوجود ، ولعلماء التاريخ أسراراً من حقائق التاريخ . وللعلماء أسراراً من جواهر الحكمة ، ولعلماء الأخلاق أسراراً من دقائق الأخلاق ، ولعلماء النفس أسراراً من قواعد علم النفس ، ولعلماء التربية أسراراً من أساليب التربية .

وسر الإعجاز في تلك الآيات أنها نزلت على رسول الله محمد النبي الأمي ، وليد البيئة الأمية قبل قرون طويلة من انكشاف أسرار العلم التي وصلنا إليها اليوم ١٠ هـ .

(١) يظهرهم من أدناس الجاهلية .

(٢) الجمعة ٢ .

(٣) الفرقان ٦ .

(٤) فصلت ٤٢ .

(٥) في بحثه « القرآن في التربية الإسلامية » ، المقدم للمؤتمر الثالث ص ٣٣ .

فكتاب عالمي المعجزات خالدها يقطع البرهان بعالميته ونسخه لغيره ، وبقائه بقاء الأرض والسموات . وإلا فلا معنى لخلود معجزاته وحياتها ، وموت معجزات غيره واختفائها .

٢ — تحقق بالبراهين العقلية ، والأدلة العلمية اليقينية إعجاز القرآن الكريم لجميع العالمين ، وما تحقق بالبرهان العقلي واليقين العلمي فهو الثابت ثبات الحق والخالد لخلود الدهر ، وهو كتاب العالمين والناسخ لغيره من كتب السابقين .

٣ — ثبت بالأدلة العقلية القاطعة ، والبراهين العلمية الساطعة إعجاز القرآن الكريم وأنه كلام رب العالمين ، فوجب قبول كل ما جاء فيه ، ومما جاء فيه أن الله نزله للعالمين ونسبوع به ملل السابقين .

٤ — من المعلوم بالضرورة في سائر الشرائع والقوانين السماوية والأرضية أن المتأخر هو الذي يكون عاماً وشاملاً وناسخاً للمتقدم ، وليس العكس ، فالكتاب العالمي الخالد الناسخ لغيره هو القرآن الكريم وليس التوراة أو الإنجيل .

٥ — إن الكتاب العالمي الخالد الناسخ لغيره لا بد أن تكون معجزته معه لا تفارقه ، وأن تكون عالمية وخالدة مثله حتى يستطيع كل إنسان في أى مكان وزمان أن يجدها إذا طلبها وأن ينظر فيها بنفسه ، ويرجع في أمرها إلى عقله ، فيجد فيها البرهان القائم على صدق الرسول ، وصدق ما يدعو إليه ، وتلزمه وتلزم الناس جميعاً في أى مكان وزمان الإيمان بهذا الكتاب .

ولم يتحقق ذلك إلا للقرآن الكريم . فهو الكتاب الوحيد الذى معه برهان إعجازه وعالميته وخلوده ، ونسخه لغيره .

٦ — إن الرسائل السماوية السابقة على رسالة الإسلام جاءت في تقدير الله لأمد محدود بدليل تتابع الرسل وتواليهم حتى ختموا برسالة محمد ﷺ ، فلم تشمل على كل مطالب الحياة المتجددة أبداً ، أما رسالة محمد ﷺ ، فهي الصورة الأخيرة الشاملة والكاملة والصالحة حتى نهاية الزمان .

فأى الرسائل أحق بالعالمية والخلود ؟ وأى كتاب أحق بنسخه لغيره ؟ الكتاب الذى لم يأت كتاب سابق بمثله في بيان أصول العقائد وقواعد الدين ، وقوانين الشرائع وسياسة الشعوب والقبائل ، وسنن الاجتماع ونواميس العمران ، وطبائع

الشعوب والأقوام على مدى القرون والأزمان ، مع إيراد الشواهد وضرب الأمثال ، أم الكتاب الذى اقتصر على منهج واحد لقوم بأعيانهم ولفترة معينة ؟ .

٧ — بينما كان المسيح — عليه السلام — أثناء رسالته فرداً من أفراد المجتمع الإسرائيلى الخاضع للدولة الرومانية مجرداً من أية صفة وسلطة فعالة فى النظام السياسى القائم ، وكان دينه دعوة للأمر الروحية والأخلاقية ، وللسلوك الفردى كان رسولنا محمد ﷺ إماماً دينياً ، وقائداً عسكرياً ، ومهيماً على كل شئون أمتة السياسية والاجتماعية والمالية ، وكان دينه كاملاً ، وكتابه دستوراً شاملاً لكل ما تحتاج إليه الأمة من مبادئ وتشريعات ، ومسيراً للحياة فى شتى عصورها ومواطنها المختلفة .

وشريعته تحيط تفصيلاً بكل شأن من شئون الأمة ، وبكل منهج من مناهجها ولا يحتاج كتابه على مر العصور وكر الدهور إلى بيان من غيره كالكتب السابقة ، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وإنه هدى ورحمة للمؤمنين ﴾ (٢) .

٨ — إن من أهم أركان الإيمان فى الإسلام الإيمان بجميع كتب الله ورسله بلا تفرقة بين أحد منهم ، قال تعالى خطاباً لأمة محمد ﷺ ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ (٣) وقال : ﴿ وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ (٥) .

واليهود لا يؤمنون بعيسى ومحمد وكتابه ، ويجرحون عيسى وأمه — عليهما السلام — ويقولون عليهما بهتاناً عظيماً ، والنصارى ينكرون نبوة محمد ﷺ وكتابه ، ويقولون إن دينه مفترى (٦) كما سبق بيانه .

- (١) النحل ٨٩ . (٤) العنكبوت ٤٦ .
(٢) اهل ٧٦ ، ٧٧ . (٥) البقرة ٢٨٥ .
(٣) آل عمران ٢١٩ . (٦) ينظر تفسير ابن كثير ١ / ٥٧٢ .

فأى دين أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيره ؟ دين من يؤمنون بجميع كتب الله ورسله بلا تفرقة بين الجميع ؟ أم دين من يؤمنون ببعض كتب الله ورسله ، ويكفرون بالبعض الآخر ؟ .

- إن هؤلاء لا دين لهم حتى يقارن بغيره ، بل هم الكافرون حقاً كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ﴾ أولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴿ (١) .

قال ابن كثير (٢) : أى كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به لأنه ليس شرعياً إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره وبمن أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه أو نظروا حق النظر في نبوته .

٩ - أى الكتب أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيرها ؟ القرآن الكريم الذى يمجّد جميع رسل الله ويرفعهم إلى القمة فى الفضل والكمال الإنسانى والقدوة الحسنة ، ويأمرنا بالاعتداء بهم ، فيقول تعالى - بعد ذكر أسمائهم وما حباهم الله به من فضل - : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (٣) ؟ .

أم التوراة التى تحكى أن ابنتى لوط سقتا أباهما خمرأ حتى غاب ، واضطجعت كل منهما معه فى ليلة لتحمل منه ، فحملت كل منهما من أبيها ، وهو لا يعلم باضطجاعها ولا بقيامها (٤) ؟ .

١٠ - أى الكتب أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيرها ؟ القرآن الكريم الذى يدعو إلى التوحيد الخالص ، ويذكر عن كتب الله السابقة ورسله أنهم ما أرسلوا إلا ليدعوا أقوامهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؟ أم التوراة التى تحكى عن هارون - عليه السلام - أنه صنع لبنى إسرائيل عجلاً جسداً من ذهب على أنه الإله المعبود (٥) ؟ .

١١ - أى الكتب أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيرها ؟ القرآن الكريم

(٤) تكوين ١٩ ، ٣٦ / ٣٠ .

(٥) خروج ٣٢ ، ١ : ٦ .

(١) النساء ١٥٠ ، ١٥١ .

(٢) فى تفسيره ١ / ٥٧٢ .

(٣) الأنعام ٩٠ .

الذى يقول عن الله: ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾^(١) ويقول: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾^(٢) أم إنجيل يوحنا الذى جاء فيه « أنا والآب واحد »^(٣).

١٢ — أى الأديان أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيرها: الدين الإسلامى الذى جاء فى كتابه: ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾^(٤) ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾^(٥) أم الدين المسيحى الذى من أركان الإيمان فيه ما يردده المسيحيون داخل الكنائس خلف القسوس « نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور. إله حق. من إله حق. مولود غير مخلوق. مساو الآب فى الجوهر. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان »^(٦).

١٣ — أى الكتب أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيرها: القرآن الكريم الذى لا اختلاف فيه ولا تناقض فى معانيه، بل يصدق بعضه بعضاً كما قال تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾^(٧) أم الإنجيل الملىء بالاختلاف والتناقض، ففى إنجيل متى — وهو عمدة الأنجيل الأربعة ١٦، ١٩ : ٢٠. يقول السيد المسيح لبطرس أحد الخواريين الإثنى عشر: « وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء وكل ما تحمله على الأرض يكون محلولاً فى السموات » ثم يقول فى نفس الإصحاح ٢٣ لبطرس: « اذهب عنى يا شيطان أنت معثرة لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » فكيف يرفع السيد المسيح حواريه بطرس إلى أعلى عليين، ثم يلقي به فى منازل الشياطين فى أسفل سافلين؟

١٤ — إن تشريع القرآن تشريع محفوظ كما أن صاحبه صلوات الله عليه معصوم فيما يبلغه عن الله، وكما كانت أمته فيما اجتمعت عليه معصومة، ولا يستطيع أن ينكر ذلك أحد عنده ذرة من عقل.

وحيث كان الأمر كذلك كان تشريع القرآن هو العالمى الخالد والناسخ لغيره

(٥) الأعراف ٥٤ .

(٦) الله واحد أم ثالث للأستاذ محمد مجدى مرجان ٢٥ .

(٧) النساء ٨٢ .

(١) الأنعام ١٨ .

(٢) الشورى ١١ .

(٣) ٣٠ / ١٠٥ .

(٤) الإخلاص .

من الشرائع بخلاف غيره من الكتب والتشريعات التي حرف بعضها ، ونسى معظمها ، وطمست معالمها .

١٥ — إن القرآن الكريم يعلل أحكامه وتشريعاته بمصالح العباد ، ويسير مع منافعهم حيثما سارت وأنى وجدت ، فلا ضرر في تشريعاته ولا ضرار ، ولا عسر ولا حرج ولذا سمى المسلمون التشريع الإسلامى — مند فجر حياتهم — بالسياسة الشرعية ، ومفهوم السياسة هو المرونة والسير مع المصالح المرسله ومراعاة العرف والمكان والزمان كما يأتي تفصيله .

وما كان كذلك كان متمشياً مع فطر الناس ومناسباً للتطور ، وصالحاً لجميع الأقسام في جميع الأزمان والأمصار ، وكان هو العالمى الخالد والناسخ لغيره من الشرائع الجامدة على شىء معين ، والواقفة عند أمر لا تتعداه .

١٦ — ثبت بالأحاديث الصحيحة المسندة التي تقدمت في هذا الفصل أن الرسول محمداً ﷺ دعا جميع الملوك والحكام إلى الإسلام ، وقال لأصحابه : إن الله بعثنى رحمة وكافة فأدوا عنى يرحمكم الله . ولم يثبت أن عيسى — عليه السلام — دعا إلى دينه غير الإسرائيليين . فأى الدينين أحق بالعالية والخلود والنسخ لغيره ، الإسلام أم المسيحية ؟ .

١٧ — إن تشريع القرآن يسير مع العقل ، فلا يحكم إلا بما يقره ، ولا يدعو إلا لما يوافقه ولا يأمر إلا بما يستحسنه ، ولا ينهى إلا عما يستقبحه ولا يحل إلا ما يقبله ولا يحرم إلا ما يستخبثه ولا يكلف إلا ما يجوزه ، وما سار مع العقل فهو الثابت ثبات الحق والخالد خلود الدهر ، فيقول تعالى — متحاكماً إلى العقل — : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ (١) ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ (٢) .

ويقول — محتجاً على بطلان عبادة غير الله بالأدلة العقلية التي تقبلها الفطر السليمة والعقول القويمة : ﴿ وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ﴾ . أأخذ

(١) الرحمن ٦٠ . (٢) ص ٢٨ .

من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون * إني إذا لفى ضلال مبین ﴿١﴾ .

ويقول تعالى — ضارباً لهم مثلاً من عقولهم يدل على قبح عبادتهم لغير الله ، ومبيناً أن ذلك مستقر قبحه وفساده في كل عقل : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴿٢﴾ وهل في العقل أقبح وأنكر من عبادة من لو اجتمعوا كلهم لم يخلقوا ذباباً وهو أضعف المخلوقات شأنًا .

ويقول تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم ﴿٣﴾ والأغلال ﴿٤﴾ التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ﴿٥﴾ ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴿٦﴾ .

فقد ذكر الله في هذه الآية أن النبي الأمي يأمر أتباعه بالشيء المعروف حسنه لكونه معروفاً خيره وفضله عند العقل ، وينهاهم عن الشيء المنكر لكونه منكراً فعله وأثره لدى العقل ، ويحل لهم الطيبات لأن العقول تقبلها ، والنفوس تستسيغها ، ويحرم عليهم الخبائث لأن العقول لا تقبلها والنفوس تعافها ، ويضع عنهم ما يشق عليهم القيام به .

وهكذا ما أمر الله في هذه الآية إلا بما هو معروف حسنه في نفسه بالخير فكساه الأمر الإلهي خيراً على خير ، وما نهى الله عن المنكر إلا لكونه مستقبحاً في نفسه وزاده النهي قبحاً على قبح ، وما أحل إلا ما هو طيب في نفسه فكساه الإحلال طيباً على طيبه فصار طيباً من وجهين : الذاتية والإحلالية ، وما حرم إلا ما هو خبيث فصار خبيثاً من وجهين كذلك ، الذاتية والتحريرية . وقال تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير

(٤) التكليف الشاق في التوراة .

(٥) وقروه وعظموه .

(٦) الأعراف ١٥٧ .

(١) يس ٢٢ : ٢٤ .

(٢) الحج ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) عهدهم بالقيام بأعمال ثقال .

الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿١﴾ فهذه الأمور التي حرّمها الله فواحش في نفسها لا تستحسنها العقول فتعلق التحريم بها لفحشها ، فإن تعلق الحكم على الوصف المناسب المشتق يدل على أنه هو العلة المقتضية له ، وهذا دليل قائم في جميع الآيات المذكورة ، فدل على أن الله حرم الفواحش لأنها فواحش ، وحرّم الخبيث لكونه خبيثاً وأمر بالمعروف لكونه معروفاً ، ونهى عن المنكر لكونه منكراً ، ولم يفعل شيئاً من ذلك عبثاً ، لا لحكمة .

وتحريم الإثم والبعث دليل على أن هذا الوصف ثابت له قبل التحريم ، وتحريم الشرك بلا حجة دليل على بطلانه ، وتحريم القول على الله بلا علم دليل على نهاية قبحه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ﴾ (٢) .

فنبى الله عن نكاح زوجة الأب معللاً بأنه شديد القبح ، ومبغوض مستحقر جداً وسىء السبيل ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ (٣) .

فأى الكتب أحق بالعالمية والخلود والنسخ لغيره ؟ القرآن الكريم الذى نزله الله على خاتم رسله بعد أن بلغ عقل الإنسانية فى التطور والتكامل الحد الذى تعتمد عليه فى معرفة الحق والخير . ومكارم الأخلاق . والذى جعل الله تشريعه يسير مع العقل الذى منحه السلطان الأعلى فى فهم النصوص واستنباط الأحكام فى كل قضية من قضايا الدين من أدناها إلى أعلاها وجعل حكمه مقدماً على ظاهر النص عند التعارض أم غيره من الكتب التى تجعل النص مقدماً على مقتضيات العقل وحاكماً عليه ؟ .

وهكذا قامت البراهين العقلية الساطعة والأدلة العلمية القاطعة على عالمية الرسالة المحمدية ، ونسخها لغيرها من الشرائع السماوية ، وفى ذلك إقناع لمقتنع . وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

(١) الأعراف ٣٣ . (٢) النساء ٢٢ . (٣) الإسراء ٣٢ .

المبحث التاسع

دحض افتراءات البابا شنودة

حول إعجاز القرآن وخلوده

يدعى النصارى أن القرآن الكريم قد وضعهم في مركز الإفتاء للرسول ﷺ في الدين الإسلامي .

ففى الرسالة المطبوعة بعنوان « بين القرآن والمسيحية » قال البابا شنودة فى ص ٤ منها :

ولم يقتصر القرآن على الأمر بحسن مجادلة أهل الكتاب ، بل أكثر من هذا : وضع القرآن النصارى فى مركز الإفتاء فى الدين؛ فقال :

﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾ سورة يونس ٩٤ .

وقال أيضاً : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ سورة الأنبياء ٧ .

وللرد على ذلك أقول :

لقد جوز البابا شنودة على الرسول ﷺ الشك فى دينه ، وجعل الذى يزيل شكه ويشفيه منه هم جماعة النصارى ، كما جوز أن يكون القرآن غير واف بشئون المسلمين وإن البابا شنودة بهذا قد جاء بكبرى الكباثر ، وجريمة الجرائم ، حيث ادعى أن نبينا محمداً ﷺ كان يتلقى دينه عن الله ، وعن جماعة أهل الكتاب ، وأن أهل الكتاب كانوا له بمثابة دار الإفتاء ومجلس التشريع الذى يسانده

ويفتيه فيما يحتاج إليه من أمور الدين ومعضلاته وعويص مسائله ومشكلاته وشئون المسلمين وأحوالهم ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ (١).

ثم تأمل قوله تجده يتعصب للنصارى والآية لم تذكرهم ، وإنما ذكرت الذين يقرعون الكتاب ، أليس في ذلك دليل على التعصب والانزلاق في هاوية الضلال ؟ .

الحقائق الدامغة لما يدعيه

قبل التعرض للآيتين اللتين جاء بهما ظاناً أن فيهما دليلاً على مدعاه أسوق الحقائق الدامغة لما يدعيه والقاطعة بأن الرسول ﷺ لم يستفت أحدًا من أهل الكتاب في أمر من دينه ، فقد كان على بينة من ربه ، ويقين من أمره فأقول :

١ — إن الله لا يختار رسله ارتجالاً ، وإنما يختارهم على علم بأهليتهم للرسالة والقيام بأعبائها ، كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (٢) فهم في الذروة علماً بشئون الرسالة ، ودينياً وخلقاً ، وكلاً في جميع نواحيهم .

٢ — رسل الله — صلوات الله وسلامه عليهم — معصومون من التلبس بأى أمر يتنافى مع قداسة الرسالة ، لأنهم القدوة الحسنة والمثل العليا لأمتهم .

٣ — رسل الله يتلقون أمور دينهم ، وما يبلغونه لأمتهم عن الله وحده ، ولا يتلقون شيئاً من ذلك عن أحد من البشر .

٤ — من المقطوع به أن ما يوحيه الله إليهم يعلمون علماً ضرورياً أنه صادر عن الله سبحانه ولا يتطرق إليهم أى ريب في ذلك ويبلغونه لأمتهم كما أوحاه الله إليهم .

٥ — ومن المقطوع به كذلك أن الرسول ﷺ لم يستفت أحدًا من أهل الكتاب في شئون دينه وإنما كان يتلقى تعليماته عن الله وحده كما قال تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى ﴾ (٣) وهذا شأنه وشأن غيره من الرسل جميعاً قال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ (٤).

(١) النور ١٦ . (٢) الأنعام ١٢٤ . (٣) النجم ٣ : ٥ . (٤) النساء ١٦٣ .

ومن يكابر في هذا فليأتنا بدليل من كتب السيرة النبوية أو السنة المحمدية ،
يثبت أن الرسول ﷺ استفتى أهل الكتاب في أمر من أمور دينه كان يجمله
أو يشك فيه حتى استقاه من أهل الكتاب .

ومن الأولى بإفتاء الرسول ﷺ في شئون دينه ، جبريل الأمين — عليه
السلام — عن رب العالمين أم أهل الكتاب عن كتبهم التي نسوا كثيراً منها ،
وحرّفوا وبدلوا وغيروا فيما بقى والذين كان بعضهم يكتّم الحق بغياً وحسداً ، كما
قال تعالى : ﴿ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ (١) .

٦ — إن الرسول ﷺ لو كان شاكاً في نبوة نفسه ، أو فيما أنزل إليه من
ربه لكان شك غيره في ذلك أولى ، وهذا يوجب سقوط رسالته بالكلية .

٧ — إن الله تعالى تعهد لرسوله بجمع القرآن في قلبه وبيانه ، وألا يحتاج إلى
أحد في تشريعه وتبيانه فقال تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا
جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه ﴾ (٢) فكيف يقال بعد
هذا إنه كان يرجع إلى أهل الكتاب في شيء مما جاء فيه ، من تبيان أحكامه
أو معانيه ؟ .

٨ — إن القرآن تشريع شامل ، وكتاب كامل من جميع نواحيه ، فلا خلل
في مبانيه ولا معانيه كما قال تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى
للمتقين ﴾ (٣) أى لا ريب في كونه من عند الله ولا في إعجازه وبلاغته ، ولا في
علمه وحكمته ، ولا في شمول تشريعه ودقته ، ولا في عدالة أحكامه وكال
هدايته ، كما سبق وكما قال تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء
وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ (٤) .

فكيف يتطرق الشك إلى الرسول ﷺ في شيء مما جاء فيه ، أو يستفتى فيه
غير موحيه ، أو يقال إن أهل الكتاب كانوا مرجعاً له في شيء من مبانيه
أو معانيه ، أو مسهمين في شيء مما جاء فيه ؟ .

٩ — القرآن الكريم ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم

(٣) البقرة ٢ .

(١) البقرة ١٤٦ .

(٤) النحل ٨٩ .

(٢) القيامة ١٦ : ١٩ .

خبير ﴿١﴾ وهو معجز في جملته وتفصيله ، وهو معجزة الرسول الخالدة التي تحدى بها الإنس والجن ، ولا يزال يتلى في فم الدنيا معلناً أنه فوق مستوى العالمين : إنسهم وجنهم ، مبنى ومعنى ، وحكمة وعلماً ، وتشريعاً وتقنياً ﴿٢﴾ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴿٣﴾. فهل بعد هذا التحدى يقال : إن القرآن وضع النصارى أو غيرهم في مركز الإفتاء في الدين الإسلامى ليأتوا بما لم يأت به ؟ .

١٠ — أخبرنا الله تعالى أنه أكمل للمسلمين دينهم ، وأتم عليهم نعمته ، وختم بمحمد ﷺ رسالته ، فقال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (٣) فكيف يقال بعد هذا إن النصارى أسهموا في تكميل هذا الدين ، وشاركوا في تشريع رب العالمين ؟ ما هذا التطاول على تشريع من أحاط بكل شيء علماً ، وشمل كل شيء حكمة وفضلاً ؟ .

١١ — وأخبرنا تعالى أن القرآن مهيمن وحاكم وشاهد وأمين على غيره من الكتب السماوية وأنه مرجع لما جاء فيها ، فقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ (٤) .

فهل تريدون قلب الحقائق وطمس المعالم ، فتجعلوا أهل الكتاب مرجعاً في الدين لأمر المسلمين ؟ إن هذا هو الضلال المبين .

١٢ — أخبرنا الله سبحانه أنه نزل القرآن وتعهد بحفظه لنا حتى يكون حجة على العالمين إلى يوم الدين فقال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٥) وقال : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٦) فحفظ القرآن لنا تواتراً ، سماعاً وكتابة ، وكلما تقدم العهد ومرت العصور ازداد حفظاً على حفظ ، فأصبح مسجلاً بالأصوات ، بعد الكتابة والحفظ ويذاع على الدنيا من إذاعات القرآن الكريم في جميع أنحاء العالم .

(٤) المائدة ٤٨ .

(٥) الحجر ٩ .

(٦) فصلت ٤٢ .

(١) أول هود .

(٢) الإسراء ٨٨ .

(٣) المائدة ٣ .

وأخبرنا أنه وكل إليكم حفظ كتابكم فقال : ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ (١) فنسيتم الكثير ، وحرفتم في الباقي ، وغيرتم وبدلتم ، فأيهما أولى بالانقياد له والتحاكم إليه واستفتائه في أمور الدين ؟ .

١٣ - أخبرنا الله سبحانه أن الرسول ﷺ كان في أمور دينه وشئون رسالته على بينة من ربه فقال تعالى : ﴿ قل إني على بينة من ربي ﴾ (٢) ومن كان كذلك لا يحتاج إلى استفتاء أحد في شيء من هذا ، فكيف تجوزون عليه الشك والاستفتاء ؟ .

١٤ - أخبرنا الله أن أهل الكتاب الذين لم يسلموا يحبون لنا الشر ويكرهون لنا الخير فقال تعالى : ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ (٣) فكيف نستفتيهم في أمور ديننا ، وهم لا يفتوننا إلا بما هو شر لنا .

١٥ - كيف تريدون أن نستفتيهم في شئون ديننا وقد ثبت أنهم يعملون على تكفيرنا بغياً علينا وحسداً لنا ؟ قال تعالى : ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ (٦) أى آمنوا بالقرآن الذي أنزل على محمد واتبعه فيه المؤمنون أول النهار وصلوا معهم واكفروا في آخره لعلكم تستطيعون بهذا فتنهم بيت الريب والشك فيهم ، فيرجعوا عن دينهم .

وقال ولیم جیفورڈ بالکراف : متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يعده عنها

(٤) البقرة ١٠٩ .

(٥) آل عمران ٦٩ .

(٦) آل عمران ٧٢ .

(١) المائدة ٤٤ .

(٢) الأنعام ٥٧ .

(٣) البقرة ١٠٥ .

إلا محمد وكتابه^(١) . فقوم يعملون على تشكيكنا في ديننا وتركنا له أنستفتيهم في إزالته ؟ .

١٦ — كيف تريدون أن نستفتيهم في أمور ديننا وهم يدعون أن اللجنة لهم دون غيرهم ويدعون أن لا دين إلا دينهم ، ولا شرع إلا شرعهم ؟ ، قال تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾^(٢) وقال : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾^(٣) .

١٧ — كيف يستفتيهم ﷺ في شئون دينه ، وهم لا يرضون عنه إلا إذا اتبع ملتهم وانقاد لشريعتهم ؟ وقد حذره الله من ذلك فقال : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ﴾^(٤) وقال تعالى حاكياً قولهم : ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله ﴾^(٥) أى لا تصدقوا أحداً في أمور الدين إلا إذا كان منكم ، قل لهم يا محمد : إن الهدى هدى الله يهدى به من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه . فهل يأمره الله بعد ذلك أن يستفتيهم في أمور دينه بعد أن حذره من اتباعهم ؟ .

١٨ — وكيف نستفتيهم في أمور ديننا وهم الذين يعرفون حقيقة ديننا ورسالة نبينا . ويجحدون ذلك حسداً لنا ، ولا ينقادون لأية آية من كتابنا وقد حذر الله نبينا من اتباع أهوائهم في أى شىء أشد تحذير ، فقال تعالى : ﴿ وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾ ولئن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾^(٦) .

ويؤيد ذلك ما قالته أم المؤمنين صفية بنت حبي بن أخطب رضى الله عنها : سمعت

(٤) البقرة ١٢٠ .

(٥) آل عمران ٧٣ .

(٦) البقرة ١٤٤ ، ١٤٥ .

(١) الفارة على العالم الإسلامى ٣٧ .

(٢) البقرة ١١١ .

(٣) البقرة ١٣٥ .

عمى أبا ياسر يقول لأبي — بعد أن اجتمعا برسول الله ﷺ يوماً كاملاً بقاء في أول هجرته إلى المدينة — أهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه بنعته وصفته؟ قال: نعم والله. قال فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت. (١).

١٩ — أثبت القرآن أن أهل الكتاب قد ضلوا طريق الحق، ويريدون إضلالنا لنكون مثلهم فقال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً﴾ (٢) فكيف بعد هذا تدعون أن الله يأمرنا باستفتاء أهل الكتاب؟

٢٠ — أخبرنا الله سبحانه، أن أهل الكتاب اختلفوا في كتابهم اختلافاً بينا تبعاً لأهوائهم، وأنهم في شك شديد منه فقال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب﴾ (٣).

والمعنى: وبالله لقد أعطينا موسى التوراة فاختلف قومه من بعده في تفسيرها ومعناها اختلافاً بيناً تبعاً لأهوائهم وشهواتهم، كل يريد إخضاعها لشهواته، فاختلّفوا شيعاً وابتعد الكثير منهم عن الحق الذي جاءهم به، ولولا وعد من الله سابق بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لحل بهم في دنياهم قضاء الله وحكمه، بإهلاك المبطلين ونجاة المحقّين، كما حل بغيرهم من الأمم، وإن هؤلاء الذين ورثوا التوراة لفي شك شديد من أمر كتابهم موقع في الريب والاضطراب، وقال تعالى في شأن المسيحيين: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ (٤).

والمعنى: فاختلّف الأحزاب والجماعات من بعد موت عيسى وانقضاء أجله في الدنيا اختلافاً بيناً تبعاً لأهوائهم فقال البعض: إنه إله، وقال آخرون: إنه ابن الله، وقال غيرهم: إنه ثالث ثلاثة، فهلاك شديد للذين كفروا من مشهد يوم

(٣) هود ١١٠.

(٤) مريم ٣٧.

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ١١٩.

(٢) النساء ٤٤، ٤٥.

عظيم . فهل يصح بعد هذا الاختلاف البين والشك المريب في كتابهم أن يأمرنا الله باستفتائهم ؟ إن فاقد الشيء لا يعطيه .

٢١ - ثبت أن رؤساء اليهود أفتوا مشركى قريش بغير ما يعتقدون صحته ، جرياً وراء مصالح دنيوية ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ (١) .

فقد أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : « كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة ، حبي بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق وأبو رافع والربيع بن أبي الحقيق ، وأبو عمارة وهوذة بن قيس ، وكان سائرهم من بنى النضير ، فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار اليهود ، وأهل العلم بالكتب الأولى ، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم فقالوا : دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه ومن اتبعه . فأنزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ ملكاً عظيماً ﴾ (٢) .

معنى المفردات : الجبت : كل ما خضع له الناس من دون الله من شيطان أو ساحر ، أو كاهن . والطاغوت كل ما تكون عبادته والإيمان به سبباً للظلم والخراب عن الحق ، من مخلوق يعبد ، أو رئيس يقلد ، أو هوى يتبع ، وروى عن عمر ومجاهد أنه الشيطان .

فهل يعقل أن يأمرنا الله باستفتائهم ، وهذا ضلالهم وإضلالهم لغيرهم ؟ .

٢٢ - ثبت أن أهل الكتاب كذبوا على رسول الله ﷺ ، وكذبوا أمامه ، فقد روى البخارى عن أنس بن مالك قال : « فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله وأنتك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فى ما ليس فى ،

(١) النساء ٥١ .

(٢) لباب النقول للسيوطى ج ١ ص ٨٢ .

فأرسل نبي الله ﷺ ، فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : يا معشر اليهود ، ويلكم اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا ، وأنى جئتكم بحق فأسلموا . قالوا : ما نعلمه ، قالوا للنبي ﷺ ، قالها ثلاث مرار . قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا ذلك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشى الله ما كان ليسلم ، قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشى الله ما كان ليسلم . قال أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا حاشى الله ما كان ليسلم . قال يا ابن سلام ، اخرج عليهم ، فخرج فقال أيا معشر اليهود اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق ، فقالوا له : كذبت . فأخرجهم رسول الله ﷺ (١) .

فهل يأمر الله باستفتائهم وهذا كذبهم وافتراءهم على رسول الله ﷺ وعلى حبرهم ، وسيدهم وابن سيدهم ؟ ثم أليس من شروط المفتى العدالة ؟ والعدل هو المسلم المكلف الذكر الحر الخالى من ارتكاب كبيرة ، أو الإصرار على صغيرة ، أو فعل ما يخل بالمروءة — وبناء على ذلك علماء أهل الكتاب ليسوا أهلاً للإفتاء ، فكيف يدعون لأنفسهم هذا ؟ .

٢٣ — كيف يأمرنا القرآن باستفتاء أهل الكتاب وهم الذين جعلوه أجزاء ، فأمنوا بما يتوهمونه موافقاً لأهوائهم ، وكفروا بما سواه ، فعن ابن عباس رضى الله عنه ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ قال هم أهل الكتاب جزعوه أجزاء فأمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه (٢) .

٢٤ — كيف يأمرنا القرآن باستفتاء أهل الكتاب والرسول ﷺ يأمرنا بالأنا نصدقهم ففى البخارى (٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « كان أهل الكتاب يقرعون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا » الآية .

٢٥ — لقد نهانا رسول الله ﷺ عن سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور

(١) رواه البخارى فى ١٦٢ / ٥ فى إسلام عبد الله بن سلام .

(٢) رواه البخارى فى ١٥٣ / ٦ . (٣) ٤٨ / ٦

ديننا فقال ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل » والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا اتباعي « (١) فكيف بعد هذا تدعون أن الله أمرنا أن نستفتيكم في شعون ديننا ؟ .

٢٦ — بين الله لنا أن في القرآن ما يغنيننا عن غيره من الكتب فعن ابن جرير وابن أبي حاتم والدارمي في مسنده من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود ، فقال النبي ﷺ : « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم ، فنزلت ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ (٢) .

٢٧ — وأيضاً أصحاب النبي ﷺ ينهون عن سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور ديننا ، فعن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب ؟ وكتابكم الذى أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله (٣) تفرءونه لم يشب (٤) ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله ، وغيروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم من مسألتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم « رواه البخارى (٥) .

وأخيراً كيف يستفتيهم نبينا ﷺ في شيء وقد جعله الله مصدراً من مصادر التشريع والإفتاء فقال تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ (٦) .

(١) رواه أحمد والبخارى واللفظ له عن جابر المنار ١٠ / ٤٠٣ .

(٢) لباب النقول للسيوطى ج ٢ ص ٦٠ ، وفي البخارى ج ٩ ص ١٩٨ عن حميد بن عبد الرحمن « سمع معاوية يحدث رهطاً من قریش بالمدينة ، وذكر كعب الأبحار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب » .

(٣) أقرب نزولاً لأنه أنزل بعد التوراة والإنجيل .

(٤) لم يخلط بغيره .

(٥) في ٤ ص ١٥ ، وفي ٩ ص ١٩٩ .

(٦) النساء ٥٩ .

تتميم :

١ — ربما يقول قائل إن الرسول ﷺ سأل أهل الكتاب عن شيء في الدين ، فكيف يقال إن ذلك مستحيل ؟ .

والجواب أن الذي نعارض فيه ، ونقول باستحالته هو استفتاء الرسول ﷺ لأهل الكتاب في شيء من شؤون دينه وأمور رسالته كان يشك فيه أو يجمله ، أما سؤاله لأهل الكتاب عن شيء يتعلق بشريعتهم وتطبيقها فهذا لا ننكره فقد وقع منه ﷺ لبيان منكراتهم وأنهم يكتمون الحقائق ، فقد سأل ﷺ اليهود عن حكم الزاني والزانية عندهم اختصاراً لهم ، وبياناً لموقفهم من شريعتهم ، وأنهم لم يطبقوا تعاليم دينهم ، فالسؤال لأجلهم عن شيء يتعلق بدينهم ، لا عن شيء يتعلق بدينه يجمله أو يشك فيه كما هو الموضوع .

٢ — الإسلام وإن كان لا يكره أحداً على اعتناقه فإنه لا يرضى من أحد أن يشكك في كتابه أو يثير حوله الشبهات ، أو يتهم شريعته بالنقصان ، فيصيبه ما أصاب من قبله في سالف الأزمان .

ففي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : « كان رجل نصرانياً فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران ، فكان يكتب للنبي ﷺ فعاد نصرانياً فكان يقول : ما يدري محمد إلا ما كتبت له ، فأماته الله ، فدفنوه ، فأصبح وقد لفظته الأرض ، فقالوا : هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم ، نبشوا عن صاحبنا ، فألقوه ، فحفروا له فأعمقوا ، فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا : هذا فعل محمد وأصحابه . نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم . فألقوه فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا ، فأصبح قد لفظته الأرض . فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه » (١) .

* * *

(١) اللؤلؤ ٣ / ٢٧٢ .

بيان وإيضاح لما جاء في الآية الأولى

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

وبعد هذه المقدمات المسلمة من كل عالم وعاقل ، ولا ينكر شيئاً منها إلا مكابر أو جاهل ، وهذه المعالم النيرة على الطريق ، طريق الهدى ودين الحق . نعود إلى الجملة العزيزة التي اقتطعها من آية كريمة من القرآن العظيم ، محاولاً الاستدلال بها على هذه الجريمة المنكرة ، والفرية الشنعاء ، لترى أنها تحمل معها ما يقوض مدعاه ، وينسف مفتراه ، وأن كلا مما قبلها وما بعدها يدمغ هذا الادعاء والافتراء . وإليك الآية بتمامها ، وما قبلها وما بعدها ، ليتضح الحق في ضوئها .

قال تعالى : ﴿ ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبعوثاً صدق ورزقناهم من الطيبات ، فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ، إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون * فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

معاني المفردات : بوأنا : أنزلنا وأسكنا . مبعوثاً صدق : مكاناً صالحاً ، وإنما وصف المكان بالصدق لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق ، تقول : هذا رجل صدق ، وقدم صدق ، لأن الشيء إذا كان صالحاً يصدق الظن فيه . فلا تكونن من الممترين : فلا تكونن من الشاكين والمترددن .

والمعنى : بعد أن ذكر الله فضله على بنى إسرائيل في إنجائهم من فرعون وعذابه وإغراقه هو وجنوده في اليم ، أى الماء الكثير ، ذكر فضله عليهم في إسكانهم الأرض المباركة أرض فلسطين ، ورزقهم فيها رزقاً طيباً فقال ﴿ ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبعوثاً صدق ورزقناهم من الطيبات ﴾ .

أى وباللّٰه لقد أنزلنا بنى إسرائيل منزلاً مباركاً ، وأسكنناهم مكاناً صالحاً ، ورزقناهم فيه من الطيبات ، وأغدقنا عليهم أنواع الخيرات ، ثم ذكر أنهم لم يقابلوا نعم الله عليهم بالشكر ، ولم يتلقوا كتابه الذى أنزله إليهم بالعلم والعمل ، والانقياد لما جاء فيه ، بل اختلفوا فى دينهم أولاً إلى أحزاب وفرق يعادى بعضها بعضاً ، واختلفوا فى شأن محمد ودينه ثانياً ، وما كان اختلافهم عن شبهة أو جهالة ، بل بعد ما جاءهم العلم بحقيقة ما اختلفوا فيه .

فقال تعالى : ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ أى فما اختلفوا فى أمر دينهم إلا من بعد ما قرعوا التوراة وعلومها أحكامها ، وما اختلفوا فى أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته ، وتظاهر معجزاته ، وذلك أنهم كانوا قبل بعثته ﷺ مقرين به مجمعين عليه وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا من العرب الجاورين لهم الذين كانوا يناصبونهم العداوة والحرب ، ولما بعث ﷺ اختلفوا فيه فآمن به قليل منهم ، وكفر باقهم حسداً وبغياً ، وحرصاً على الرياسة ومظاهر الحياة ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ (١) وقوله : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ (٢) وقول هرقل لأبى سفيان بعد أن سمع منه نعت النبى ﷺ : « إن يك ما تقول فيه حقاً فإنه نبى » (٣) .

﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أى إن ربك سيحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، ويوفى كلا جزاء عمله إن خيراً فخير . وإن شرافسر — فهل يعقل أن يأمر الله رسوله بالتحاكم فى أمور دينه إلى قوم اختلفوا فى كتابهم وشرعهم إلى مذاهب تبعاً لأهوائهم وهو الذى قال له : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾ (٤) .

ثم بين الله سبحانه استحالة استفتاء الرسول ﷺ لأهل الكتاب فى أمر من

(٣) اللؤلؤ والمرجان ج ٢ ص ٢٢١ .

(١) آل عمران ١٩ .

(٤) البقرة ١٢٠ .

(٢) البينة ٤ وجاءتهم البينة : محمد (ص) بكتابه .

أمر دينه لاستحالة شكه فقال ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ
الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ .

أى فإن كنت — أيها الرسول — فى شك فرضاً وتقديراً مما أنزل إليك من
القصص التى من جملتها قصة فرعون وقومه وأخبار بنى إسرائيل فاسأل عن ذلك
الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، فإن ذلك محقق عندهم ، وثابت فى كتبهم على
نحو ما ألقينا إليك .

فقد علق سؤال علماء أهل الكتاب على كينونة الشك وحصوله من
الرسول ﷺ فيما أنزل إليه من ربه ، وحصول الشك منه فى ذلك محال ، فالمعلق
عليه ، وهو سؤال أهل الكتاب محال .

أما استحالة شكه ﷺ فللأدلة الكثيرة التى تقدمت فى المقدمات العديدة
ولأن الشك لا يخرج الرسول ﷺ من ديوان الأنبياء فقط ، بل يخرج من ديوان
المؤمنين أيضاً ، والعياذ بالله ، وأما استحالة سؤاله أهل الكتاب فلأنه معلق على
حصول الشك من الرسول وهو محال ، والمعلق على المحال محال . فصور الكلام
وظاهره تجويز حصول الشك والسؤال ، والمقصود منه نفيه على أبلغ الوجوه وأقواها .

ونظير ذلك فى الاستحالة قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ
الْعَابِدِينَ ﴾ (١) فقد علق العبادة لولد الرحمن على كينونته ووجوده ، وذلك
مستحيل ، فعبادته مستحيلة .

ويؤكد كون الشك مفروضاً فرضاً التعبير بإن ، فإنها تستعمل غالباً فيما
لا تحقق له ، بل قد تستعمل فى المستحيل عقلاً ، كقوله تعالى المتقدم ﴿ قُلْ إِنْ
كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ وقوله تعالى خطاباً لرسوله ﷺ :
﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِیَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ
وَلتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) فالشرك مستحيل عليه وعلى جميع الرسل عقلاً
وطبعاً وسمعاً (٣) ، لأن الرسالة قدوة حسنة ودرجة سامية لا يمنحها الله
إلا للكاملين من البشر فى جميع نواحيهم وصدق الله ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ یَجْعَلُ
رِسَالَتَهُ ﴾ (٤) .

(٣) لرعاية الله لهم وعصمتهم ، أنظر كتب التوحيد .

(٤) الأنعام ١٢٤ .

(١) الزخرف ٨١ .

(٢) الزمر ٦٥ .

ومعنى الآية السابقة : وتالله لقد أوحى إليك بالتوحيد ، وأوحى إلى الذين من قبلك من الرسل كذلك ، لكن أشركت — يا محمد — ليحبطن عملك وليفسدن ، ولتكونن من الذين خسروا أنفسهم وأعمالهم .

وهذا كلام على سبيل الفرض والتقدير — أى لو فرض حصول إشراك منك لكان كذا وكذا — سبق لتبليغ الرسل ، وتنفير المؤمنين من الشرك ، وإقناظ الكفرة من ترك محمد ﷺ لرسالته ، ومن مغفرة الله لمن مات منهم على شركه ، وليعلم الكل فظاعة الشرك وقبحه ، فلقد نهى عنه من يستحيل صدوره منه ، فكيف بمن يجوز له إتيانه ؟ .

وقد تستعمل في المستحيل سمعاً كما في قوله تعالى لليهود : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ (١) فإن القرآن قد جاء بأن الدار الآخرة لكل من آمن وعمل صالحاً من جميع الملل والنحل وليست لليهود وحدهم قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ﴾ (٢) فاسم الموصول للعموم .

وفي المستحيل عادة كقوله تعالى : ﴿ فإن استطعت أن تبغى نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيتهم بآية ﴾ (٣) .

وقد جرت عادة العرب أن يقدروا الشك في الشيء ليينوا عليه ما ينفي احتمال وقوعه : فيقول أحدهم لابنه : إن كنت ابني فكن كريم الخلق ، ومن ذلك قول المسيح عليه السلام مجيباً عن سؤاله إياه : ﴿ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ ﴾ قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته ﴿ (٤) فهو يعلم من نفسه أنه لم يقل ما سأله ربه عنه ، ولكنه يفرضه ليستدل عليه بأنه لو قاله لعلمه ربه منه .

وعلى هذا النمط يجرى العلماء في محاوراتهم بينهم وبين نظرائهم ، أو بينهم وبين تلامذتهم فيشككون فيما لا شك فيه عند ليينوا على ذلك أحكاماً

(٣) الأنعام ٣٥ .

(٤) المائدة ١١٦ .

(١) البقرة ٩٤ .

(٢) الكهف ١٠٧ .

أخرى ، فيقولون مثلاً : إن كانت السبعة زوجاً كانت منقسمة إلى متساوين ، أى إن كون السبعة زوجاً يستلزم ذلك ، وهذا لا يدل على أن السبعة زوج .

وهكذا ما فى الآفة . فهو يدل على أنه لو حصل الشك فرضاً لكان الواجب هو فعل كذا وكذا ، وليس فيها دليل على وقوعه ، ولا على جواز وقوعه ، بل الدليل قام على امتناع وقوعه ، بل على استحالة وقوعه كما تقدم فى المقدمات ولذا قال الإمام النسفى فى تفسيره للآفة : ﴿ فَإِن كُنْتَ فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾ . لما قدم ذكر بنى إسرائيل . وهم قراء الكتاب ووصفهم بأن العلم قد جاءهم ، لأن أمر رسول الله ﷺ مكتوب فى التوراة والإنجيل ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن ، وبصحة نبوته ﷺ ، ويبالغ فى ذلك فقال : فإن وقع لك شك فرضاً وتقديراً — وسبيل من خالجه شبهة أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى قوانين الدين ، وأدلتها ، أو بمباحثة العلماء — فسل علماء أهل الكتاب ، فإنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ، فضلاً عن غيرك ، فالمراد وصف الأخبار بالرسوخ فى العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله ﷺ ، لا ووصف رسول الله ﷺ بالشك (١) .

أقول : والمراد أيضاً إظهار حقيقة نبوته ﷺ بشهادة الأخبار حسماً هو المسطور فى كتبهم وإن لم يكن إليه حاجة أصلاً ، وإنما من باب تكثير الدلائل ، وإقامة الحججة عليهم ، وعلى من يسألهم عن محمد ﷺ وكتابه من غيرهم وزيادة لإيمان من آمن به وهكذا ثبت يقيناً أن حصول الشك لا يتصور منه ﷺ بحال من الأحوال حتى يسأل أهل الكتاب ؟ ليقينه بصحة ما أنزل إليه ، وانكشاف الحقيقة له ، واستحالة الشك عليه ، ولذا قال ﷺ : بعد نزولها : « لا أشك ولا أسأل ، بل أشهد أنه الحق » (٢) .

فدلل بكلامه هذا أنه على قوة ويقين ، وثبات قدم فيما أنزل إليه من ربه ، وأنه لا يجد الشك إلى قلبه سبيلاً . وفى البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ٢٨١ : وقال الله لنبيه ﷺ : ﴿ فَإِن كُنْتَ فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون

(١) تفسير النسفى ج ٢ ص ١٣٤ .

(٢) تفسير الفخر ٥ ص ٢٨ .

الكتاب من قبلك ﴿ قالوا : لم يشك ولم يسأل .

بل إنه ﷺ لم ينف الشك عن نفسه فقط ، بل نفاه عن نفسه وعن إخوانه المرسلين بالدليل القاطع والبرهان الساطع - فلا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل - فقال ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال : ﴿ رب أرني كيف نبئ الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي . . . ﴾ متفق عليه (١) والآية ٢٦٠ من سورة البقرة فقد نقل القسطلاني عن الزركشي : أن صاحب الأمثال السائرة ذكر أن أفعل تأتي في اللغة لنفى المعنى عن الشيئين ، نحو الشيطان خير من زيد ، أى لا خير فيهما ، وكقوله تعالى : ﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾ أى لا خير في الفريقين ، فمعنى قوله : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » أى لا شك عندنا جميعاً . قال الزركشي : وهو أحسن ما يتخرج عليه الحديث (٢) .

ثم أكد الله تعالى استحالة شكه ﷺ فيما أنزل إليه من ربه ، وسؤاله أهل الكتاب عنه فقال : ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ أى والله لقد جاءك الحق الواضح ، واليقين الساطع الذى لا ريب فيه بحقية رسالتك ، وحقية ما أنزل إليك من ربك القائم بأمرك والمتولى لجميع شأنك ، فهذه الجملة المقرونة بالقسم تقطع إرادة الشك والسؤال بالفعل من أصله ، وتؤكد استحالتكما ، وأهل الكتاب يعلمون ذلك ؟ لوجود نعتك في كتبهم قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ (٣) .

ثم أكد الله ما يثبت استحالة شكه ﷺ ، وما يثبت كونه مفروضاً فرضاً بالنبي عنه فقال ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ أى فلا تكونن من فريق الشاكين

(١) اللؤلؤ والمرجان ٣ / ١١٥ .

(٢) انظر هامش اللؤلؤ ٣ / ١١٥ وقيل المعنى لو شك إبراهيم لكننا أحق بالشك منه ، لكننا لم نشك فلا يكون منه شك - وقوله « رب أرني كيف نبئ الموتى » ظاهر السؤال أنه عن إحياء الموتى نفسه ، والحق أنه سؤال عن كيفية إحياء الموتى من غير شك منه في قدرته تعالى عليه . « قال أولم تؤمن » الاستفهام للتقرير بالإيمان ، لأنه طلب الكيفية وهو مشعر بالتصديق بالإحياء .

(٣) البقرة ١٤٦ ، ١٤٧ .

الذين يحتاجون إلى السؤال ، بل دم على الجزم واليقين الذى أنت عليه من قبل ، إذن فلا شك ولا سؤال ، ولا استفتاء ولا إفتاء فى الآية ، يا من تثير الشكوك والظنون حول عصمة الرسول الأمين ، وكتابه الكريم ، وتقدم السم فى العسل ، فقد علمت أن الآية تحمل معها أدلة بطلان ما تدعيه .

وشبيهه بالآية التى معنا قوله تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾ (١) أى فلا تكونن من الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق ، لأن عدم اعتراف بعضهم بذلك مرده إلى الحسد والجحود . وهذا النهى إنما هو أيضاً زيادة فى التوكيد وتثبيت اليقين فى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك ، وأن الحججة قائمة عليهم به فلا عذر لهم فى عدم إيمانهم بك وبكتابك المراقب والمهيمن على الكتب السابقة .

ثم زاد الله الأمر تأكيداً على تأكيد ، وتحذيراً إثر تحذير ، فدعا الرسول ﷺ إلى زيادة الثبات على الإيمان ، والعصمة من الأوزار ، فقال : ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين ﴾ أى ولا تكونن أنت ولا أحد من الذين اتبعوك من الذين يكذبون بالحجج والبيانات ، فتكون من الذين خسروا أنفسهم وأعمالهم . وفيه تعريض بأهل الكتاب-الذين جحدوا آيات الله ، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً - بأنهم من الخاسرين ونهيه ﷺ عن الشك والتكذيب بقوله تعالى ﴿ فلا تكونن من الممترين ، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين ﴾ من باب زيادة تهييجه ﷺ وإلهاب حمية إيمانه كقوله تعالى : ﴿ فلا تكونن ظهيراً للكافرين * ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ﴾ (٢) والإعلام بأن الشك والتكذيب من القبائح والمخذورية بمكان بحيث ينبغى أن ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه ، فكيف بمن يمكن اتصافه به كما سبق ، وفيه أن الممترين الشاكين فيما أنزل إلى الرسول كالمكذبين بآيات الله جحوداً بها وعناداً ، كلاهما سواء فى الخسران المذكور لحرمان الجميع من الاهتداء بها ، وما يترتب على الاهتداء من سعادة الدنيا

(١) الأنعام ١١٤ .

(٢) القصص ٨٦ ، ٨٧ .

والآخرة .

وهكذا بين الله استحالة شكه ﷺ فيما أنزل إليه من ربه ، واستحالة سؤاله أهل الكتاب في أمور دينه ، وأكد ذلك بهذه التأكيدات العديدة في هذه الآيات الكريمة . أفبعد هذا يتجرأ أحد من أهل الكتاب كالإنبا شنودة أو غيره فيقول : إن القرآن وضع النصرارى في مركز الإفتاء في الدين ؟ يا لله من هذا الهوى الذى يلعب به رؤس أصحابه ، كما يلعب الشيطان بعقول قرنائه ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون . فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إلى معكم من المنتظرين ﴾ (١) .

* * *

(١) يونس ١٠١ ، ١٠٢ .

الغرض من إنزال هذه الآية

وإذا كان الدليل قد قام على استحالة شكه ﷺ وسؤاله لأهل الكتاب عن شيء من أمور دينه ، فما الفائدة في إنزال هذه الآية ﷻ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك . . . ﷻ وظاهرها غير مراد (١) .

والجواب أنها أنزلت لأمر :

١ — ليؤكد الله بها صدق نبوة محمد ﷺ ، وصدق ما أنزل عليه من ربه ، حيث أفادت أن في كتب أهل الكتاب ما يؤيد ذلك ، وبذلك تقوم الحججة على سائر البشر .

٢ — وليؤكد بها أن أحبار أهل الكتاب على علم تام بأن محمداً رسول الله وأن القرآن منزل عليه بالحق من الله ، حيث إن قراءتهم لكتبهم ودراستهم لها قد أكسبتهم هذا العلم اليقيني ، ليؤمنوا بمحمد ﷺ ، وبما جاء به وإلا كانوا من المكذبين المكابرين الذين خسروا أنفسهم وأعمالهم كما قال تعالى في الآية التالية لها : ﴿ ولا تكونن من

(١) ذكر الكلام وعدم إرادة ظاهره كثير في كلام العرب ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته . . . ﴾ الآية ١١٦ من سورة المائدة . فالقصد من هذا الكلام ليس تبرئة عيسى عليه السلام من الشرك . فإنه برىء منه لعصته ، والله يعلم ذلك ، ويعلم أنه أهل للرسالة من قبل أن يحملها ، وإنما المقصود من هذا الكلام هو توبيخ وتقريع من اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، وإقامة الحججة عليهم بإستحقاق العذاب فحيث إنهم قد أشركوا ، وحيث أن عيسى عليه السلام لم يأمرهم بالشرك وإنما أمرهم بالتوحيد كما في الآية التالية ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ورسولهم . . . ﴾ فقد لزمهم الحججة بعبادة غير الله ، وقامت عليهم البينة بالشرك الأكبر فليذوقوا العذاب العظيم ، ومثل ذلك قوله تعالى في آية ١٧ ، ١٨ من سورة الفرقان ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا ﴾ أى حتى نسوا القرآن وكانوا هالكين ، فالخطاب موجه من الله للمعبودين من عيسى والملائكة وغيرهم ، والله يعلم براءتهم من إضلال العابدين لهم ولكن المقصود توبيخ العابدين على شركهم وإقامة الحججة عليهم في استحقاق العذاب .

الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴿٣﴾ فالآية قد أفادت أن أحبار أهل الكتاب على علم تام بصدق النبي وما أنزل عليه ، وأن عليهم أن يؤمنوا به وإلا ضلوا وأضلوا وكانوا من الخاسرين ، وهم على بينة من هذا الضلال والخسران .

٣ — وليزداد بها المؤمنون بمحمد ﷺ وكتابه من الأمين وأهل الكتاب .
إيماناً على إيمانهم واطمئناناً على ما في قلوبهم من اليقين بذلك ، فإن تكثير الدلائل من القرآن وكتب أهل الكتاب وبيان نعوته في الكتابين مما يزيد في قوة اليقين بصدق نبوته ﷺ ، وما أنزل عليه .

٤ — ولتكون فتنة وابتلاء للكافرين والذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق كما قال تعالى : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ (١) .

نحو الآية السابقة :

ونحو الآية في المراد منها قوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ (٢) .

معاني المفردات : عليها تسعة عشر ملكاً . أصحاب النار : المراد بهم هنا الملائكة الموكلون بهم تعذيب أهل جهنم . عدتهم : عددهم . فتنة : أى إمتحاناً تظهر به طبيعة الكافر . ليستيقن : ليكتسب اليقين بصدق الرسول وكتابه ،

(١) آل عمران ٧ .

(٢) المائدة ٣٠ ، ٣١ .

الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى لأنه موافق لما في دينهم . ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون : أى لا يطرأ عليهم بعد اليقين وزيادة الإيمان شك في المستقبل أبداً . جنود ربك : المخلوقات التى سخرها لما يريد ، ومنها الملائكة . وما هى : أى سقر المتقدمة فى آية ٢٦ . ذكرى : أى تذكير وتنبية .

والمعنى : ذكر الله النار فى الآيات السابقة ، ثم ذكر فى هذه الآيات أن علمنا تسعة عشر ملكاً هم خزنتها والقائمون بخدمتها ، ثم قال وما جعلنا أصحاب النار الموكل بهم تعذيب أهل جهنم إلا ملائكة ، لا بشرأ ، وهذا رد على قول أبى جهل لما سمع أن عدد حراس أهل النار تسعة عشر فقال لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، أيعجز كل عشرة منكم أن ييطشوا بواحد من هؤلاء ؟ فرد الله عليهم بقوله ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ فلا يطاقون كما تتوهمون ، وما جعلنا عددهم تسعة عشر إلا ابتلاء واختباراً للناس ، تظهر به طبيعة الكافرين وضلالهم ، فيقولون : لم كانوا تسعة عشر ، وليكتسب الذين أوتوا الكتاب — من اليهود والنصارى — اليقين بصدق الرسول ﷺ وكتابه لأنه موافق لما فى كتابهم ، فيدفعهم ذلك إلى الإيمان بما جاء به ﷺ . وليزداد الذين آمنوا بمحمد ﷺ من أهل الكتاب والأميين إيماناً على إيمانهم كيفية ، بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك ، وكيفية بانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أنزل الله ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون بمحمد ﷺ فى حقيقة ذلك ، وفى هذا تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان ، إذ هما دالان على انتفاء الارتياب فى المستقبل .

ويقول الذين فى قلوبهم مرض الشك والنفاق ، والكافرون المصررون على التكذيب — من أهل الكتاب والأميين — ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ أى ماذا أراد الله بهذا العدد العجيب وأى معنى أراد فى أن جعل الملائكة تسعة عشر ، لا عشرين ، وغرضهم إنكاره أصلاً ، وأنه ليس من عند الله ، وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص . ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ أى مثل ذلك من إضلال المنافقين والكافرين حتى قالوا ما قالوا ، وهدى المؤمنين لتصديقه ورؤية الحكمة فى ذلك ، يضل الله من يشاء من عباده وهو الذى علم منه اختيار الضلال ، ويهدى من يشاء وهو الذى علم منه اختيار الهدى .

﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكري للبشر ﴾ أى وما يعلم جنود ربك من الملائكة في قوتهم وأعوانهم إلا هو ، وما سقر إلا تذكرة وعظة للبشر ليرتدعوا عن غيهم وضلالهم ، أما حقيقتها فشيء لا يعلمه إلا الله وهكذا كان القرآن يفسر بعضه بعضاً ، ويوضح المحكم منه في آية ما تشابه في أخرى .

وأما الآية الثانية : التي يدعى بها البابا شنودة أن القرآن وضع النصارى بها في مركز الإفتاء وهي قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (١) .

فقد نزلت رداً على شبهة أثارها المشركون مكابرة وعناداً . وهي إنكار بشرية الرسل ، وقد حكاها الله عنهم في الآية الثالثة من هذه السورة فقال تعالى ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفأتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ .

والمعنى : وتحدث الذين ظلموا — وهم المشركون — بصوت منخفض قائلين : ما محمد إلا بشر مثلكم لا يفضلكم في شيء وما أتى به من القرآن ما هو إلا سحر فلا تحضروا مجلسه ، وأنتم تعلمون يقيناً أنه سحر .

قالوا ذلك ، وفاتهم أن إرسال البشر إلى عامة الناس هو الذي تقتضيه الحكمة التشريعية ، فإن النفوس تأنس إلى أمثالها .

وقد دحض الله شبهتهم هذه بقوله : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ .

والمعنى : وما أرسلنا إلى الأمم السابقة قبل إرسالك إلى أمتك — أيها النبي — إلا رجالاً نوحي إليهم بما تريد تبليغهم ، ولم نرسل ملائكة كما يريد كفار قومك ، فاسألوا — أيها الكافرون — أهل الذكر ، من المسلمين ، أو أهل الكتاب ، أو علماء الأخبار ، أو كل من يذكر بعلم وتحقيق ، إن كنتم لا تعلمون ذلك ، فستعرفون أن رسل الله جميعاً ما كانوا إلا رجالاً ، لا ملائكة .

وهذه الآية الكريمة لا دليل فيها على ما يدعيه لأمور :

(١) الأنبياء ٧ .

١ - أن أهل الذكر يحتمل أنهم أهل القرآن لأنه سمي ذكراً في آيات كثيرة ، ويحتمل أنهم أهل الكتب السابقة ، أو علماء الأخبار ، أو كل من يذكر بعلم وتحقيق (١) . والدليل متى تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

٢ - بشرية رسل الله إلى الناس معلومة بالتواتر المقطوع به حتى من مشركي قريش ، فمن ينكر منهم رسالة محمد ﷺ لأنه بشر مثلهم ، إنما ينكرها حسداً ومكابرة ، لا جهلاً ببشرية الرسل ويدل على ذلك ما يأتي :

أ - أنهم موقنون بأنهم من نسل نبي الله إسماعيل بن نبي الله إبراهيم ، وهما في عرفهم من البشر ، فهم يؤمنون بأن رسل الله إلى الناس من البشر .

ب - أن زعماء الشرك من قريش وأشدهم عداوة للنبي ﷺ كانوا يعترفون بأن محمداً صادق في دعواه الرسالة ، ولكن البغي والحسد والحرص على مظاهر الحياة هو الذي كان يمنعهم من الإيمان به فعن علي قال : قال أبو جهل للنبي ﷺ :

إنا لا نكذبك يا محمد ، ولكن نكذب ماجئت به ، فأنزل الله : ﴿ فإنيهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ (٢) .

وروى أن الأحنس بن شريق قال لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا ؟ فقال له : والله إن محمداً الصادق ، وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ، فنزلت (٣) وفي الفخر الرازي ٤ / ٣٥ : أن الحارث بن عامر من قريش قال : يا محمد والله ما كذبتنا قط ، ولكننا إن اتبعناك تتخطف من أرضنا ، فنحن لا نؤمن بك لهذا السب .

وقال النضر بن الحارث لقريش : لقد كان محمد فيكم وهو شاب صادقاً أميناً ، فلما نبت الشيب في صدغيه ، قلتم ساحر كذاب خائن ، والله

(١) انظر الفخر ج ٥ ص ٣١٢ وأبو السعود ج ٣ ص ١٧٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ١٢٩ ، والآية ٣٣ من سورة الأنعام .

(٣) تفسير الكشاف ٢ / ١٥ .

ما هو بساحر ولا كذاب ولا خائن (١) .

وحيث إن سؤال أهل الذكر عن بشرية الرسل معلق على عدم العلم ببشريتهم والرسول يعلم بالضرورة أنهم بشر ، والمسلمون أيضاً يعلمون ذلك وإلا لما أسلموا ، وثبت أن المشركين يعلمون أنهم بشر ، إذن ببشريتهم معلومة للجميع فلا سؤال ، ولا استفتاء ، ولا إفتاء أيضاً في هذه الآية .

٣ — ثبت بما لا يدع مجالاً للشك كما تقدم أن أهل الكتاب كانوا يكتُمون الحق وهم يعلمونه بغياً وحسداً للرسول وصحبه ، فهم إذن ليسوا أهلاً للإفتاء ، ولا للإخبار بالحق .

٤ — أخبرنا القرآن أن أهل الكتاب كانوا يتعاطفون مع المشركين ، ويتعاونون معهم على الإثم والعدوان وإيقاع الشر بالمسلمين فقال تعالى : ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ﴾ (٣) وهم حتى الآن لا يزالون يتعاونون مع الوثنية المادية ضد المسلمين ، إذن فهم ليسوا أهلاً لإرشاد الكفار إلى اعتناق الإسلام .

٥ — أعلن الكفار صراحة أنهم لن يصدقوا ما جاء في القرآن ولا ما جاء في الكتب السابقة كما قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ (٤) وهي الكتب السابقة ، فهم إذن لا يقبلون فتواكم في الدين الإسلامي ، ولا إرشادكم لهم بما يهديهم إليه ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون * قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ (٥) .

(١) هداية المرشدين ص ٣٧٦ .

(٢) البقرة ١٠٥ .

(٣) آل عمران ١٨٦ .

(٤) سبأ ٣١ .

(٥) القصص ٤٨ ، ٤٩ .

والمعنى : فلما جاء أهل مكة الحق ، وهو القرآن المنزل على محمد ﷺ من عند الله قالوا تعنتا : هلاً أعطى محمد مثل ما أعطى موسى من الكتاب المنزل جملة واحدة ، وقد حكى الله عنهم ذلك في سورة الفرقان فقال : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ (١) .

أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل من التوراة كما كفروا بهذا القرآن حيث قالوا : توراة موسى وكتاب محمد سحران مختلفان تعاوننا بتصديق كل منهما الآخر وقالوا : إنا بكل واحد من الكتابين كافرون ، وذلك أنهم بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود في عيد لهم فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام ، فقالوا : إنا نجد في التوراة بنعته وصفته ، فلما رجع رهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا : ذلك (٢) .

قل لهم يا محمد فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى مما أنزل على موسى ، ومما نزل على أتبعه إن كنتم صادقين في أنهما سحران مختلفان .

٦ — إنكم لا تؤمنون بأن شريعة القرآن نسخت شريعة التوراة والإنجيل مع أن هذا النسخ مقطوع به عندنا ومعلوم من الدين بالضرورة كما سبق بيانه ، فكيف تضعون أنفسكم في مركز الإفتاء في ديننا وأنتم لا تؤمنون بما جاء في كتابنا ؟ .

٧ — إن كل أمور ديننا معلومة لنا بالضرورة كما سبق وجاء بها قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ فليس فيه ما ينقصنا حتى نستفتيكم فيه .

٨ — إن أصحاب الرسول ﷺ لم يستفتوه طيلة حياته معهم إلا في مسألتين فقط يتعلق كلاهما بأحكام الأسرة ﴿ ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ﴾ (٣) الآية ، ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله ... ﴾ (٤) الآية ، ولم يستفته أحد في شيء من أمور العقيدة لعلمهم بها بالضرورة .

٩ — من المقطوع به كما تقدم في المقدمات أنكم لستم أهلاً للإفتاء في ديننا

(١) الفرقان ٣٢ .

(٢) تفسير أبو السعود ٤ / ١٥٦ .

(٣) النساء ١٢٧ .

(٤) النساء ١٧٦ .

فكيف تدعون أمرا لستم له أهلا ؟

١٠ - ويدل على عدم الحاجة إلى سؤال أهل الذكر عن بشرية الرسل التعبير بإن ، فإنها تستعمل فيما لا تحقق له غالبا ، بل قد تستعمل في المستحيل سمعا ، وعادة ، وعقلا كما تقدم ولذا لم يسأل أحد أهل الذكر عن حكم بشرية رسل الله للبشر .

وإذن الغرض من هذه الآية كالسابقة ، تأكيد حقيقة رسالة محمد ﷺ بشهادة أهل الذكر من علماء أهل الكتاب وغيرهم ، وإن لم يكن إليه حاجة أصلا كما سبق ، وإنما هو من باب تكثير الدلائل وتأكيد إقامة الحجج عليهم ، وعلى من يتنكر لرسالة محمد وكتابه من غيرهم ، ويجادل بالباطل ليدحض به الحق وزيادة إيمان من آمن به بتكاثر الأدلة .

وأخيرا : أقول لمن يحتجون بهذه الآيات أنها وضعتهم في مركز الإفتاء : إنها تثبت بشرية الرسل وعيسى عليه السلام منهم ، وأنتم تزعمون أنكم أهل للإفتاء بذلك ، فلماذا لاتقولون بالبشرية الكاملة لعيسى عليه السلام مع أنه قالها وسجلها الله في كتابه ﴿ قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبيا . وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ (١) ، بل تقولون : إنه الله ، أو ابن الله ، أو إله مع الله ؟

إذا كنتم لاتؤمنون بالآيات التي تذكرونها فلا تحتجوا بها و ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ .

* * *

(١) مريم ٣٠ : ٣٣ .

المبحث العاشر

البابا شنودة يقلب الحقائق

فيقول في ص ٢ : ﴿ ولم يذكر في القرآن إطلاقاً أنه نسخ التوراة أو الإنجيل ، بل على العكس ذكر أن المؤمنين ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل ﴾ لا شك أنه يقصد بالمؤمنين أتباع محمد ﷺ ، والفقرة الأولى قد سقت لدحضها المبحث السادس ، والسابع ، والثامن التي تقدمت .

أما الفقرة الثانية فدحضها لافتراءها أقول :

إن ما جاء في هذه الفقرة قلب للحقائق تهرباً من شمول دعوة القرآن الكريم لأهل الكتاب ، وعكس لما جاء في الآية الكريمة تماماً ، لأن المذكور فيها هو أن أهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل والقرآن ، وإليك الآية بتامها لتعرف مدى تحريفه لها ، وأنه فسرها بعكس المراد منها .

قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ (١) .

والمعنى : يا أيها الرسول قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى : إنكم لا تكونون على أي دين صحيح إلا إذا أعلنتم جميع الأحكام التي أنزلت في التوراة والإنجيل وعلمتم بها ، وآمنتم بالقرآن الموحى به من الله إلى رسوله لهداية الناس ولتتيقنن أيها الرسول أن معظم أهل الكتاب سيزدادون بالقرآن الموحى به إليكم ظلماً وكفراً وعناداً لحسدكم وحقدكم عليكم ، وعدم إيمانهم بك وبالقرآن الكريم

(١) المائدة ٦٨ .

الذى أنزل ، فلا تحزن على الذين طبعوا على الجحود فالآية خطاب لكم يا أهل الكتاب لا للمسلمين ، وثبت أنكم أنتم الذين لستم على شيء حتى تؤمنوا بالله الواحد الأحد ، وتعملوا بالتوراة والإنجيل والقرآن ، وتؤمنوا بنبي الإسلام ، وتنقادوا لما جاء به من تشريعات وأحكام ، فهي حجة عليكم ، لا لكم ، ولكنكم تفرون من الحق إلى الباطل ، وتقلبون الحقائق فراراً من الإيمان بالشرعية المحمدية ، والعمل بتشريعاتها .

وإذا كنتم تؤمنون بالقرآن ، وتحاولون جاهدين أن تنتزعوا منه ما يؤيدكم فلماذا لا تلبون نداءه وتستجيبوا لأمره الصريح لكم بالإيمان والدخول في الإسلام ، حيث يقول لكم : ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ﴾ (١) ويقول : ﴿ يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أديارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً ﴾ (٢) .

* * *

(١) البقرة ٤١ .

(٢) النساء ٤٧ .

المبحث الحادى عشر

الباها شنودة يحرف كلم القرآن عن مواضعه

وذلك بحمل ألفاظ القرآن الكريم على معنى غير المعنى الذى وضعت له ، فالآيات القرآنية التى نزلت فى القلة التى أسلمت من أهل الكتاب ، وآمنت بمحمد ﷺ وكتابه الكريم ، كما آمنت بسائر كتب الله ورسله ، يعمل على قلب حقائقها ، ويزعم أنها نزلت فى الكثرة من أهل الكتاب التى لم تعتنق الإسلام ، وتؤمن بمحمد ﷺ وبما جاء به ، يفعل ذلك ليدخل فى روع الدهماء من الناس وكل من يؤمن بكلامه ، أن أهل الكتاب ناجون من عذاب الله ولو لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وبكتابه ، ولو فرقوا بين الله ورسله ، فأمنوا بالبعض وكفروا بالبعض :

فيقول فى ص ٣ تحت عنوان « نظرة القرآن إلى النصارى » :
يدعوهم القرآن « أهل الكتاب » أو « الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » أو « الذين آتيناهم الكتاب » أو « النصارى » ثم قال : ويصفهم القرآن بالإيمان وعبادة الله وعمل الخير ، ويقول فى ذلك :

﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴿ سورة آل عمران ١١٣ ، ١١٤ .

ويقول أيضاً :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾ سورة البقرة ١٢١ .

﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾
سورة النساء ١٣١ .

﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ سورة القصص ٥٢ .
هم إذن من المؤمنين يعبدون الله ويسجدون لله وهم يتلون آيات الكتاب طوال الليل يؤمنون بالله وبالكتاب وباليوم الآخر وهم من الصالحين .
ورداً على ذلك ، ودمغاً لهذا الافتراء والادعاء ، بالحجة والبرهان أقول :

١ — قلت سابقاً وأقول أيضاً : إن القرآن إذا أثنى على فريق من أهل الكتاب المعاصرين لنزوله فمن بعدهم ، ووصفهم بالإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات وفعل الخيرات إنما يفعل ذلك مع من آمن منهم بالله وبرسوله ، وكتبه السابقة ، ثم اعتنقوا الإسلام فآمنوا بمحمد ﷺ وكتابه وعملوا بتشريعه وانقادوا لأحكامه ولم يمدح القرآن ولم يشن على أناس تكبروا عن الاستجابة لندائه ، فلم يقبلوا ما جاء به من أن محمداً رسول الله إلى الناس كافة من أهل الكتاب وغيرهم ، وأن القرآن منزل من عند الله للعالمين .

بل يعتبر القرآن الكريم كل من لم يؤمن بأن محمداً ﷺ مرسل إليه ، وأن القرآن الكريم هو هداه الذي يهتدى به كافراً ومخلداً في النار ، سواء كان من أهل الكتاب أو من غيرهم قال تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ﴾ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة ﴿ إلى أن قال : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾ (١) وقد سبقت الكثرة من الآيات في ذلك .

٢ — إنك لو تصفحت القرآن الكريم كله آية آية لن تجده يثنى ويمدح أحداً من أهل الكتاب عاصر نزوله ولم يؤمن به وبرسوله ، ويعمل بتعاليمه .

٣ — آيتنا آل عمران وما يتعلق بهما يراجع فيهما البحث الخامس من الفصل الأول فقد فصل الكلام فيهما تفصيلاً ، وبين أنهما نزلتا فيمن أسلم من أهل

(١) البينة ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

الكتاب من اليهود ، فلا حجة فيهما على ما يدعى ، بل هما ضده وحجة عليه .
وأما الآيات الثلاث التالية فأليك كل واحدة منها كاملة ومعناها ، لتعرف أنها
في غير ما ساقه له ، وأنها حجة عليه ، لاله .

أ — قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ (١) يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ
بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢) .

سبب نزول هذه الآية — كما في الجلالين والخازن — نزلت في جماعة
قدموا من الحيشة وأسلموا .

ومعناها : الذين آتيناهم الكتاب يقرءونه كما أنزل ، لا يغيرونه
ولا يحرفونه ، ولا يبدلون ما فيه من نعت رسول الله ﷺ ، ويتدبرون
معانيه حق التدبر ، أولئك يؤمنون به حق الإيمان ، ومن يؤمن به حقاً يؤمن
بكل ما جاء فيه وما يدعو إليه ، فيؤمن بالقرآن والنبى محمد ﷺ ، ومن
يكفر منهم بالكتاب المؤتى له فيحرفه ، أو يغيره ، أو لا يؤمن بما يدعو إليه
من الإيمان بمحمد وكتابه فأولئك هم الخاسرون لأنفسهم ، لمصيرهم إلى
النار المؤبدة عليهم .

ب — وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ (٣) .

والمعنى : واعلموا أن لله ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً
وتصرفاً ، وبالله لقد وصينا الذين أوتوا الكتاب ، كالتوراة والإنجيل
والزبور من قبلكم ، وهم اليهود والنصارى ومن على شاكلتهم وصيناهم في
كتبهم وعلى لسان رسلهم ، ووصيناكم أنتم — يا أهل القرآن — كذلك أن
تتقوا الله جميعاً بامثال أوامره واجتناب نواهيه .

(١) « الذين آتيناهم الكتاب » مبتدأ وصلة ، وجملة « يتلونه حق تلاوته » حالية ، وحق منصوب على
المصدر ، وخبر المبتدأ « أولئك يؤمنون به » .

(٢) البقرة ١٢١ .

(٣) النساء ١٣١ .

وفي هذا إشارة إلى أن الأديان جميعها متفقة على توحيد الله وتقواه،
ومختلفة في الفروع تبعاً لاختلاف الزمان والمكان .

وإن تكفروا فاعلموا أن الله ما في السموات وما في الأرض من الخلائق
قاطبة ، وأنهم مفتقرون إليه في الوجود ، وفي سائر النعم المنفردة عليه ،
لا يستغنون عن فيضه طرفة عين ، فحقه أن يطاع ولا يعصى ، ويتقى
عقابه ، ويرجى ثوابه ، وكان الله غنياً عن الخلق وعبادتهم ، محموداً في ذاته
حمده أو لم يحمده ، فلا يتضرر بكفرهم ومعاصيهم ، كما لا ينتفع
بشكرهم وتقواه ، وأنه وصاهم بالتقوى لرحمته ، لا لحاجته .

ج - قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وإذا
يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك
يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم
ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم
سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴿١﴾ .

سبب نزول هذه الآيات : أنه وفد على رسول الله ﷺ بعد خروجه
من الشعب ، وفد نصارى نجران بلغهم خبره من مهاجري الحبشة ،
فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته مع ما ذكر منها في كتبهم ، وكانوا
عشرين رجلاً أو قريباً من ذلك ، فقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم ، فقال
لهم أبو جهل : ما رأينا ركبا أحق منكم ، أرسلكم قومكم تعلمون خبر
هذا الرجل فصباكم ، فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لكم ما أنتم عليه
ولنا ما اخترناه ، فأنزل الله في ذلك قوله في سورة القصص : ﴿ الَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ إلى آخر الآيات (٢) .

والمعنى : أن جماعة من أهل الكتاب آمنوا بنبيهم ولم يحرفوا كلم
كتبهم ، وبشارتها بالنبي العربي ، فهم قد آمنوا به أولاً بظهور الغيب ، ثم
آمنوا به ثانياً بإيمان مشاهدة وإقرار بما سبق ، وإذا يتلى على هؤلاء القرآن

(١) القصص ٥٢ : ٥٥ .

(٢) نور اليقين للخضري ٦٢ .

قالوا : آمنا به وصدقنا من جاء على لسانه ، لأنه الحق النازل من ربنا ، ونحن أدرى به من غيرنا إنا كنا من قبل نزوله مسلمين ومنقادين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، مرة لإيمانهم بكتابتهم ونبیهم ، ومرة لإيمانهم بالقرآن والنبی محمد ﷺ ، وصبرهم على ذلك كله وهم يدفعون بالحسنة السيئة ويدفعون الشر بالخير ، وينفقون مما رزقهم الله في سبيله وابتغاء مرضاته ، وإذا سمعوا لغواً من قول المشركين أو أصابهم أذى منهم عرضوا عنهم ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم سلام ترك وموادعة نحن لا نبتغي الجاهلين ولا نطلب مصاحبهم .

وبالجملة فقد جاءت في القرآن آيات تمدح وتثنى على فريق من أهل الكتاب ، وتصفهم بالإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات ، وهؤلاء هم القلة القليلة من أهل الكتاب الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه السابقة ، ثم اعتنقوا الإسلام فآمنوا بمحمد ﷺ وكتابه ، وعملوا بتشريعه وانقادوا لأحكامه .

ومع أن أسباب نزول هذه الآيات ومعانيها ظاهرة الدلالة في ذلك ، فإن أهل الكتاب يحاولون مكابرين حملها على الكثرة الكاثرة من أهل الكتاب الذين لم يعتنقوا الإسلام متجاهلين أسباب نزولها ومعانيها الواضحة ، ليدخلوا في روع الناس أنهم على حق وإن لم يعتنقوا الإسلام ، وأنهم ناجون في الآخرة من عذاب الله وإن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ويعملوا بتشريع القرآن وجاءت فيه آيات تدم من لم يعتنق الإسلام من أهل الكتاب ، وهم الكثرة الكاثرة ، وتدمغهم مرة بالفسق كقوله تعالى : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ (١) .

ومرة بالكفر وأخرى بالشرك كقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ (٢) وكقوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن

(١) آل عمران ١١٠ .

(٢) المائدة ٧٢ .

مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴿١﴾ ، وقوله تعالى ﴿٢﴾ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴿٣﴾ .

والآيات التي تثبت كفر من لم يعتنق الإسلام من أهل الكتاب وخلوده في النار والتي سبق الكثير منها — ويأتي مزيد منها في المبحث الثالث من الفصل الثالث — فإنهم يتجاهلون مكابرة وعناداً ، ولا يذكرونها في رسائلهم التي ينشرونها ، كما لا يذكرون شيئاً من النصوص الكثيرة الصريحة التي تقدمت في عالمية الرسالة المحمدية ونسخها لغيرها من الشرائع السماوية ، حتى لا تكون حجة عليهم ، ويحاولون أن يلبسوا أنفسهم ثياب من أسلم من أهل الكتاب ، فيتمسحون في الآيات التي نزلت في القلة القليلة التي أسلمت منهم ، وما هم في ذلك إلا كما قال الله : ﴿٤﴾ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا ﴿٥﴾ .

والآيات التي نزلت في الفريقين من أهل الكتاب من اعتنق منهم الإسلام ومن لم يعتنق تقدمت مفصلة في المبحث الخامس والسادس من الفصل الأول ، وفي المبحث السادس من الفصل الثاني ، ويأتي لها مزيد في المبحث الثالث من الفصل الثالث .

هذا ، والقرآن الكريم مع إقامته للحجج النيرة والبراهين الساطعة على عقائد الإيمان وأركان الإسلام ، ومع حسن بيانه لأحكامه ، وتعليه لتشريعه ، وتفصيله بما فيه الكفاية ، ويربو على الغاية ، فإن أكثر أهل الكتاب — حسداً وبغياً ، وحرصاً منهم على مظاهرهم في هذه الحياة — لا يؤمنون بما فيه من نقل ، ولا يخضعون لعقل ﴿٦﴾ وإذا ذكروا لا يذكرون ﴿٧﴾ وإذا رأوا آية يستسخرون ﴿٨﴾ ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ، حتى تحقق فيهم قوله تعالى : ﴿٩﴾ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ﴿١٠﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴿١١﴾ وقوله تعالى : ﴿١٢﴾ أفنطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿١٣﴾ .

(٧) البقرة ٧٥ .

(٤) يبالغون في سخرتهم .

(١) التوبة ٣١ .

(٥) الصافات ١٣ ، ١٤ .

(٢) البينة ٦ .

(٦) يونس ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) الكهف ٥٦ .

المبحث الثاني عشر

البابا شنودة يؤول آيات القرآن تبعاً لهواه

وإليك ذلك والرد عليه :

أ — قال البابا شنودة في ص ٤ : ووصف القرآن النصارى بأنهم ذوو رأفة ورحمة ، وقال في ذلك ﴿ وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾ سورة الحديد ٢٧ .

والجواب عن ذلك :

أن الله — سبحانه وتعالى — جعل في قلوب حوارى المسيح وأصحابه السابقين الذين آمنوا به وبالإنجيل ، وما جاء فيه من التبشير بمحمد ﷺ رأفة ورحمة فيما بينهم ، أى إنهم كانوا متوادين بعضهم مع بعض ، كما جعل ذلك في قلوب أصحاب محمد ﷺ فقال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ (١) .

أما الذين لم يؤمنوا بما جاء في الإنجيل من التبشير بمحمد ﷺ إيماناً حقاً يدفعهم إلى الإسلام فليس عندهم هذه الرأفة والرحمة .

وإلا فآين المودة والرحمة في قلوب النصارى الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وبما جاء في الإنجيل من التبشير به ؟ ألم يقتلوا بعض النصارى الذين آمنوا بالشام في حياته ﷺ وعلى رأسهم فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم بمعان على من يلبسهم من العرب ؟ ألم يقتل الصليبيون من المسلمين سبعين ألفاً في بيت المقدس بعد أن أعطوهم عهداً بالأمان ؟ ألم تفتك المسيحية بالمسلمين في

(١) آخر الفتح .

بلاد الأندلس حتى قتلت مائة ألف مهاجر مسلم من قافلة واحدة مهاجرة ؟ هل نسيتم ما فعلته فرنسا بالجزائر المسلمة ؟ وما فعلته إيطاليا في ليبيا ؟ وما فعلته إنجلترا بمسلمي الهند ؟ وما فعلته الحيشة المسيحية بمسلمي الحيشة ، وأريتريا وعفر ، ولا تزال تفعله حتى الآن ؟ وما فعلته المسيحية وتفعله بمسلمي الفلبين ، وما تفعله المسيحية بالأقلية الإسلامية في الدول الأفريقية والآسيوية ، وبالمسلمين في كل مكان ؟ وسيأتى لذلك مزيد تفصيل وبيان .

ب — وقال البابا شنودة في ص ٤ أيضاً : واعتبرهم القرآن أقرب الناس مودة للمسلمين ، وسجل ذلك في سورة المائدة حيث يقول : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ (١) .

وقال في ص ٥ : ونلاحظ في هذه الآية القرآنية تمييز النصارى عن الذين أشركوا لأنها هنا تذكر ثلاث طوائف واجهها المسلمون ، وهى : اليهود والذين أشركوا في ناحية ، والنصارى في ناحية أخرى ، فلو كان النصارى من المشركين لما صح هذا الفصل والتمييز — إن التمييز والفصل بين النصارى والمشركين أمر واضح جداً في القرآن ، ولا يقتصر على النص السابق ، وإنما سنورد هنا أمثلة أخرى منها قوله : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ﴾ (٢) .

يراجع في هذا المبحث السادس من الفصل الأول فقد وفي هذا الموضوع

حقه .

ج — وإن تعجب فعجب له إذ يقول في ص ٥ أيضاً :

إن الله ميز النصارى عن المشركين ، وهذا التمييز نجده في الآية ١٨٦ من سورة آل عمران .

(١) المائدة ٨٢ .

(٢) الحج ١٧ .

ورداً على ذلك أقول :

الآية هي قوله تعالى : ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ .

وهذه الآية عليه لاله ، لأن الله وإن كان فرق بينهم في اللفظ ، فذكر اليهود والنصارى بلفظ « أوتوا الكتاب » وذكر عباد الأوثان بلفظ « والذين أشركوا » فقد ربط بين الفريقين في الشر والإضرار بالمسلمين ، وإليكم معنى الآية لتروا أنها عليه لاله .

فإنه يقول : تأكدوا أيها المؤمنون أنكم ستختبرون في أموالكم بالنقص أو الإنفاق وفي أنفسكم بالجهاد والقتل ، وبالأضرار والآلام ، وأنكم ستسمعون من اليهود والنصارى والمشركين كثيراً مما يؤذيكم من السب والطعن ، وإن تقابلوا ذلك بالصبر وتقوى الله فإن ذلك من الأمور الصالحة التي يجب العزم على تنفيذها كما ربط بينهم وبين المشركين في كراهة الخير للمسلمين فقال تعالى : ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ (١) .

د — وفي ص ٥ كذلك أخذ يستدل على أن النصارى ناجون فقال :
أما الآن فيكفي في نظرة القرآن إلى إيمان النصارى أن نورد قوله :

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٢) .

ودحضاً لهذا الافتراء أقول : هذه الآية لا تدل على مدعاه لما يأتي :

١ — أن معنى الآية أن المؤمن بمحمد ﷺ وكتابه إذا ثبت على إيمانه ولم يبدله ، واليهودي والنصراني والصابيء إذا آمنوا بمحمد ﷺ ، وبما جاء به ،

(١) البقرة ١٠٥ .

(٢) البقرة ٦٢ .

وباليوم الآخر ، وعملوا صالحاً ولم يغيروا حتى ما توا على ذلك فلهم ثواب أعمالهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

٢ — وأيضاً الاقتصار في الآية على ذكر الإيمان بالله دون قرنه بذكر الإيمان بالنبوة وغيرها من أركان الإيمان المعروفة إنما هو لاستلزامه لها ، وعدم اعتباره بدونها ، وهو الأصل المتضمن لها .

وإنما يستلزم الإيمان بالله الإيمان بالنبوة ، لأن الإيمان بالله لا يحصل إلا إذا حصل الإيمان بكون الله تعالى صادقاً في جميع ما أخبر به ، والإيمان بهذا الصدق لا يحصل إلا إذا كان الذي أظهر المعجز على وفق دعواه صادقاً لأن المعجز قائم مقام التصديق بالقول ، فلما ظهر المعجز على وفق دعوى محمد ﷺ كان من ضرورة الإيمان بالله الإيمان بنبوة محمد ﷺ ، فكان الاقتصار على ذكر الإيمان بالله تنبيهاً على هذه الدقيقة .

ولذا قال الإمام فخر الدين الرازي^(١) : واعلم أنه قد دخل في الإيمان بالله الإيمان بما أوجبه . أعنى الإيمان برسله ، ودخل في الإيمان باليوم الآخر جميع أحكام الآخرة . أ . هـ

ومن زعم أن الإيمان بالله دون الإيمان بالنبوة صحيح فقد كفر كفراً ليس فوقه كفر ، لأنه معارض لتصديق الله لرسوله في تأييده بالمعجزة على وفق دعواه ، ورد على الله بالتكذيب ، وليس فوق ذلك كفر وإلحاد .

وما أبلغ الرد على هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾^(٢) .

٣ — أن ابن تيمية قال^(٣) : إنه لا حجة لهم في هذه الآية على مطلوبهم ، فإنه يسوى بين النصارى واليهود والصابئين ، وهم مع المسلمين متفقون على أن

(١) في تفسيره ١ / ٣٧٠ .

(٢) النساء ٦٥ .

(٣) في الجواب الصحيح رداً على ادعاء النصارى أن القرآن سوى بين جميع الأديان بقوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمصائبين . . . ﴾ الآية .

اليهود كفار من حيث بعث المسيح إليهم فكذبوه ، وكذا الصابئون من حيث بعث إليهم رسول فكذبوه فإن كان في الآية مدح لدين النصارى الذى هم عليه بعد بعث محمد ﷺ ففيها مدح لدين اليهود أيضاً ، وهذا باطل عند النصارى والمسلمين ، وإن لم يكن فيها مدح لليهود بعد النسخ والتبديل فليس فيها مدح لدين النصارى بعد النسخ والتبديل ، وكذا يقال لليهودى إن احتج بها على صحة دينه .
 وأيضاً فإن النصارى يكفرون اليهود ، فإن كان دينهم حقاً لزم كفر اليهود ، وإن كان باطلاً لزم بطلان دينهم ، فيمتنع أن تكون الآية مدحتهما وسوت بينهما ، زعلم أنها لم تمدح واحداً منهما بعد النسخ والتبديل .

وإنما معنى الآية أن المؤمنين بمحمد وكتابه والذين كانوا على شريعة موسى قبل النسخ والتبديل ، والذين اتبعوا المسيح قبل نسخ شريعته وتبديلها بالإسلام والصابئين الخنفاء الذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق قبل التبديل والنسخ ، فهؤلاء ونحوهم الذين مدحهم الله بقوله : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا . . ﴾ إلخ .

فأهل الكتاب بعد النسخ ليسوا ممن آمن بالله ولا باليوم الآخر وعمل صالحاً ، كما قال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب ﴾ (١) .

وقد كفر القرآن أهل الكتاب الذين بدلوا دينهم وكذبوا برسولهم أو بمحمد ﷺ وتلك آيات صريحة ، ونصوص كثيرة ، وهذا متواتر معلوم بالاضطرار من دين محمد ﷺ . أ . هـ .

٤ - تقدم في مبحث عالمية الرسالة المحمدية ستون نصاً على عمومها وشمولها لجميع البشر بما فيهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وأن من لم يؤمن بمحمد ﷺ وكتابه بعد بعثته ، ويعمل بمقتضى إيمانه يعتبر كافراً ومخلداً في النار ، وذلك معلوم من الدين بالضرورة .

(١) التوبة ٢٩ .

هذا : ويلاحظ أن النصارى يسلكون في القرآن ما سلكوا في التوراة والإنجيل فيتركون النصوص المحكمة الصريحة الواضحة التي لا تحتمل إلا معنى واحداً ، مثل قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾ ويتمسكون بالمتشابه المحتمل وإن كان فيه ما يدل على خلاف مرادهم .

هـ - وقال في ص ٦ :

وكون القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب فهذا يعني صحة الإنجيل والتوراة ، وسلامتهما من التحريف ، والإفانه يستحيل على المسلم أن يؤمن بأن القرآن نزل مصدقاً لكتاب محرف . أهـ

والجواب : أن القرآن لا يصدق إلا ما جاء في التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام ، وبشرت برسالة محمد ﷺ ولم يحرف أو يبدل أو ينسى ولا يصدق إلا ما جاء في الإنجيل الواحد الذي أنزل على عيسى عليه السلام ، وبشر برسالة محمد ﷺ ، ولم يحرف أو يبدل أو ينسى كذلك .

أما التوراة والإنجيل الموجودة حالياً فقد وقع فيها ذلك كما تقدم وافية في المبحث الثالث والرابع من هذا الفصل .

و - ثم قال :

كذلك لو كان التوراة والإنجيل قد لحقهما التحريف ما كان يأمر قائلاً : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ (١) بل ما كان يصدر أيضاً ذلك الأمر .

﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ (٢) .

وإجابة على ذلك أقول :

(١) المائدة ٤٧ .

(٢) المائدة ٦٨ .

أما تحريف التوراة والإنجيل فهذا أمر مقطوع به كما سبق في المبحث الثالث والرابع من هذا الفصل .

وأما قوله تعالى : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

فمعناها وقال الله لأهل الإنجيل عند نزوله : احكموا بما أنزل الله فيه من الأحكام والتشريعات والبشارة ببعثة محمد ﷺ ، والتزموا الأمر بتصديقه واتباعه عند بعثته والعمل بما جاء في كتابه ، كما قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ (١) .

ولكن النصارى غيروا في الإنجيل وحرفوا كلمه من بعد مواضعه ، ولم يحكموا به ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الخارجون عن حدود الدين والعقل ، وعلى ذلك فأمر الله أهل الإنجيل أن يحكموا بما جاء فيه إنما كان عند نزوله ، أي قبل التحريف والتغيير فيه ، فلا تعارض في ذلك .

وأما قوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ فهي حجة عليكم لا لكم ، وقد سبق الكلام عليها تفصيلاً في أول المبحث العاشر من هذا الفصل .

* * *

(١) الأعراف ١٥٧ .

الفصل الثالث

أهل الكتاب كفروا بالرسالة المحمدية

وعلمائهم موقنون بحقيتها

وبه ثلاثة مباحث

- علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن القرآن حق .
- ويعلمون يقيناً أن محمداً ﷺ صادق في دعواه الرسالة .
- من لم يؤمن من أهل الكتاب برسالة محمد ﷺ وكتابه فهو كافر ومخلد في النار .

مقدمة

لقد كفر أهل الكتاب بالقرآن الكريم، وبرسالة خاتم النبيين محمد ﷺ وعلمائهم يعلمون جازمين أن القرآن حق، وأن محمداً رسول الله للعالمين صدقاً فاستحقوا الخلود في نار جهنم وهم على بينة من أمرهم وإليك بيان ذلك في المباحث الثلاثة الآتية :

* * *

المبحث الأول

علماء أهل الكتاب يعلمون يقينا أن القرآن حق

لقد كفر من كفر من أهل الكتاب بالقرآن الكريم، وعلماءؤهم يعلمون علماً يقينياً أنه حق، وأن كل ماجاء به صدق، ولكنهم جحدوه ظلماً وعلواً، وحرصاً على سلطانهم وجاههم، وبغياً وحسداً لأمة القرآن، فكانوا في كفرهم على بينة من أمرهم، فضلوا وأضلوا، وتحملوا أوزارهم وأوزار من اتبعهم، وإليك أدلة ذلك من القرآن الذي يحتجون به علينا فيما يوافق أهواءهم.

١ — قال تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾^(١) أى ولا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذى تفترونه وتخترعونه، ولا تحرفوا مافى التوراة بالبهتان الذى تفترونه، ولا تحفوا مافى كتابكم من أوصاف محمد ﷺ — وأنتم تعلمون أنه حق وأن ماجاء به حق.

٢ — وقال: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين بسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾^(٢).

٣ — وقال: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾^(٣).

(١) البقرة ٤٠ : ٤٢ . (٢) البقرة ٨٩ ، ٩٠ . (٣) آل عمران ٧٠ .

أى لم تكفرون بآيات القرآن وأنتم تعلمون صدقها، وتحققون حقها .

٤ — وقال: ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾^(١) فقد سجل الله عليهم في هذه الآية كفرهم بآيات الله، وتوعدهم على ذلك بالعذاب الأليم وهو الخلود في النار .

٥ — وقال: ﴿ أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾^(٢) .

والمعنى: قل — يا محمد — هؤلاء القوم: عجباً لكم! أأضل عن الصراط المستقيم، فأطلب حكماً سوى الله ليحكم بينى وبينكم، ويفصل الحق من المبطل، والحال أنه هو الذى أنزل إليكم القرآن مبيناً فيه الحق والباطل، وما أنتم في حاجة إليه في دينكم ودنياكم، ثم أكد حقيقة نزول القرآن من عند الله، وحقيقة ما فيه، فذكر أن الذين أوتوا الكتاب من علماء اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين أن هذا القرآن منزل حقاً عليك من ربك، مشتملاً على الحق كما قال: ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾^(٣) .

وقوله: ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ أى فلا تكونن من الشاكين في أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق، ولا يربك جحود أكثرهم وكفرهم به؛ لأن عدم اعتراف بعضهم بذلك مرده البغى والحسد، والحرص على مظاهر الحياة، وهذا النهى زيادة في التأكيد، وتثبيت اليقين كى لا يجول في خاطره طائف من التردد في هذا اليقين، وإلا فهو كإخوانه المرسلين على حجة واضحة من أمر ربه، كما قال تعالى: ﴿ قل إني على بينة من ربي ﴾^(٤) .

٦ — وقال تعالى: ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾^(٥) .

والمعنى: والذين أعطوا علم الكتب المنزلة من شأنهم أن يفرحوا بالكتاب

(٤) الأنعام ٥٧ .

(٥) الرعد ٣٦ .

(١) آل عمران ٩٨ .

(٢) الأنعام ١١٤ .

(٣) الإسراء ١٠٥ .

الذى أنزل عليك؛ لأنه امتداد للرسالة الإلهية، ولا يفرح بالشئ إلا من يعلم أنه حق لا كذب، ومن يتخذون التدين تحزبا ينكرون بعض ما أنزل إليك عداوة وعصية.

٧- وقال تعالى: ﴿وإنه لفي زبر الأولين. أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل﴾^(١) وإنه: أى ذكر القرآن المنزل على محمد ﷺ لفي زبر الأولين: أى فى كتبهم.

والمعنى: وإن ذكر القرآن والإخبار عنه بأنه من عند الله نزل على محمد ﷺ - لثابت فى كتب الأنبياء السابقين. أكفر هؤلاء المعاندون بالقرآن، وعندهم حجة تدل على صدق محمد ﷺ - وحقية ما جاء به، وهى علم علماء بنى إسرائيل بالقرآن كما جاء فى كتابهم.

٨- وقال: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾^(٢).

٩- وقال: ﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾^(٣) وما يجحد: الجحود إنكار باللسان لما هو ثابت فى القلب.

والمعنى: ومثل ذلك الإنزال البديع الموافق لإنزال سائر الكتب أنزلنا إليك القرآن، فالذين آتيناهم الكتاب من علماء اليهود والنصارى، كعبد الله بن سلام، وتميم الدارى، وأضراهما يؤمنون بالقرآن فى قرارة أنفسهم، ومن هؤلاء العرب من يؤمن به كذلك، وما ينكر بلسانه لما هو ثابت فى قلبه من آياتنا الظاهرة إلا المتوغلون فى الكفر، المصرون عليه، فإن ذلك يصدهم عن التأمل فيما يؤدبهم إلى معرفة حقيقتها.

١٠- وقال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾^(٤).

(٣) العنكبوت ٤٧.

(٤) الأحقاف ١٠.

(١) الشعراء ١٩٦، ١٩٧.

(٢) القصص ٥٢، ٥٣.

والمعنى: قل يا محمد هؤلاء المشركين: أخبروني عن حالكم، إذا كان القرآن من عند الله— لاسحر ولا مفترى كما ترعمون— وشهد شاهد عظيم الشأن من بنى إسرائيل على أنه من عند الله، فآمن بلا تردد، واستكبرتم أنتم عن الإيمان، وكفرتم بالقرآن، أستم ظالمين لأنفسكم؟ بلى أنتم ظالمون لها، والله لا يهدى القوم الظالمين.

فالمراد بالشاهد هنا الجنس، فيشمل كل من كان على هذه الصفة من اليهود، أو النصرارى، وإن قال سعد بن أبى وقاص: (ما سمعت النبى ﷺ يقول لأحد يمشى على الأرض (إنه من أهل الجنة) إلا لعبد الله بن سلام. قال: وفيه نزلت هذه الآية— وشهد شاهد من بنى إسرائيل— الآية) رواه الشيخان^(١).

١١— وقال: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى﴾^(٢).

والمعنى: أن ما أوحاه، الله إلى نبيه ﷺ من أمر ونهى، ووعد ووعيد هو بعينه ماجاء في صحف إبراهيم وموسى، فدين الله واحد، وإنما تختلف صورته وتتعدد مظاهره، فإذا كان المخاطبون قد آمنوا بإبراهيم أو بموسى فعليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لأنه لم يأت إلا بما جاء في صحفهم، وإنما هو مذكر، أو محبى لما مات من شرائعهم، ونحو الآية ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾، وقوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه..﴾^(٣)

* * *

(١) اللؤلؤ والمرجان ٣ / ١٦٣ .

(٢) آخر الأعلى .

(٣) الشورى ١٣ .

المبحث الثاني

علماء أهل الكتاب يعلمون يقينا أن محمدا ﷺ صادق في دعواه الرسالة

وأيضاً علماء أهل الكتاب يعلمون علماً يقيناً أن محمدا ﷺ صادق في دعواه الرسالة ولكنهم يكتُمونه عن قومهم محافظة على سلطانهم، وحظوظهم الدنيوية، والأدلة على ذلك كثيرة:

(أ) فمن القرآن

١ - قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ (١).

والمعنى: وحين جاء إلى أهل الكتاب وأجبارهم رسول من عند الله - وهو محمد ﷺ - مصدق لما معهم من كتب الله في أصول الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وهي تصدقه في أنه النبي المنتظر، طرح فريق كبير من أهل الكتاب تعاليم كتبهم التي فيها البشارة بالنبي ﷺ وراء ظهورهم، وأعرضوا عنها إعراضاً تاماً، حتى كأنهم لا يعلمون عنها شيئاً، فالآية مصرحة بأن كثيراً من أهل الكتاب نقضوا العهود التي أخذت عليهم في كتبهم على ألسنة رسلهم بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويصدقوه عند ظهوره فيما يخبر به عن الله، وهذا النقض عن علم منهم بجرمهم. وقد جعل تركهم إياها وإنكارهم لها، إلقاء لها وراء الظهر؛ لأن من يلقي الشيء وراء ظهره لا يراه، فلا يتذكره.

(١) البقرة ١٠١.

٢ - وقوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾^(١).

والمعنى: علماء أهل الكتاب وأحبارهم يعرفون صفة النبي ﷺ التي في كتبهم، والتي لا تنطبق إلا عليه كما يعرفون أبناءهم الذين يربونهم ولا يفوتهم شيء من أمرهم، حتى لقد قال عبد الله بن سلام رضى الله عنه - وقد كان من أحبار اليهود، ثم أسلم - : أنا أعلم به منى بابنى، فقال له عمر رضى الله عنه: ولمه؟ قال: لأنى لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدى فلعل والدته خانت. واعترف بمثل ذلك تميم الدارى من علماء النصارى^(٢).

وإن فريقاً من أهل الكتاب عاندوا وكتموا الحق الذى يعرفونه من نعت محمد ﷺ، وأنه نبي، وأن الكعبة قبلة، وأضاف الكتمان إلى فريق منهم؛ لأنهم لم يكونوا كلهم كذلك؛ إذ منهم من اعترف بالحق وآمن واهتدى، ومنهم من جحد عن جهل، وكفر به تقليداً، ولو علمه حق العلم لجاز أن يقبله.

الحق هو ما صدر لك من الله، لا ما يضل به أهل الكتاب، فلا تكونن من الشاكين في كتمان أهل الكتاب الحق عالمين به والخطاب للرسول ﷺ، والمراد أمته إذ الشك لا يتوقع منه.

٣ - وقوله تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . إلا الذين تابوا وأصلحو وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾^(٣).

قال ابن كثير^(٤): قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب كتبوا صفة محمد

ﷺ.

والمعنى: أن أهل الكتاب الذين يخفون ما أنزل الله من الآيات البينات الدالة على نعت خاتم الرسل ﷺ وصدقه، أولئك جزاؤهم الطرد من رحمة الله ودعاء

(٣) البقرة ١٥٩، ١٦٠.

(١) البقرة ١٤٦، ١٤٧.

(٤) في تفسيره ١ / ٢٠٠.

(٢) انظر تفسير المنار للسيد رشيد ٢ / ٢٠.

الملائكة والناس جميعاً عليهم بذلك، إلا من تاب وأصلح ماغير، وبين ماأخفى فأولئك يتوب الله عليهم، وهو المبالغ في قبول التوبة ونشر الرحمة.

٤ - وقوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ (١).

والمعنى: يا أهل الكتاب لم تخططون الحق الذي جاء به النبيون، ونزلت به كتبهم من عبادة الله وحده، والبشارة بنبي من بنى إسماعيل يعلم الناس الكتاب والحكمة بالباطل الذي لفقّه أحباركم ورؤساؤكم بتأويلاتهم الفاسدة، وتجعلون ذلك ديناً يجب اتباعه، وتقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله، وتخفون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ، وأنتم تعرفون ذلك، وتحققونه ولكنكم تفعلونه عناداً وحسداً.

٥ - وقوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ (٢).

والمعنى: أن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون صفة محمد ﷺ ونعته معرفة تماثل معرفة آبائهم الذين هم من أصلابهم، وذلك بسبب ما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين، فإن الرسل كلهم بشرى بوجود محمد ﷺ، وصفته وبلده، ومهاجره، وصفة أمته.

ثم بين الله السبب في عدم إيمانهم وهو أنهم خسروا أنفسهم بإفساد فطرتها، وعدم اهتدائها بما منحها الله من الهدايات وإصرارهم على العناد والجحود، فلذا لا يتسرب الإيمان إلى قلوبهم، لأنها قست وأظلمت وران عليها ما كانوا يكسبون.

٦ - وقوله تعالى: ﴿ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (٣).

(١) آل عمران ٧١ . (٢) الأنعام ٢٠ . (٣) الأعراف ١٥٦، ١٥٧ .

والمعنى: ورحمتي عمت كل شيء في الدنيا، فسأكتبها في الآخرة للذين يتقون الكفر والمعاصي ويؤدون الزكاة المفروضة، والذين يصدقون بجميع الكتب المنزلة، وأخص بها الذين يتبعون الرسول محمدا لا يكتب ولا يقرأ، وهو الذي يجدون وصفه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بكل خير، وينهاهم عن كل شر، ويحل لهم الأشياء التي يستطيها الطبع، ويحرم عليهم الأشياء التي يستخبثها الطبع كالدم والميتة، ويزيل عنهم الأثقال والشدائد التي كانت عليهم، فالذين صدقوا برسالته، وآزروه وأيدوه، ونصروه على أعدائه، واتبعوا القرآن الذي أنزل معه كالنور الهادي، أولئك هم الفائزون دون غيرهم ممن لم يؤمنوا به.

٧- وقوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ (١).

والمعنى: ويقول الذين كفروا برسالة محمد ﷺ وجحدوا نبوته لست مرسلا للناس تخرجهم من الظلمات إلى النور، وتهديمهم إلى الصراط المستقيم قل لهم - يا محمد -: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم على صدقي بما أنزله على من القرآن المعجز، وما أيدني به من الآيات البينات، كفى به تعالى شهيداً، وبمن عنده علم الكتاب، من علماء اليهود والنصارى، الذين علموا صدق وصدق ما أنزل على من كتبهم فآمنوا بي، وصدقوا بالقرآن، فالمراد بالكتاب جنس الكتاب المنزل الشامل للتوراة والإنجيل وغيرهما، فإن علماء اليهود والنصارى الذين تخلصوا من التقليد الأعمى فآمنوا بالله، وصدقوا برسوله محمد ﷺ يعلمون حقا أن النبي محمداً ﷺ هو المبشر به عندهم، وأنه هو النبي المبعوث في آخر الزمن كما يأتي.

٨- وقوله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ (٢).

(ب) ومن التوراة:

٩- في سفر التثنية ١٨ [١٨] أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل

(١) آخر الرعد . (٢) الصف ٦ .

كلامى فى فمه فى كلهم بكل ماأوصيه به [الخطاب لموسى — عليه السلام — وإخوة الإسرائيليين أولاد إسمعيل، ومعنى جعل كلام الله فى فيه، أنه لاينطق عن الهوى، ولا يقرؤه فى كتاب؛ لأنه أُمى، وإنما يتلقاه عن الله تعالى حافظاً له، ويلقيه على أمته، وهذه الأوصاف لاتنطبق إلا على محمد ﷺ، ولأنه المماثل لموسى فى الشريعة المستأنفة .

١٠ — وفى التثنية أيضاً ٣٣] ١ فقال — أى موسى — : جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير ، وتلاً من جبل فاران] ، فجميعه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى — عليه السلام — وإشراقه من سعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام، واستعلانه من فاران إنزاله القرآن على محمد ﷺ؛ لأن فاران جبل من جبال مكة ، ففى سفر التكوين ٢١ فى بيان حال إسمعيل] ٢١ وسكن فى بوية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر] .

(ج) — ومن الإنجيل :

١١ — فى إنجيل يوحنا ١٤] ١٦ وأنا أطلب من الآب فىعطىكم معزياً آخر ليكث معكم إلى الأبد [معزياً : أى معزياً للمؤمنين على عدم إيمان الكافرين، ومعزياً أيضاً للمصابين والمرضى والفقراء .

١٢ — وفى يوحنا أيضاً ١٥] ٢٦ ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى ٢٧ وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معى من الابتداء] .

١٣ — وفيه كذلك ١٦ » ٧ لكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أطلق لأنه إن لم أطلق لاياتيكم المعزى، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم] ..

١٤ — وفى نفس الإصحاح] ١٣ وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لايتكلم من نفسه، بل كل مايسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية [فكل هذه الأمور والأوصاف لاتنطبق إلا على محمد ﷺ، خاصة، وأنه لانبى بعد عيسى — عليه السلام — غيره .

(د) ومن السنة النبوية :

١٥ — عن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — قال — ذاكرا صفة رسول الله ﷺ في التوراة: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزا للأُميين. أتت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا وآذانا صما، وقلوبا غلفا) (١) السخب: رفع الصوت بالخصام. حرزا: حافظا. غلفا: كل شيء في غلاف.

١٦ — وعن أنس بن مالك قال: «فلما جاء نبي الله ﷺ (٢) جاء عبد الله ابن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنت جئت بحق..» الحديث (٣).

١٧ — وقال هرقل لأبي سفيان — بعد أن سمع منه أوصاف النبي ﷺ: (إن يك ماتقول فيه حقا فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أك أظنه منكم، ولو أنى أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ماتحت قدمي..) (٤).

١٨ — وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «يامعشر اليهود، ويلكم اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا، وأنى قد جئتمكم بحق، فأسلموا..» الحديث (٥).

١٩ — وعن أبى صخر العقيلي قال: «حدثنى رجل من الأعراب، فقال: جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعى قلت: لألقين هذا الرجل فلا سمعن منه، قال: فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون، فنتبعتم حتى أتوا على رجل من اليهود، ناشرا التوراة يقرؤها، يعزى بها نفسه عن ابن له في الموت، كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال له رسول الله ﷺ: (أنشدك بالذى أنزل التوراة، هل تجد في كتابك هذا صفتى ومخرجى)؟ فقال برأسه هكذا، أى

(٢) أى إلى دار أبى أيوب الأنصارى حين دخل المدينة مهاجراً.

(١) البخارى ٣ / ١٣٩.

(٣) رواه البخارى في ٥ / ١٦٢.

(٤) اللؤلؤ والمرجان ٢ / ٢٢١.

(٥) رواه البخارى في ٥ / ١٦٢.

لا، فقال ابنه: إى والذي أنزل التوراة، إنا لنجد فى كتابنا صفتك، ومخرجك، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله. فقال الرسول ﷺ أقيموا اليهودى عن أخيكم، ثم تولى كفته والصلاة عليه» رواه أحمد^(١).

٢٠- وعن صفية بنت حى بن أخطب رضى الله عنها، قالت: «كنت أحب ولد أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر، لم ألقهما فى ولد لهما قط، وأهش إليهما، إلا أخذانى دونه، فلما قدم النبى ﷺ، ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف، غدا إليه أبى وعمى أبو ياسر مُعَلِّسَيْنِ، قالت فوالله مارجعا إلا مع مغيب الشمس، قالت: فرجعا إلينا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظرت إلى واحد منهما، مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمى أبى ياسر يقول لأبى: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه ببعته وصن؟ قال: نعم والله. قال: فماذا فى نفسك منه؟ قال: عداوته ما بقيت»^(٢).

٢١- وقال ابن إسحاق: وحدثنى يزيد بن سفيان عن ابن السلمانى عن كرز بن علقمة، قال: قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكبا منهم أربعة وعشرون رجلا من أشرافهم، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر إليهم يقول أمرهم: العاقب أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره، واسمه عبد المسيح، والسيد: ثماطم وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأبيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بنى بكر بن وائل أسقفهم وحرهم وإمامهم، وصاحب مدراسهم.

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم.

فلما وجهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له موجهاً إلى رسول الله ﷺ وإلى جنبه أخ له يقال له كرز بن علقمة يسايره، إذ عثرت بغلة أبى حارثة، فقال له كرز تعس الأبعد، يريد رسول الله ﷺ فقال له

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٥١ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ١١٩ .

أبو حارثة: بل أنت تعست، فقال: ولم يأخى؟ فقال: والله إنه النبي الأمي الذي كنا ننتظره، فقال له كرز: فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا؟

فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا ومولونا وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافة، ولو فعلت نزعوا منا كل ماترى، فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك^(١).

٢٢- ولما حاصر الرسول ﷺ بني قريظة وأيقنوا أنه غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد لهم: (يامعشر يهود قد نزل بكم من الأمر ماترون، وإني عارض عليكم خللا ثلاثا، فخذوا أيها شعثم.

قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دماءكم وأموالكم، وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لانفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره .. الخ^(٢).

٢٣- وقال عمرو بن سعدى لبني قريظة: (ياقوم قد رأيتم مارأيتم فأطيعوني وتعالوا نتبع محمدا- والله إنكم لتعلمون أنه نبي- قد بشرنا به وبأمره ابن الهيبان أبو عمير، وابن حراش، وهما أعلم يهود جاءانا يتوكفان^(٣) قدومه، وأمرانا باتباعه، جاءانا من بيت المقدس، وأمرانا أن نفرئه منهما السلام، ثم ماتا على دينهما، ودفناهما بجزتنا هذه، فأسكت القوم، فلم يتكلم منهم متكلم، ثم أعاد هذا الكلام ونحوه، وخوفهم بالحرب والسبأ والجلأ.

فقال الزبير بن باطا: قد والتوراة قرأت صفته في كتاب باطا التوراة التي نزلت على موسى، ليس في المثاني الذي أحدثنا. قال: فقال له كعب بن أسد: ما يمنعك ياأبا عبد الرحمن من اتباعه؟ قال: أنت ياكعب. قال كعب: فلم؟ والتوراة ما حلت بينك وبينه قط. قال الزبير: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا، فإن اتبعته اتبعناه، وإن أبيت أبينا، فأقبل عمرو بن سعدى على كعب فذكر ما تقاولا في ذلك، إلى أن قال عمرو: ما عندي في أمره إلا ما قلت، وما تطيب نفسي أن أصير تابعا) رواه البيهقي^(٤).

(١) زاد المعاد ٣ / ٣٨. (٢) سيرة ابن هشام ٣ / ١٤٢. (٣) يتوقعان (٤) البداية والنهاية لابن كثير ٤ / ٨٠

المبحث الثالث

من لم يؤمن من أهل الكتاب برسالة محمد ﷺ وكتابه فهو كافر ومخلد في النار

إن أهل الكتاب — مع جزم علمائهم بأن القرآن حق ، وأن رسالة محمد ﷺ حق كما سبق — ينكرون حسداً وبغياً نسخ القرآن الكريم لشريعتهم ، ويدعون أن من مات منهم على يهوديته ، أو نصرانيته في عهد الرسالة المحمدية فهو مؤمن ، وناج من عذاب الله وإن لم يؤمن برسالة محمد ﷺ وكتابه الكريم .

ودحضا لهذا الافتراء الكاذب ، والادعاء الباطل أقول : لقد نزلت كثرة كثرة من الآيات القرآنية المتواترة . وتوالت البيئات الساطعة على أن رسالة محمد ﷺ وكتابه الكريم جاء لعقلاء العالمين عامة ، وللبشر كافة ، وأصبح ذلك معلوماً من الدين الإسلامي بالضرورة ، وصار من المقطوع به أن الشريعة المحمدية ناسخة للشريعة اليهودية والمسيحية ، وغيرها من الشرائع السماوية ، فمن لم يؤمن من أهل الكتاب وغيرهم برسالة محمد ﷺ وبالقرآن الكريم إيمان إذعان وانقياد فهو كافر ومخلد في النار ، والنصوص على ذلك كثيرة منها :

١ — قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفَ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون . وَأَمْنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمْنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُون ﴾ (١) فقد بينت هذه الآية أن من لم يؤمن بالقرآن فهو كافر ، ولا شك أن الكافر مخلد في النار .

(١) البقرة ٤٠ ، ٤١ .

٢ - وقوله تعالى: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين. وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾^(١).

سبب النزول: عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء، وداود بن سلمة: يامعشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد، ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته. فقال سلام بن مشكم أحد بنى النضير: ماجاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله..﴾ الآية^(٢).

والمعنى: كان اليهود - وعندهم في التوراة وصف النبي ﷺ وبيان زمانه - يبنون أنفسهم بالنصر على المشركين، وكانوا يقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان الذي نحمد نعتة في التوراة، فلما جاءهم النبي ﷺ ومعه القرآن مصدقاً لما عندهم من التوراة ومؤيداً بنعته المعروف عندهم كفروا به، واستكبروا وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة، فلعنة الله عليهم في الدنيا والآخرة.

ولما كان اليهود المعاصرون للنبي ﷺ يعرفون حقاً أنه النبي المبشر به في التوراة، ولكنهم لم يؤمنوا به حسداً وبغياً، فقد باعوا حظهم الحقيقي - وهو الإيمان بالله ورسوله، وما يترتب عليه من الثواب في الدنيا والآخرة - وأخذوا بدله كفرهم بما أنزل الله، وما يترتب عليه من العقاب في الدنيا والآخرة، وما دفعهم إلى ذلك إلا الحسد والبغى، وخوف ضياع الرياسة والمال من أيديهم، فهم قد رجعوا من الله بغضب جديد عظيم^(٣)، لكفرهم بالنبي ﷺ؛ لأن الله أنزل عليه الكتاب من فضله، وكانوا لجهلهم بالدين يدعون أنهم أحق - على غضب

(١) البقرة ٨٩ : ٩١ . (٢) لباب النقول للسيوطي ١ / ١٣ . (٣) فالتنكير للتعظيم .

استحقوه من قبل لتضييع التوراة، والكفر بعيسى — عليه السلام — وللكافرين عذاب شديد الإهانة والإذلال، لتكبرهم عن اتباع الحق والخضوع له .

وإذا قيل لهم آمنوا بالقرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ قالوا لانؤمن به ، وإنما نؤمن بالذى أنزل علينا، وهو التوراة، ويكفرون بغيره، مع أن القرآن هو الحق المصدق لما فى التوراة التى أنزلها عليهم، فكفروهم بالقرآن كفر بالتوراة نفسها؛ إذ الكل من عند الله، والكافر بذلك مخلد فى النار .

٣ — وقوله تعالى: ﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين. ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ (١) .

والمعنى: من كان عدواً لله وملائكته وكتبه، وخاصة القرآن الكريم، ورسوله خصوصاً محمد وجبريل وميكال، فإن الله عدو له ومجازيه على ذلك، لأن تلك العداوة كفر عظيم تستحق العذاب الشديد .

ولقد أنزلنا إليك — يا محمد — آيات واضحات قد دلت على صدق رسالتك، ولا يكفر بها إلا الخارجون عن طاعة الله، المتمردون على آياته وأحكامه، وهؤلاء هم أصحاب النار، وهم فيها خالدون .

٤ — وقوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ (٢) .

والمعنى: ولما جاء أهل الكتاب رسول من عند الله — وهو محمد ﷺ — بكتاب مصدق لما معهم؛ إذ هو موافق للتوراة والإنجيل وسائر كتب الله فى الأصول الدينية العامة كتوحيد الله، وإثبات البعث والحياة الآخرة، وصدق الرسل، ترك فريق من أهل الكتاب كتاب الله — وهو القرآن الكريم — ولم يؤمنوا به، كأنهم لا يعلمون أن من لم يؤمن بالقرآن الموافق لغيره من كتب الله لا يكون مؤمناً بالكتب السابقة، ولا بالقرآن الكريم، وله عذاب أليم خالداً فيه .

٥ — وقوله تعالى: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن

(١) البقرة ٩٨، ٩٩ . (٢) البقرة ١٠١ .

ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿١﴾ .

والمعنى: لا يود الذين كفروا بالله سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين أن ينزل الله عليكم خيراً أبداً، كالقرآن والرسالة، والله لا يقيم وزناً لما يرجون وما يكرهون، وهو يختص بالنبوة والخير من يشاء من عباده، لعلمه بمن هو أهل لذلك، وهو ذو الفضل العظيم، وقد وصف الله بالكفر أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وكتابه، والكافر مخلد في النار.

٦ — وقوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾. نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل. من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴿٢﴾ .

والمعنى: الله لا إله إلا هو الدائم الحياة بلا بداية ولا نهاية، القائم بشئون خلقه على أتم وجه وأكمله، نزل عليك الكتاب الكامل وهو القرآن، متلبساً بالحق في كل ماجاء به، مصدقاً لكل ماسبقه من الكتب السماوية في أصول الدين وأركانه، وأنزل من قبله التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، لهداية الناس، وأنزل الفرقان، وهو كل مايفرق بين الحق والباطل بقوة، فيشمل الكتب السماوية السابقة وغيرها، كصحف إبراهيم، وزبور داود، فهو من عطف العام على الخاص.

إن الذين كفروا بآيات الله في كتبه المنزلة، وكونه الفسح لهم عذاب شديد خالد فيهم، لأنهم دتسوا أنفسهم بالكفر والضلال، والله قادر لا يغلبه شيء، منتقم ممن يستحق الانتقام.

٧ — وقوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ ﴿٣﴾ .

(١) البقرة ١٠٥ . (٢) آل عمران ٢ : ٤ . (٣) آل عمران ١٩ .

والمعنى: أن الدين الحق المرضي عند الله هو الإسلام، وهو التوحيد الخالص من شائبات الشرك، وإخلاص العبادة لله وحده، والتزام أوامره ونواهيه وتشريعاته.

وما اختلف اليهود والنصارى في أمر الإسلام ورسالة محمد ﷺ إلا بعد أن علموا بالحجج النيرة والآيات الباهرة، والبراهين الساحقة حقيقة ذلك.

فعدم إسلامهم، وكفرهم بمحمد وكتابه لم يكن عن جهالة بذلك أو شبهة، وإنما كان عن استكبار وحسد وبغى للرسول خاصة وللعرب عامة، وحرصاً على الجاه والسلطان ومظاهر الحياة، فكانوا ممن ضل عن علم وبينة، فاستحقوا بذلك أشد العذاب وأقساه، كما يفهم ذلك من التهديد والوعيد في قوله تعالى: ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ أي ومن يكفر بآيات الله في كتبه، وبراهين جلاله وكأله في ملكوته فإن الله سيجازيهم في الدنيا والآخرة بما يستحقون من العقاب الشديد الدائم.

قال ابن كثير (١) — في قوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ —: إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ (٢) فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى: ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ (٣) الآية، وقال في هذه الآية مخبراً بالحصار الدين المتقبل منه عنده في الإسلام ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾.

٨ — وقوله تعالى: ﴿وقل للذين أتوا الكتاب والأمين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ (٤).

والمعنى: وقل يا محمد لليهود والنصارى ومشركي العرب أسلموا فقد أتاكم من البيئات ما يوجب إسلامكم — وخص هؤلاء بالذكر مع أن البعثة عامة لأنهم

(١) في تفسيره ١ / ٣٥٤ .

(٢) أي سد الله جميع الطرق الموصلة إليه إلا من جهته ﷺ .

(٣) آل عمران ٨٥ . (٤) آل عمران ٢٠ .

هم الذين خوطبوا أولاً بالدعوة — فإن أسلموا فقد أنقذوا أنفسهم من العذاب بخروجهم من الضلال إلى الهدى، وإن تولوا فإنما عليك تبليغ الرسالة، والله خبير بعباده وأحوالهم فسيجازيهم بأعمالهم.

قال ابن كثير: وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث.

٩ — وقوله: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ (١) أى يأيها اليهود والنصارى لم تكفرون بآيات الله فى القرآن وأنتم تقولون من صميم قلوبكم أن القرآن حق وأن محمداً رسول الله، والكفر بآيات الله جزاءه النار وبئس القرار.

١٠ — وقوله: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون. قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون﴾ (٢).

والمعنى: قل — يا محمد — لأهل الكتاب من اليهود والنصارى لم تكفرون بآيات الله التى دلتكم على صدق محمد وكتابه، والله شهيد على أقوالكم وأعمالكم، وسيجازيكم عليها.

قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن بمحمد ﷺ قاصدين بذلك أن تكون سبيل الله معوجة فى نظر من يؤمن لكم، ويصدق كلامكم بتغيير صفة محمد ﷺ، وكذبكم على الله، والحال أنكم تشهدون بصدقه فى أعماق نفوسكم، وأن صراطه مستقيم، وسبيله أقوم، وأهدى سبيل، وما الله بغافل عن جرائمكم ومفترياتكم، وسيعاقبكم عليها أشد عقاب فى نار خالدن فيها وبئس المصير.

١١ — وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته

(١) آل عمران ٧٠ (٢) آل عمران ٩٨، ٩٩.

وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴿١﴾ .

والمعنى : يأمر الله عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه ، وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل ، بل من باب تكميل الكامل وتقريره ، والاستمرار عليه ، كما يقول المؤمن في كل صلاة (اهدنا الصراط المستقيم) أى زدنا هدى وتثبيتاً ، فأمرهم بالإيمان الحق بالله وبرسوله والدوام عليه ، وبالكتاب الذى أنزله على رسوله منجماً — وهو القرآن الكريم — وجنس الكتاب الذى أنزله على رسله ، كالتوراة والإنجيل .

ومعنى الإيمان بالقرآن التصديق بأن الله نزله من عنده على خاتم رسله ، وأنه الناسخ لكل تشريع قبله ، وليس بعده كتاب آخر ، ومعنى الإيمان بالكتب السابقة التصديق بأنها نزلت من عند الله على رسله السابقين للعمل بما جاء فيها من عند الله .

ومن يكفر بالله خالق الكون ورب العالمين ، وملائكته وكتبه ، وخاصة القرآن الكريم ، ورسله وخصوصاً محمد ﷺ ، وينكر اليوم الآخر فقد ضل عن الصراط المستقيم ، وأوغل في الضلال وأبعد فيه ، ومأواه جهنم وبئس المصير .

وَمَنْ من صيغ العموم ، فاليهود والنصارى الذين يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون ببعضها ، ويؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعضهم لا يعتد بإيمانهم ، إذ الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكل ؛ لأنه لو آمن إيماناً صحيحاً بنبيه وكتابه لآمن بمحمد وكتابه المبشر به عندهم .

١٢ — وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُرِيدُونَ أَنْ يَفْرُقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُوْمَنُ بَعْضٌ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِينًا . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢﴾ .

(١) النساء ١٣٦ .

(٢) النساء ١٥٠ : ١٥٢ .

فقد بين الله في الآية الأولى الكافرين حقاً، فذكر أن من الناس من يكفر بالله ورسله، كالدهريين، والشيوخيين، ومنهم من يؤمن بالله ويكفر برسله؛ لإنكارهم الوحي، واستغنائهم — في زعمهم — بالعقل عنه، كبعض الفلاسفة^(١)، ومنهم من يؤمن ببعض الرسل، ويكفر ببعضهم حسداً وبغياً، أو تبعاً لما ألفوا عليه آباءهم أو حرصاً على جاههم ومظاهرهم في هذه الحياة، كاليهود الذين آمنوا بالأنبياء وكفروا ببعيسى ومحمد — عليهما الصلاة والسلام — والنصارى الذين آمنوا بهم وكفروا بخاتمهم محمد ﷺ، ويريدون أن يتخذوا بين الإيمان والكفر طريقاً وسطاً، والإيمان والكفر ضدان لا يجتمعان في قلب واحد، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأولئك هم الكاملون في الكفر والضلال، الراسخون في الجحود والإنكار، وقد أعد الله لهم ولأمثالهم عذاباً مهيناً لهم، كما استهانوا بمن كفروا به، فالإيمان بالله حقيقة يقتضى عبادته على وجه الحق والصواب، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالإيمان برسله، واتباع تعاليمهم، فهم السفراء بين الله وبين أهل الأرض.

والإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى الثقلين، فمن كفر بنبوة نبي حسداً أو عصبية، أو طمعا في حظوظ دنيوية، أو حرصاً على جاه أو سلطان فقد كفر بسائرهم.

فلو آمن اليهود بموسى حقيقة لآمنوا بمحمد، ولو آمن النصارى ببعيسى حقيقة لآمنوا بمحمد كذلك؛ فهو مذكور في كتبهم، ومبشر به عندهم، ومصديق لما معهم.

على أن رسالة محمد ﷺ أوضح دليلاً، وأقوى برهاناً لو نظر حق النظر فيها، فهو النبي الأمي الذي نشأ بعيداً عن الحضارة والمدنية، وكان مثلاً أعلى من جميع نواحيه، وجاء بالقرآن الكامل في أسلوبه وهداه والمعجزة الخالدة التي تحدى الله بها الإنس والجن على مدى الزمان والمكان.

ثم بين الله المؤمنين صدقاً فقال: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤجرهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

(١) الملاحدة الذين ينكرون النبوات، ويزعمون أن ما أتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند أنفسهم. لامن عند الله، وأكثر الملحدين في هذا العصر من ذلك الفريق.

أى والذين آمنوا بالله على أنه واحد أحد فرد صمد ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ويؤمنون بجميع رسل الله ، ولا يفرقون بين أحد منهم ، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون ، مهديون هادون إلى سبل الخير ، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله ، حتى نسخت شرائع الجميع بشريعة محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى تقوم الساعة على شريعته ، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين ، والذين كان أمرهم كما قال الله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (١) أولئك سيمنحهم الله الأجر العظيم ، والثواب الجزيل على كامل إيمانهم بالله وبجميع رسله ، والله غفور للتائبين رحيم بالمؤمنين الصادقين .

١٣ - وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليمًا حكيمًا ﴾ (٢) فالله قد وجه الخطاب فى هذه الآية إلى جميع البشر من أهل الكتاب وغيرهم وأمرهم أن يؤمنوا بمحمد وكتابه الذى كله حق ، وتوعد الكافرين بذلك بأشد أنواع العقاب ؛ لأنه عليم حكيم فلا يسوى بين المؤمنين والكافرين .

١٤ - وقوله : ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمننا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ﴾ (٣) .

والمعنى : قل يا محمد لأهل الكتاب ماتعيبون علينا إلا إيماننا بالله وبالقرآن الذى أنزل إلينا بواسطة نبينا ، وبالكتب التى أنزلت على من قبله من الرسل وأن أكثركم خارجون عن حدود الدين الصحيح لعدم إيمانهم بالإيمان الحق بكتبهم والعمل بما أنزل إليهم فيها ، وعدم إيمانهم بالقرآن والإذعان لأحكامه ، والقليل منكم هو الذى آمن بما آمن به محمد ﷺ وصحبه .

١٥ - وقوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تكن فى مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس

(١) البقرة ٢٨٥ . (٢) النساء ١٧٠ . (٣) المائدة ٥٩ .

والمعنى: أيستوى المؤمن والكافر، فمن كان يسير في حياته على بصيرة وهداية من ربه^(٢)، ويطلب الحق مخلصاً، ومعه شاهد بالصدق من الله وهو القرآن، وشاهد من قبله وهو كتاب موسى عليه السلام الذي أنزله الله قدوة يُتبع ماجاء به، ورحمة لمتبعيه، كمن يسير في حياته على ضلال وعماية، فلا يهتم إلا بمتاع الدنيا وزينتها أولئك الأولون الموصوفون بما ذكر من الجمع بين البينة الوهبية، وشهادة الوحي لعقائدهم وأعمالهم الكسبية، يؤمنون بهذا القرآن إيمان معرفة وإذعان ومن يكفر به ممن بلغه من سائر الملل والنحل من أهل الكتاب وغيرهم الذين تألبوا على الحق، وتحزبوا ضده، فالنار موعده يوم القيامة .

فلا تكن — أيها النبي — في شك من هذا القرآن^(٣)، إنه الحق المنزل من عند ربك ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ ولكن أكثر الناس تضلهم الشهوات فلا يؤمنون بما يجب الإيمان به . أما المشركون فلا ستكبار زعمائهم، وتقليد مزعوسهم ودهمائهم، وأما أهل الكتاب فلحسدتهم وبغيمهم، وتحريفهم وابتداعهم في دين أنبيائهم .

١٦ — وقوله تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾^(٤) أهل الكتاب هم بنو النضير من يهود المدينة . من ديارهم: من مساكنهم بالمدينة . لأول الحشر: من إضافة الصفة للموصوف، أى للحشر الأول، واللام في (أول الحشر) بمعنى عند . أى عند حشرهم الأول من ديارهم بالمدينة إلى خيبر، والحشر الثاني هو إخراجهم في زمن عمر من خيبر إلى الشام حين نقضوا العهد .

(١) هود ١٧ .

(٢) هذا تفسير للبينة، وهى ما يبين به الحق فى كل شىء بحسبه، كالبرهان فى العقليات، والنصوص فى النقليات، والحواروق فى الإلهيات، والتجارب فى الحسيات، والشهادات فى القضائيات، والاستقراء فى إثبات الكليات . وقد نطق القرآن بأن الرسل كلهم قد جاءوا بالبينات، قال تعالى لخاتمهم ﴿قل إني على بينة من ربي﴾ الأنعام ٥٧ .

(٣) نبى الله النبى عن الشك ليس معناه أنه يَحتمل أن يشك، بل إنه يشير إلى أن من دون النبى ﷺ عليهم أن يتحاطوا لأنفسهم، فلا يجعلوا للشك طريقاً يصل منه إلى قلوبهم .

(٤) الحشر ٢ .

١٧ - وقوله: ﴿لم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلم لنصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ (١) فقد وصف الله أهل الكتاب في الآيتين بالكفر لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ، وبما جاء به، والكافر مخلد في النار قطعاً للكثرة الكاثرة من الآيات الكريمة المتواترة الدالة على ذلك.

١٨ - وقوله تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة. رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة. فيها كتب قيمة. وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة﴾ إلى أن قال: ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية﴾ (٢).

والمعنى: لم يكن الذين كفروا من اليهود والنصارى أهل الكتاب، ومن المشركين عبدة الأوثان والأصنام متروكين هملاً بدون إرشادهم إلى الحق، وإقامة الحججة الواضحة عليهم، وهذه الحججة الواضحة هي رسول من الله، هو محمد ﷺ يتلو قرآناً عن ظهر قلب - لأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب - صار فيما بعد مكتوباً في صحف منزهة عن الباطل والتحريف فيها آيات مستقيمة لا عوج فيها.

فالمراد بالرسول هنا قطعاً هو محمد ﷺ لأنه هو الذي أرسل إلى جميع البشر من أهل الكتاب والمشركين كما سبق في قوله تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ وما اختلف اليهود والنصارى في شأن محمد ﷺ وكتابه، وصاروا في ذلك شيعاً وأحزاباً إلا من بعد ماجاءتهم الحججة الواضحة الدالة على صدق رسالته ﷺ، وأنه الرسول الموعود به في كتبهم.

قال أبو السعود (٣): وقوله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب﴾ أُلخ كلام مسوق لغاية التشنيع على أهل الكتاب خاصة، وتغليظ جنباياتهم ببيان أن مناسبتهم إليهم من الانفكاك لم يكن لاشتباه مافي الأمر، بل كان بعد وضوح الحق، وتبين الحال، وانقطاع الأعذار بالكلية، وهو السر في وصفهم بإتياء الكتاب المنبئ عن كمال تمكنهم من مطالعته والإحاطة بما في تضاعيفه من الأحكام والأخبار

(١) الخشر ١١ . (٢) البينة ١ : ٤ ، ٦ . (٣) في تفسيره ٥ / ٢٧٧ .

التي من جعلتها نعت النبي ﷺ . اه وفي الآية السادسة من هذه السورة أكد الله أن الكافرين برسالة محمد ﷺ من أهل الكتاب والمشركين خالدون في نار جهنم، وبئس القرار، وأنهم شر الخلائق، وبذلك استحقوا أشد العذاب.

١٩ — وقوله ﷺ: ﴿والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودى ولا نصرانى، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار﴾ رواه مسلم عن أبى هريرة^(١).

وهكذا نجد دعوة الإسلام قائمة بحججها الواضحة القوية المتواترة على أهل الكتاب في مشارق الأرض ومغاربها وأنهم مطالبون بالإيمان بمحمد ﷺ وبكتابه الذى هو حجة عليهم، كما هو حجة على غيرهم، وأن من لم يؤمن بذلك فهو كافر ومخلد في النار.

* * *

(١) في ٢ / ١٨٦ .

الفصل الرابع

في الرد على افتراءات المبشرين

وبه

مقدمة واثنا عشر مبحثاً

- دحض جريمة اتهام الإسلام بالإكراه في الدين
- دحض جريمة اتهام الإسلام بالتعصب
- دحض جريمة اتهام أصحاب محمد ﷺ بالفجور
- سحق جريمة تشكيك المبشرين في القرآن
- سحق جريمة تشكيكهم في نبوة محمد ﷺ
- بطل المبشرين نهاية جهدهم لإخراج المسلمين من دينهم
- الواجب على المسلمين للحفاظ على دينهم من هذا التيار الجارف
- اتهامهم الإسلام بأنه السبب في انتشار الجهل وتخلف شعوبه
- دحض هذا الافتراء
- مراحل تطور التعليم في الأمة الإسلامية
- سبب تأخر المسلمين في العصور الوسطى
- كيف يستعيد المسلمون مجدهم التليد

المقدمة

في اتهام المبشرين الإسلام بالإكراه في الدين والتعصب والدعوة إلى الفجور

قال ه. جيومان. ف. لوستير^(١):

إن محمدا مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو.

مأعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين وبين النصارى، إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة، وقالوا للناس: أسلموا أو تموتوا، بينما أتباع المسيح قد كسبوا النفوس ببرهم وإحسانهم.

ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا؟ إذن لكننا نحن اليوم مسلمين، كالجزايريين والمراكشيين. اه.

وقال المنسنيور كولى في كتابه (البحث عن الدين الحقيقي) تحت باب الإسلام^(٢): في القرن السابع للميلاد برز في الشرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام الذى أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب، لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدم قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات. اه

(١) في مؤلفه الذى يدرس لصفوف الشهادة الابتدائية بمدرسة القديس يوسف للبنات في بيروت، وفي مدارس إسرائيلياتها تحت عنوان (تاريخ فرنسا) ص ٨٠، ٨١.

(٢) والكتاب عبارة عن محاضرات في التربية الدينية، وصدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحي في باريس طبع سنة ١٩٢٨.

وفي ظل الاستعمار الفرنسي للسنغال كانت الإرساليات التبشيرية تقول للناس هناك : إن الدين الإسلامي دين مستعمر ، لأنه جاء عن طريق العرب ، ولأنه فرض بالسيف . اهـ (١) .

أقول : لقد رمى أعداء الإسلام ديننا بهذه الأباطيل ، والإفتراءات الثلاثة حسداً ، لما امتاز به ، وبغضا فيه ، فارتدت عليهم قذائفهم : رموه بالإكراه في الدين ، والتعصب له ، وبالفجور فيه ، وهذا ليس كذبا وافتراء على الإسلام فحسب ، ولكنه بهتان عظيم ، وفجور كبير ، فإنه ضد طبيعة الإسلام ، وأساسه وأركانه ، فقد قام الإسلام على الرغبة والاختيار ، وعلى السماحة ومكارم الأخلاق ، فلا يعزف إكراها في دين ولا تعصبا للإسلام والمسلمين ، وهو حرب على الفساد والمفسدين ، وإليك الرد على هذه الجرائم الثلاث في المباحث الثلاثة الآتية :

* * *

(١) التبشير والاستعمار للدكتور الخالدي ، والدكتور فروخ ١٣٥ .

المبحث الأول

دحض جريمة اتهام الإسلام بالإكراه في الدين

لدحض جريمة اتهام الإسلام بالإكراه في الدين أقول ما قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ فلا إكراه في الدين الإسلامي، لأنه قام على الحجة والبرهان، لا على الضغط والإكراه، فإن المكره على شيء لا يلبث أن يتركه متى سنحت الفرصة وتبَيَّات الأسباب للتخلص منه. إن ديننا يحذر من استخدام أية قوة لحمل الناس على الدخول فيه، فإن نوره جدير بأن يخترق الحجب ويضيء القلوب، ويأسر العقول. الإسلام يريد من الناس عقولهم وقلوبهم، لأجسامهم وصورهم، ولذا كان لا إكراه فيه.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنْ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سَرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا. إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنْ أَرَادْنَا أُجْرًا مِنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾^(١).

والمعنى: قل — أيها الرسول —: إن ماجئت به هو الحق من عند ربكم، فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن، فذلك خير له، ومن شاء أن يكفر فليكفر فإنه لا يضر ولا يظلم إلا نفسه، إننا أعتدنا لمن ظلم نفسه بالكفر نارًا تحيط بهم كالسرادق وإن يستغث الظالمون بطلب الماء وهم في جهنم يؤت لهم بماء كالزيت العكر الشديد الحرارة يحرق الوجوه بلهبه، أقبح بهذا الشراب لهم، وقبحت جهنم مكانا لراحتهم.

أما الذين آمنوا بالله وبدينه الحق الذي يوحى إليك، وعملوا ما أمرهم به ربهم

(١) الكهف ٢٩، ٣٠.

من الأعمال الصالحة، فإننا لانضيق أجركم على ما أحسنوا من الأعمال وقال تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرِّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (١).

والمعنى : لا إكراه في دخول دين الإسلام، لأن الإيمان خضوع وإذعان، وذلك لا يكون بالإكراه والإلزام، وإنما يكون بالحجة والبرهان، قد ظهر أن في هذا الدين الرشد والفلاح، وأن ماخالفه غي وضلال، وهذه الآية ومثيلاتها شاهد قاطع وحجة قائمة على من زعم من أعداء الإسلام أنه ماقام إلا والسيف ناصره، فكان يعرض على الناس فإن قبلوه نجوا، وإن رفضوه حكم فيهم السياف وتاريخ الإسلام والمسلمين أكبر شاهد على كذب من يتهم الإسلام بإكراه الناس على الدخول فيه، وما على المكابر في ذلك إلا أن يستعرض هذا التاريخ من البداية للآن ليرينا في أي موطن من المواطن استخدم المسلمون فيه القوة ليكرهوا الناس على الدخول في الإسلام.

سبب نزول الآية : ويؤكد أن الدين الإسلامي لا يكره أحدا على الدخول فيه ماجاء في سبب نزول هذه الآية، وهو مارواه ابن جرير عن ابن عباس قال : نزلت ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..﴾ في رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلما، فقال للنبي ﷺ : ألا أستكرهما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله الآية (٢).

وقال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣) وقال — مخاطباً رسوله — : ﴿فَذَكَرْ إِذَا أَنْتَ مَذْكُورٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ﴾ (٤).

الإسلام والحرب :

وإذا كان الإسلام قد حارب فإنه حارب مظلوماً لا ظالماً، ومضطراً لا مختاراً، فقد سار المسلمون في دعوتهم إلى الإسلام على المنهاج الذي رسمه الله لهم في القرآن بقوله : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِالَّتِي هِيَ

(٣) يونس ٩٩ .

(١) البقرة ٢٥٦ .

(٤) الغاشية ٢١ ، ٢٢ .

(٢) لباب النقول للسيوطي ١ / ٥٠ .

أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴿١﴾، وسالموا الناس، ولكن خصوم الإسلام لم يسالموهم، وأذا قوهم العذاب ألوانا، وصبوا عليهم البلاء صبا. مضى على ذلك ثلاثة عشر عاما، استشهد فيها بعض المسلمين تحت العذاب، والمشركون لا يزدادون في تعذيبهم إلا تفننا في التعذيب وطغيانا في الظلم، ودبروا المؤامرة الكبرى لقتل الرسول ﷺ حتى يموت وتموت دعوته، ويخلو الجو للشرك والوثنية، لولا عناية الله التي أفسدت تدبيرهم، وأبطلت كيدهم.

فاضطر المسلمون إلى الهجرة متسللين فرارا بدينهم، وصادرت قريش ديارهم وأمواهم بمكة، واشتدوا في تعذيب من لم يستطع الهجرة، وقتنته في دينه، وقعدوا للمسلمين في المدينة كل مرصد، ووقفوا لهم في كل طريق، وسدوا عليهم أبواب رزقهم، وقطعوا عليهم طرق تجارتهم، وألبوا ضدهم قبائل العرب، وحاكوا معهم المؤامرات للقضاء على المسلمين، حتى تموت دعوة التوحيد أمام جحافل الشرك والوثنية عند ذلك أذن الله للمسلمين في قتال أعدائهم حماية لدعوة التوحيد وعبادته، وأماكنها مصورا حالهم أعظم وأروع تصوير، فقال تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ (٢) وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات (٣) ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكانهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴿٤﴾.

أسباب مشروعية القتال في الإسلام:

والله سبحانه حينما شرع القتال في الإسلام دفعا للضرر عن المسلمين، شرعه لأحد الأمور الآتية:

(١) النحل ١٢٥

(٢) أى أذن الله للذين يعتدى عليهم غيرهم أن يدافعوا عن أنفسهم ولو بالقتال بسبب ظلم الغير لهم .

(٣) الصوامع: معايد رهبان النصارى، والبيع: كنائس النصارى، واحدها بيعة بكسر الباء، والصلوات: كنائس اليهود .

(٤) الحج ٣٩ : ٤١ .

١ - دفع العدوان على الأنفس والأموال والأوطان فقال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾^(١).

٢ - منع فتنه المسلمين في دينهم، ليكون الدين خالصاً لله، قال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله...﴾^(٢).

٣ - الأخذ على أيدي العابثين بالأمن الذين يخونون العهود، وينقضون المواثيق ولا يحترمون ما بينهم وبين المسلمين من معاهدات، ويشوهون حقائق الإسلام، وينفرون الناس منه، قال تعالى: ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد جهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لأبجان لهم لعلمهم ينتهون﴾^(٣).

٤ - تخليص الجماعات والشعوب المستضعفة، والعجزة من الرجال والنساء والولدان من بطش الأقوياء وسطوتهم، ودفع الظلم عنهم، قال تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾^(٤).

فإذا سالمتنا الغير، ولم يحصل منه اعتداء بأى وجه من الوجوه السابقة، أو أراد حل النزاع بيننا وبينه بالتحكيم فراراً من إزهاق الأرواح وجبت مسالمته وقبول التحكيم، ليعيش الناس في محبة ووثام، وأمان واطمئنان كما قال تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها على الله إنه هو السميع العليم﴾^(٥) وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾^(٦).

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم بجميع شعبه وأبوابه، وكونوا جميعاً مسلمين فيما بينكم، ولا تثيروا العصبية الجاهلية وغيرها من أسباب النزاع والخلاف، ولا تسيروا في طريق الشيطان الذى يدفعكم إلى الشقاق، فإنه لكم

(٤) النساء ٧٥ .

(٥) الأنفال ٦١ .

(٦) البقرة ٢٠٨ .

(١) البقرة ١٩٠ .

(٢) الأنفال ٣٩ .

(٣) التوبة ١٢ .

عدو ظاهر العداوة، والكيد لكم وهكذا يؤثر الإسلام السلم على الحرب، ويدعو إلى المثل الأعلى في جميع الصلوات والمعاملات فإذا لم ينجح المثل الأعلى وأكره المسلمون على الحرب كان لابد من رد الاعتداء بمثله فقط ولا نتعدها، قال تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾^(١).

فالإسلام يؤثر السلم على الحرب ما لم يكن من الحرب بد، ولا من القتال مفر

إذا لم تكن إلا الأسننة مركبا فما حيلة المضطر إلا ركوبها

ولكن الإكراه في الدين عند المسيحيين الذين يتهمون به المسلمين ظلما وعدوانا، وزورا وبهتانا :

ففي إنجيل متي ١٠ (٣٤) لاتظنوا أني جئت لألقى سلاماً على الأرض، ماجئت لألقى سلاماً بل سيفاً ٣٥. فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها ٣٦ وأعداء الإنسان أهل بيته).

وقال البابا أنوثان الثالث: عند الكلام في مصادرة الدين يخالفون العقيدة الكاثوليكية: (لا يجوز أن يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة، وترك الحياة لهم من وإحسان) فلم يقصر الجزاء على الجاحدين، ولكن عداه إلى أولادهم، وعدت ترك الحياة لأولادهم يتمتعون بها ضرباً من الإحسان إليهم لأنهم لاحق لهم في أن يعيشوا وقد جحد آباؤهم^(٢).

أين هذا مما جاء في الدين الإسلامي؟

حيث يقول تعالى في شأن الوالدين المشركين: ﴿وإن جاهدك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا..﴾^(٣).

وما جاء في صحيح مسلم^(٤) عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أو صاه في خاصته بتقوى الله

(٣) لقمان ١٥ .

(١) البقرة ١٩٤ .

(٢) الإسلام والنصرانية للإمام محمد عبده . ٣٣ (٤) في ١٢ / ٣٧ .

ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً...» .

وما رواه أبو داود عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «انطلقوا باسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»^(١).

وجاء في إنجيل متى ١٨ (١٨ الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء).

ومعنى هذا أنه إذا قال رجل الدين المسيحي لشخص: إنه ليس مسيحياً صار كذلك، وإذا قال له: إنك مسيحي فاز بها، فليس المعتقد حراً في اعتقاده، يتصرف في معارفه وأفكاره كما يهديه عقله، وكما يدعو إليه الإسلام من حرية العقيدة، وعدم الإكراه في الدين.

أين هذا مما قاله الله لرسوله — حينما دعا على بعض أعدائه —: «ليس لك من الأمر شيء»^(٢) أى ليس لك التصرف في أمر عبادى بشيء، بل الأمر لله وحده.

وما قاله أيضاً له: «وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد»^(٣) وما قاله كذلك: ﴿فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر﴾^(٤).

وهكذا الإسلام :

لا يحكم رؤساء الدين مهما كانوا في غيرهم . كما تفعلون أنتم ، ولا يكره أحداً على عقيدة ، أو يجبره على مذهب كما هو شأنكم ، فالتحكم في عقائد الناس ، وإكراههم في الدين عند النصارى لا عند المسلمين ، وإن لم تكتف بهذا فإليك المزيد :

١ - صدر الأمر من محكمة التفتيش في ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢ م بأن كل يهودى

(٣) آخر ق .

(٤) الغاشية ٢١ ، ٢٢ .

(١) في ١ / ٤٠٨ .

(٢) آل عمران ١٢٨ .

لم يقبل المعمودية في أى سن كان، وعلى أى حال كان، يجب أن يترك بلاد أسبانيا قبل شهر يوليه، ومن رجع منهم إلى هذه البلاد عوقب بالقتل، وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون من عقار، ومنقول بشرط ألا يأخذوا في الثمن ذهباً ولا فضة، وإنما يأخذون الأثمان عروضاً وحوالات.

ومن ذا الذى يشتري اليوم بثمان ما يأخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن؟ يعنى أن أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الذى تم في يوليه.

وصدر أمر (توركماندو) ألا يساعدهم أحد من سكان أسبانيا في أمر من أمورهم، وهكذا خرج اليهود تاركين كل ما يملكون بأرواحهم، على أنه لم ينج الكثير منهم، فقد اغتالهم الجوع، ومشقة السفر مع العدم والفقر.

وفي فبراير سنة ١٥٠٢ م نشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من أشبيلية وما حولها، من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد أسبانيا قبل شهر أبريل، وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون على الشرط الذى وضع لليهود ولكن وضع للمسلمين شرط آخر، وهو ألا يذهبوا في طريق يؤدي إلى بلاد إسلامية، ومن خالف فجزاؤه القتل، فهؤلاء المساكين نفوا جميعاً إلى القتل، إن لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع فالموت ملاقيهم بالتعب مع العرى والجوع^(١).

٢ — عاهد فرديناند العرب على منحهم حرية الدين واللغة بعد أن انتصر عليهم سنة ١٤٩٢ م، ولكن لم تحل سنة ١٤٩٩ حتى حل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذى دام قروناً ولم ينته إلا بطردهم من أسبانيا.

وكان تعميم العرب كرها فاتحه ذلك الدور، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المعمدين بزعم أنهم ليسوا من النصارى، واستمرت مدة، لأن إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة متعذر.

وقد نصح كرينال طليطلة التقى الذى كان رئيساً لمحاكم التفتيش بقطع رعوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساءً وشيوخاً وولداناً، ولم ير

(١) الإسلام والنصرانية للإمام محمد عبده ٣٨، ٣٩.

الراهب الدومينيكي (بيلدا) الكفاية في ذلك، فأشار بضرب رقاب من تنصروا من العرب، ومن بقوا على دينهم، وحجته أنه من المستحيل معرفة الصادقين من الكاذبين في تنصرهم، فمن المستحب إذن قتل جميع العرب بجد السيف، ليحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى، فيدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم .

ولم تر الحكومة الأسبانية أن تعمل بمشورة ذلك الدومينيكي الذي أيده الإكليروص لصعوبة تنفيذه، فأمرت في سنة ١٦١٠ م بإجلاء العرب عن أسبانيا، فقتل أكثر المهاجرين في الطريق .

وأبدى الراهب البارغ بيلدا ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع المهاجرين، وهو الذي قتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة، كانت مؤلفة من مائة وأربعين ألفاً من المسلمين في طريقهم إلى أفريقيا .

وبذلك خسرت أسبانيا في بضعة أشهر مليون مسلم من رعاياها، ويقدر كثير من العلماء— ومنهم سيديو— عدد المسلمين الذين خسرتهم أسبانيا منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى إجلائهم الأخير بثلاثة بلاين، ولا تعد ملحمة سان بارتلمي إزاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يؤبه له .

ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين .

ومما يرثى له أن فقدت أسبانيا عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية^(١) .

٣— في الحروب الصليبية استولى الغرب على الأراضي المقدسة، وتم انتخاب (جودفروي) دوق لورين وقائد الحملة ملكاً على أورشليم بعد ظهر يوم الجمعة ١٥ يولييه سنة ١٠٩٩ م في مشهد تاريخي رهيب، يقول عنه جيون: (إن خدام رب المسيحيين رأوا باعتقادهم الأعمى أن يكرموه بذبح سبعين ألفاً من المسلمين تعظيماً وإجلالاً وزلفى، وقرباناً له، ولم يرحموا كبار

(١) حضارة العرب لجوستاف لوبون ص ٣٣٤ .

السن، والأطفال والنساء وقد استمرت هذه المذبحة ثلاثة أيام، وإن من احتفظوا بهم من الأسرى دون أن يقتلوا إنما يرجع بقاؤهم على قيد الحياة إلى التعب والإجهاد الذي أصاب الصليبيين لكثرة ما قاموا به من القتل^(١).

وكتبوا إلى البابا يهنئونه، ويقولون له: ثق أنه في إيوان سليمان ومعبده كانت خيولنا تخوض في بحر من دماء المسلمين.

وحينما دخلوا مدينة طرابلس الشام دمروا فيها وحدها دار كتب بها ما يزيد على ثلاثة آلاف ألف كتاب مخطوط^(٢).

وبعد تسعين سنة من مجزرة القدس فتحها صلاح الدين فماذا فعل؟ لقد كان فيها ما يزيد على مائة ألف غربي بذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وسمح لهم بالخروج لقاء مبلغ قليل يدفعه المقتدرون منهم، وأعطاهم مهلة للخروج أربعين يوماً.

فجلا منها أربعة وثمانون ألفاً لحقوا بإخوانهم في عكا وغيرها، ثم أطلق كثيراً من الفقراء من غير فدية، وأدى أخوه الملك العادل الفدية عن ألف رجل منهم، وعامل النساء معاملة لاتصدر عن أرقى ملك منتصر في العصر الحديث^(٣).

وهكذا كان المسلمون رحماء، لا يمثلون بالقتلى، ولا يخربون العمران، ولا يجبرون أحداً على نبذ دينه واعتناق الإسلام، ويقابلون السوء بالإحسان، وكان غيرهم في منتهى القسوة والوحشية على إخوانهم في الإنسانية.

٤ — وما رأيك في سياسة اضطهاد المسلمين في هذا العصر في كل مكان؟ أليس يقف من ورائها الاستعمار المسيحي سواء في زنجبار، أم الهند، أم الفلبين، أم الحبشة التي قضت على أريتريا المسلمة، أم تشاد، أم أوغندا، أم غيرها من البلاد ذات الأقلية المسلمة؟

(١) من الحروب الصليبية إلى حرب السويس (محمد علي الفتيت).

(٢) راجع الحركة الصليبية لعبد الفتاح عاشور في جزئين.

(٣) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي ص ١٠٧.

القوة لاتنتشر ديناً :

١- لو كانت القوة هي التي تنتشر الدين لما ذاع الإسلام في مكة، والنبي ﷺ وأصحابه قلة لا يملكون من القوة ما يحمون به أنفسهم من أذى المشركين، ولما انتشر في المدينة قبل أن يهاجر إليها المسلمون حتى عم كل دار فيها، ولما صار له في أيام ضعفه أتباع في إنجلترا وأمريكا، وأستراليا واليابان .

ولو كان القهر والسلطان هو الذي انتشر الدين لما اعتنق الإسلام الغالبون على دياره وأهليه من الأتراك السلاجقة والمغول وغيرهم بطريقة جماعية ففي سنة ٣٠٩هـ، ٩٢٢م اتصل ملك الفولجا بالخليفة العباسي المقتدر بالله يريد الإسلام، فبعث إليه المقتدر من يرشده إلى الإسلام، فأسلم هو وشعبه وفي عام ٦٨١ هجرية، ١٢٨٢م أسلم أحد سلاطين المغول بأرض فارس، وهو تكودا رخان، وذلك في عهد السلطان قلاوون بمصر^(١) .

وفي الرابع من شعبان سنة ٦٩٤ هـ التاسع عشر من يونيو سنة ١٢٩٥ م اعتنقت الإسلام شعوب المغول في عهد ملكهم غازان خان، وصار هو الدين الرسمي لدولتهم، ودخل فيه في يوم واحد مائة ألف منهم^(٢) .

٢- لو كانت القوة هي التي تنتشر الدين لما انتشر الإسلام في أقطاره العديدة في وسط أفريقيا، وساحلها الشرقي والغربي، ولا في الهند والملايو، وجزر أندونيسيا والصين، وغيرها من الأقطار التي انتشر فيها الإسلام، ولم يدخلها المسلمون بجيوشهم فاتحين .

ففي العقد الفريد لابن عبد ربه ١ / ٦٠ عن نعيم بن حماد قال : بعث ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً فيه :

من ملك الأملاك الذي هو ابن ألف ملك ، والذي تحته ابنة ألف ملك ، والذي في مربطه ألف فيل ، والذي له نهران ينبتان العود والألوة ، والجوز والكافور ، والذي يوجد ريحه على مسيرة اثني عشر ميلاً .

(١) ١ : ٦٥ - ٦٨ ، ٧ : ٢٣٧ - ٢٤٢ من صبح الأعشى للقلقشندي، وراجع المغول بين المسيحية والإسلام، والمغول في إيران : لمصطفى طه بدر .

(٢) خلود الإسلام ٢٦ .

إلى ملك العرب الذى لا يشرك بالله شيئاً. أما بعد— فأنى قد بعثت إليك بهدية^(١)، وماهى بهدية، ولكنها تحية، قد أحببت أن تبعث إلى رجلاً يعلمنى ويفهمنى الإسلام. والسلام أ. هـ.

ولذا قال الإمام محمد عبده: (٢)

لو كان السيف ينشر ديناً فقد عمل في الرقاب للإكراه على الدين، والإلزام به مهدداً كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش، ووفرة العُدد، وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها، وابتداءً ذلك العمل قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون كاملة، واستمر في شدته بعد مجيء الإسلام سبعة أجيال، أو يزيد، فتلك عشرة قرون كاملة، لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الإسلام في أقل من قرن.

هذا ولم يكن السيف وحده، بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته، مع غيرة تفيض من الأفئدة، وفصاحة تندفق على الألسنة، وأموال تخلب أبواب المستضعفين، إن في ذلك لآيات للمستيقنين. اهـ.

وقال أيضاً^(٣): كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها، يلجئون على الناس بيوتهم، ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر، وبرهانهم الغلبة، وحققتهم القوة، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين، ولم يعهد في تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون، لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل في نشره، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة.

وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلاً وإحساناً عندما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفاً. أ. هـ.

(١) يعنى بالهدية الكتاب الذى أرسله إلى عمر رضى الله عنه.

(٢) في رسالة التوحيد ١٩٠، ١٩١. (٣) في رسالة التوحيد ١٨٤.

المبحث الثاني

دحض جريمة اتهام الإسلام بالتعصب

لدحض جريمة اتهام الإسلام بالتعصب أقول: الإسلام لا يعرف التعصب ولا التمييز العنصري، وإنما يعرف ذلك من رماه به .

ذلك أن الإسلام — أيها المتجنني عليه — رحب الصدر، سمح المعاملة، لم يضق ذرعاً بالأديان السماوية كلها، لأن شعاره ﴿ فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾^(١)، فقد أمرنا الإسلام بالمودة والبر، والقسط والعدل مع الناس كافة، مسلمين وغير مسلمين ماداموا لم يقاتلونا في الدين، ولم يعتدوا على المسلمين، فقال تعالى: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾^(٢) وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾^(٣) شهداء لله^(٤) ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا^(٥) أو تعرضوا^(٦) فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾^(٧) وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شتان قوم على ألا تعدلوا ﴾^(٨) اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون ﴾^(٩) وقال: ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾^(١٠).

وقال ﷺ: « وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »^(١١).

(١) الزمر ١٧، ١٨ .

(٢) النحل ٩٠ .

(٣) أي لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل .

(٤) مداومين على القيام بالعدل .

(٥) المائة ٨ .

(٦) شهداء بالحق لوجه الله تعالى، لا لغرض دنيوي (١٠) الممتحنة ٨ .

(٧) أي تلووا أستمعتم في الشهادة بأن تأتوا بها على غير وجهها (١١) اللؤلؤ والمرجان ٢ / ١٨٦ .

(٨) تمنعوا عن أدائها .

والقاعدة التي جاء بها الإسلام، واتفق عليها أولو الأمر من المسلمين في معاملة الذميين هي (لهم مالنا وعليهم ما علينا) ولذا قال ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً» رواه البخاري^(١)، وقال: «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة» رواه أبو داود والبيهقي في سننهما عن زيد بن ربيع^(٢).

وزيادة في الحفاظ على أرواح أهل الذمة وأعراضهم وأموالهم نهى عمر رضي الله عنه أن تجعل بلادهم ميداناً للحرب حتى لا يصابوا بأضرارها في الأنفس أو الأموال، أو غير ذلك كما نهى أن يكلفوا بما يعجزون عن دفعه فقال - موصياً الخليفة الذي يأتي بعده - : «وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم» رواه البخاري عن عمرو ابن ميمون^(٣)، وقال عمر: «أوصيكم بذمة الله فإنه ذمة نبيكم ورزق عيالكم» رواه البخاري عن جويرية بن قدامة التيمي^(٤).

وأمر الإسلام باحترام أماكن عبادة أهل الذمة والمحافظة عليها والدفاع عنها مثل مساجد المسلمين تماماً فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُمْ صَوَامِعَ وَبِيَعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾^(٥).

ومن عدالة الإسلام السامقة مع أهل الذمة أنه أباح لأهل مدينة سمرقند أن يشكوا القائد الإسلامي قتيبة بن مسلم الباهلي إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأنه قد دخل مدينتهم غدرًا، وأسكنها المسلمين بغير حق، فأرسل عمر إلى والي خراسان سليمان بن أبي السرح يأمره بعرض هذه القضية على القاضي جميع بن حاضر البلخي، فقضى القاضي بأروع حكم في التاريخ، قضى بأن يخرج الجنود منها إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء، فيكون صلحا جديداً، أو ظفرا عنوة، وهذا حكم لم تعرفه الدنيا إلا للإسلام، وعدالة لم يعرفها التاريخ لغير المسلمين من أم الأرض أجمعين، عدالة عالية شائخة حتى في ميادين الحروب، وساحات القتال.

(٤) في ٤ / ٢٠٩ .

(٥) الحج ٤٠ .

(١) في ٤ / ٢١١ .

(٢) الحراج ليحيى بن آدم ٧١ .

(٣) في ٤ / ١٦١ .

لذا قاله أهل سمرقند: هذه أمة لا تحارب، لأن حكمها رحمة ونعمة، ورضوا ببقاء الجيش بينهم، وأن يقيم المسلمون بين أظهرهم^(١).

وهذه العدالة التي جاء بها تشريع القرآن هي التي حببت الإسلام إلى من كانوا أعداءه، وردوا إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه.

فعندما كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانت سيرته قد بلغتهم أسلم ملوك السند وتسموا بأسماء العرب^(٢).

وهكذا — يا أخى — يرمى الإسلام حقوق مواطنيه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، ويسوى بينهم في كل شيء بلا تفرقة لدين أو جنس أو لون، أو غنى أو فقر، أو رئيس أو مرعوس.

ويسمح لامرأة فقيرة غير مسلمة من سكان مصر أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير مصر عمرو بن العاص، وما كان يريد لنفسه، ولكن ليوسع به مسجد المسلمين، فلما صمم على أخذه مع دفع أضعاف ثمنه، رفعت شكواها لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فأمر برد بيتها إليها مع لوم عمرو على ما كان منه.

ويسمح لليهودى أن يخاصم أمير المؤمنين على بن أبى طالب، ويقف معه للتقاضى أمام قاضيه، إلى أن قضى الحق بينهما من غير ضجر ولا تألم^(٣) هذا هو موقف الإسلام العادل، ومنهاجه السماح مع أهل الذمة، ومنهاج يلين القلوب القاسية، والعواطف المتحجرة.

والحديث في عناية التشريع القرآنى بأهل الذمة، وحسن معاملة المسلمين لهم يطول، تصفحوا تاريخ الإسلام من مبدئه للآن فلن تجدوه أرغم من تحت سلطانه على الدخول فيه، عكس المسيحية تماماً.

أرونا أى شعب من شعوب أهل الكتاب يعامل من تحت سلطانه من غير أهل دينه بمثل هذه المعاملة؟ أخبرونى عن أى دين أو شريعة أو قانون جاء بما جاء به

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ٢ / ١٨١ . (٣) رسالة التوحيد ١٨٨ .

(٢) المرجع السابق ١٨٧ .

الإسلام من مساواة الغير بالمسلمين مساواة كاملة، ومن رحمته لغير أهله رحمة شاملة؟

فحق لكل إنسان أن يؤمن بأن شريعة القرآن خير الشرائع، وأن ماجاء به محمد ﷺ هو أكمل ماجاء به رسول، وصدق الله ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾^(١).

شهادة أحرار الغرب بسماحة الإسلام :

إن سماحة الإسلام ليس لها نظير في تاريخ الأديان السابقة، والعصور الماضية، وقد أجمع المؤرخون المنصفون الغربيون الذى يحترمون الحق على تسامح الإسلام، وأشادوا به، وإليك جانباً من هذه الشهادات :

١ — شهد البطريق (عيشويابه) الذى تولى منصبه سنة ٦٤٧ — ٦٥٧ هـ بأن (العرب الذين مكثهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون. إنهم ليسوا أعداء للنصرانية، بل يمتدحون ملتنا، ويوقرون قديسنا، وقسيسنا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وديننا)^(٢).

٢ — وقال الحبر ميشون: ولقد أيقنت من تتبعى للتاريخ أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع فى المعاشرة عن الغلظة، وتدل على حسن مساورة، ولطف ومعاملة، وهو إحساس لم يشاهد فى غير المسلمين إذ ذاك، خصوصاً أن الشفقة والرحمة والحنان كانت أمارات ضعف عند الأوربيين، وهذه حقيقة لأرى وجها للطعن فيها^(٣).

٣ — وقال الكونت هنرى دى كاسترى: وإذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام إلى استقرار حكومته استقراراً منظماً رأيناه أكثر محاسنة، وأنعم ملمساً بين مسيحي الشرق على الإطلاق، فما عارض العرب قط شعائر الدين المسيحي، بل بقيت روما نفسها حرة فى المراسلات مع الأساقفة الذين كانوا يرعون الأمة الخالية^(٤).

(٣) الإسلام للكونت هنرى دى كاسترى ٤٤ .

(١) المائة ٣ .

(٤) الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد ٥١ .

(٢) أهل الذمة فى الإسلام لتريتون ١٤٩ .

٤- وقال السير توماس أرنولد: لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح^(١).

٥- وذكر نورمان بينز: أنه لما فتح العثمانيون القسطنطينية كان أكثر الشعب المسيحي في عشية الكارثة ينفرون من أى اتفاق مع كنيسة روما الكاثوليكية أشد من نفورهم من الاتفاق مع المسلمين، وما زال الناس يرددون الكلمة المشهورة التي نطق بها رئيس ديني في بيزنطة في ذلك الحين وهي: إنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية في مدينتنا من أن نرى فيها تاج البابوية^(٢).

٦- وقال جوستاف لوبون: إن القوة لم تكن عاملاً في نشر القرآن، وإن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا كان بعض النصارى قد أسلموا واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس بمثله عهد، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى، وقد عاملوا أهل سوريا ومصر وإسبانيا، وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم، وحفظ الأمن بينهم.

والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم^(٣).

٧- ويقول السير (مارك سايس) في وصف الأمة الإسلامية في عهد الرشيد: وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة^(٤).

٨- ويقول المستر (درابر) الأمريكي المشهور: إن المسلمين الأولين في زمن

(٣) حضارة العرب لـجوستاف لوبون ١٤٥.

(١) المرجع السابق.

(٢) الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز ٣٩١. (٤) من روائع حضارتنا للدكتور السباعي ٩١.

الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام، ورقوهم إلى مناصب الدولة حتى إن هارون الرشيدى وضع جميع المدارس تحت مراقبة حناين ماسويه، ولم يكن ينظر إلى البلد الذى عاش فيه العالم، ولا إلى الدين الذى ولد فيه، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة^(١).

وهكذا: ظهر لكم— أيها المتحاملون على الإسلام— بشهادة إخوة لكم أنه ليس في الإسلام تعصب ضد اليهودية أو المسيحية، أو ضد أى جنس أو لون، وليس فيه اتهام لنسبى، أو تهجم على رسول، وأنه جاء بالعقيدة الصحيحة بعد أن كان الناس منها خلاء، وبالشرعية العادلة التى يكون الناس أمامها سواء، وبالأخلاق الفاضلة التى لا يقوم أى مجتمع إلا بها، وبالنظم التى لا بد منها لحياة الفرد والأمة والإنسانية جمعاء.

تعصب المسيحية ضد الإسلام:

كان من الخير للمسيحيين الذين يكتبون ضد الإسلام، ويرمونه بما ليس فيه ألا يفتحوا على أنفسهم هذا الباب، فإن مساوئهم في التعصب لا تقف عند حد، ومخازيمهم فيه لا يحصيها العد.

١— ألم يثبت الأستاذ باييه أن السبب الرئيسى، بل السبب الوحيد الذى جعل الامبراطور قسطنطين يتخذ المسيحية ديناً رسمياً، إنما هو مارآه فيها من التعصب، الذى لا يوجد في غيرها من الأديان التى كانت منتشرة إذ ذاك في روما ورأى أن هذا التعصب نفسه هو الذى سيربط الامبراطورية برباط من حديد فيكون ذلك مقاوماً لعوامل التفكيك التى تسرى في شرايين الامبراطورية فقد نظر في الأديان الموجودة فوجدها ثلاثة أديان متعادلة كل منها يصرع الآخر ليصرعه، ولم يكن نظره فيها للهداية والرشد، أو النجاة في العالم الأخرى وإنما كان ينظر في الأديان ليرى أنها أشد تعصبا، وأشد تهيؤاً واستعداداً للتفكيك بالمخالف، فرأى أن المسيحية يتوافر في رجالها ذلك،

(١) المصدر السابق، والمستر درابر كان مدرسا بجامعة نيويورك بالولايات المتحدة، وهو من أشهر علماء الاجتاع، وله كتاب (المنازعة بين العلم والدين).

فاختارها ديناً رسمياً للدولة من أجل هذا السبب فحسب^(١).

٢- ألم يكن امبراطور القسطنطينية هو العامل الأكبر والمحرك الأعظم للأحداث في الحروب الصليبية، والقوة الكبرى في إشعال نيرانها^(٢).

٣- ألم يدفعه التعصب ضد الإسلام إلى أن يقف وراء التثار يشجعهم، ويظاھرهم ويزين لهم صنع ما صنعوا، من تدمير في العالم الإسلامي^(٣) وليس أدل على ذلك من أن هيتون ملك أرمينية المسيحي كان العامل الرئيسي في إقناع مانجوخان (سنة ٦٤٦ - ٦٥٥ هـ) بإرسال الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاکو سنة ٦٥٦ هـ، ١٢٥٨ م، وأن هولاکو التتري والوثني زوج ابنه من ابنة امبراطور القسطنطينية المسيحي^(٤)، مع أن ذلك لا يجوز في الشريعة المسيحية.

٤- ألم يدفع التعصب الأسبان - حين استولوا على غرناطة آخر مملكة للإسلام في الأندلس، وبعد أن أعطوا المسلمين بضعا وستين عهدا باحترام ديانتهم ومساجدهم، وأعراضهم وأموالهم - إلى ألا يرعوا للمسلمين عهدا، وألا يفوا لهم بذمة، وألا يتورعوا عن سفك دمائهم، وإزهاق أرواحهم، ونهب أموالهم ولم يكذب يمشي على سقوط غرناطة اثنتان وثلاثون سنة حتى أصدر البابا أمره سنة ١٥٢٤ م بتحويل جميع مساجد أسبانيا إلى كنائس، ولم تمر بعد ذلك أربع سنوات أخرى حتى لم يبق في أسبانيا كلها مسلم واحد^(٥).

وقد سجل أبو البقاء صالح بن شريف الرندي المتوفى سنة ٧٩٨ هـ بعض هذه المخازي في قصيدته المحزنة، فقال:

فجائع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها وما لما حل بالإسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لاعزاء له هوى له أحد وانهدت ثهلان

(١) من أوروبا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ١٣.

(٢) التاريخ الوافي للأستاذ طلعت زهران وإخوانه ص ٩.

(٣) الدعوة للإسلام لأنرولد، وتوماس ترجمه حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين ص ٢٥٢، والمغول بين

المسيحية والإسلام، ومغول إيران لطفه مصطفى بدر.

(٤) المرجع السابق ٢٦٠. (٥) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي ١١٢.

أصابها العين في الإسلام فارتأت
فأسأل بلنسية ماشأن مرسية
وأين قرطبة دار العلوم فكم
وأين حمص وما تحويه من نزه
قواعد كنّ أركان البلاد فما
تبكى الحنيفة البيضاء من أسف
على ديار من الإسلام خالية
حيث المساجد قد صارت كنائس ما
حتى الحارِب تبكى وهي جامدة

حتى خلت منه أقطار وبلدان
وأين شاطبة أم أين جيان
من عالم قد سما فيها له شان
ونهرها العذب فياض وملآن
عسى البقاء إذا لم تبق أركان
كما بكى لفراق الإلف هيمان
قد أقفرت ولها بالكفر عمران
فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المنابر ترثى وهي عيدان

إلى أن قال :

يامن لذلة قوم بعد عزهم
بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم
فلو تراهم حيارى لادليل لهم
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
يارب أم وطفل حيل بينهما
وظفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
يقودها العلج للمكروه مكرهه
لمثل هذا يذوب القلب من كمد

أحال حالهم جور وطغيان
واليوم هم في بلاد الكفر عُبدان
عليهم في ثياب الذل ألوان
لهالك الأمر واستهوتك أحزان
كما تفرق أرواح وأبدان
كأنما هي ياقوت ومرجان
والعين باكية والقلب حيران
إن كان في القلب إسلام وإيمان

٥ — ألم يحمل التعصب الغربي المسيحي إلى أن يساعد روسيا في عهدها المسيحي والإلحادى في أن تضم إليها أكثر من عشر جمهوريات وأقاليم إسلامية، من أعرق البلاد في الإسلام والثروات وأن تقضى على الإسلام فيها، وهي استرخان، والأورال، وسبيريا، والقرم، وأذربيجان، وجورجيا، وأرمينية، والتركستان، أى الشمال الشرقى من العالم الإسلامى أجمع، وفيها طشقند، وسمرقند، وبخارى، ومرو، وخوارزم، وغيرها .

٦ — ألم تزرع المسيحية الغربية بمساعدة روسيا الإلحادية إسرائيل في قلب

الوطن العربي، لتمزق الصف العربي، والوحدة الإسلامية، وتشغل المسلمين بغيرهم مدى حياتهم، حتى لا يتفرغوا للقيام برسالتهم، ومسايرة ركب الحضارة .

وإمعاناً في التعصب ضد الإسلام، ومنطقة انطلاقه، أخذت المسيحية تصب عذابها على المسلمين في الشرق الأوسط بواسطة الصهيونية التي غرستها في جسمهم، وأخذت ترعاها وتحميها، وتمدها بكل ما تحتاج إليه، وتدافع عن جرائمها في الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الدولي، حتى لاتثبت عليها جريمة، أو يلصق بها اتهام ولو عثت في الأرض فساداً، فقتلت الأبرياء بالجملة، وانتهكت الحرمات، وعبذت بالمقدسات .

وليس أبله على تعصب الغرب المسيحي ضد الإسلام، والسعي في القضاء عليه في عقر داره، ومركز انطلاقه مما يقوله إيدن في مذكراته ص ٣٤٣ الطبعة الإنجليزية .

إن أمريكا راحت تنفق أموالها في الخمسينيات على نطاق مسرف، لإعانة الشيوعية في الشرق الأوسط، وكان غرض أمريكا من نشاطها السياسي والثقافي والعلمي في هذه المنطقة طيلة المائة عام الأخيرة هو تمييز المبادئ والعقائد الروحية الدينية التي يؤمن بها سكان المنطقة^(١) .

وليست في العالم كله دولة تخشى التحركات الإسلامية بمثل ما تخشاه روسيا، لأنها بدون المناطق الإسلامية فيها لاتستطيع اقتصادياً أن تظل دولة كبرى وغرض الصهيونية العالمية تمييز التراث العربي الإسلامي في المنطقة، على الرغم من تمسكها هي بتراثها الديني اليهودي .

٧- ألم يتعاون الغرب جميعه مسيحيوه، ويهوده، وملحدوه، وشياطينه على محاربة الإسلام في أي موطن، واعتباره العدو اللدود لهم، ويدبر المؤامرات ويث الفتنة ضد المسلمين في كل مكان، ويوقد نيران الحروب بينهم وبين مواطنهم بغية القضاء عليهم، كما فعل في تشاد، والسنغال، ونيجريا، وغانة، والسودان، والحبشة، ولبنان، والفلبين، وغيرها في العصر الحاضر، والماضى القريب . تصفح

(١) من خلود الإسلام للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ٢٤ نقلاً عن جريدة الحياة البيروتية في يوم

١١/١٥/١٩٧٠ م ص ٣ .

التاريخ، وراجع الصحف في ذلك لتعود بالخبر اليقين، وإليك بعض هذه الحقائق .

أ — في سنة ١٨٨٧ دعا امبراطور الحبشة يوحانس — الذي اعتلى العرش بمساعدة الإنجليز عقب انتحار سلفه — أعضاء الكنيسة إلى اجتماع هام، تقرر فيه وجوب الاقتصاد على دين واحد، وعقب الاجتماع صدر مرسوم امبراطوري بإنذار المسلمين بالحرب، أو الجلاء عن أوطانهم وأملاكهم إلى خارج الامبراطورية إذا لم يقبلوا التنصير في مدة ثلاثة أشهر، ودعم هذا القرار بأعمال وحشية ضد المسلمين، ومعارك دامية أدت إلى إخلاء العاصمة من المسلمين، وتنصير ما يقرب من خمسين ألفاً، وهجرة ما يقرب من نصف مليون إلى السودان فراراً بدينهم، ولكن الامبراطور لم يكتف بهذا، بل زحف على السودان غازياً في ١٠ مارس سنة ١٨٨٩ بجيش قوامه مائتا ألف لضرب المهاجرين، والقضاء على حركة المهدي كنصيحة الإنجليز، ولكنه فشل في حملته، فعاد يجر ثياب الذل والعار .

ب — حينما احتل الفرنسيون الجزائر، دخلوا على نية إفناء أهلها وإبادتهم، يدل على ذلك مقاله قائدهم: إنه لا بد من أن تكون الجزائر لفرنسا، ولو أبدنا أهلها، وعلل ذلك بأنهم مسلمون لا يستحقون البقاء .

إنها إذن حرب دينية، وليست حرباً مدنية، وحرب وحشية، وليست حرباً إنسانية .

ومن الذي كان ينصر الفرنسيين في تلك الحروب الفاجرة المدمرة، ويظاھرهم سرا وعلنا، ويمدهم بالسلاح والقنابل الفتاكة، والأسلحة النووية، في الوقت الذي كان العالم كله ينادى باستنكارها، ومن الذي كان يقوم بتجهيز ألف ألف من الجنود الفرنسيين بالآلات المدمرة المفضية للسكان، ويمدهم بكل ما يحتاجون إليه؟ ومن الذي كانت تسره هذه المجازر التي يدفع إليها المسلمون للقتل والتمثيل بجنثهم الطاهرة، وبقر بطون النساء، وقتل الأطفال أمام أمهاتهم، والآباء أمام أبنائهم، والأمهات وهن يحتضن الرضع؟

إنهم الإنجليز والأمريكان، وحلف الأطلنطي بأكمله، وما فعلوا ذلك إلا لأن الجزائر بلد إسلامي، لالشيء آخر .

ويؤيد ذلك مقاله وزير خارجية فرنسا في تقريره عند احتلال الجزائر عن هذا الاحتلال: (إنما هي حملة من هذه الحملات الصليبية التي توجهها أوروبا إلى الشرق بين حين وحين .

ولقد نفذوا ذلك تنفيذاً كاملاً عقب استيلائهم عليها، فصادروا الأوقاف الإسلامية، وجعلوا من المساجد مرابط لخيولهم، وحولوا أكثرها إلى كنائس، ولم يتركوا قائماً إلا قوضوه، ولا صالحاً إلا أفسدوه، وأخذوا من الأهلين أرضهم وأمواهم، ومزارعهم الخصب، واستقلوا بالتجارة، ولم يتركوا لهم من الأرض إلا القليل النادر الذي يشارف الصحراء، وتناسوا فضل الجزائريين عليهم في الحرب العالمية الثانية، حيث كانوا في مقدمة جيوش فرنسا المحاربة للألمان، وهلك منهم ما يزيد على مليون جزائري .

جـ - في القرن العاشر الهجري أسس ظهير الدين محمد بابر في الهند الدولة الإسلامية المغولية التي كانت تجمع الهند كله تحت إمارتها، وكانت أعظم دولة إسلامية في الشرق، وغالبية رعاياها من المسلمين، وظلت هذه الدولة قائمة تنشر العدل، وتحكم بين رعاياها بالقسط، إلى أن استولى عليها المستعمرون الإنجليز سنة ١٨٥٧م بعد حروب طويلة، وخلعوا آخر ملوكها ونفوه حتى مات .

وبذلوا أقصى مالمديهم من قوة مادية وتبشيرية لحمل الهند على اعتناق النصرانية، والتحول عن ديانتهم الإسلامية بعد أن قسموا شبه الجزيرة الهندية إلى دويلات صغيرة، وبثوا بينها الخلافات الحادة وأشعلوا بينهم نار العداوة حتى استطيعوا حكمهم والسيطرة عليهم حسب منهجهم الذي رسموه (فرق تسد) .

وبعد معارك طويلة دامية، وجهاد مرير راح ضحيته الآلاف المؤلفة من أبناء شبه الجزيرة الهندية، وبعد أن تقلص عدد المسلمين فيها إلى ما يقرب من الخمس بسبب التبشير والاضطهاد منحتها إنجلترا استقلالها الذي انتهى إلى تقسيمها إلى دولتين: الهند الهندوكية، وباكستان الإسلامية، وحتى لا يهتأ المسلمون في باكستان بالاستقلال أوجد لها الاستعمار الغربي مشكلة كشمير .

د - الاستعمار ومشكلة كشمير :

كشمير بلد إسلامي، وكان بمقتضى تقسيم شبه الجزيرة الهندية بين الهند

وباكستان أن تكون كشمير لباكستان الإسلامية، لأنها مجاورة لها وتلاصق حدودها، وهي إسلامية خالصة أو تكاد، ومع هذا لم تجد باكستان مساعدة من الإنجليز أو الأمريكان في ضم كشمير إليها، مع أن الهند دولة محايدة، وباكستان تسير في فلك الغرب، وعضو في الحلف المركزي الذي أنشأته أمريكا وإنجلترا، وبهذا يتضح أن عدم مساعدة باكستان في ضم كشمير إليها هو أنهم مسلمون وسياسة الغرب في الشرق إنما تسير طبقاً لهذا. فهل فعل الإسلام شيئاً من هذا؟

٨- ألم تقرأ في الأهرام مافعله المسيحيون الكاثوليك بالمسلمين في الفلبين؟

قالت الأهرام في عددها الصادر يوم الثلاثاء ٢٩ / ٢ / ١٩٧٢ م :

أ - كان المسلمون في هذه الجزر هم حكام هذه البلاد منذ عدة قرون، ولقد حاولت وكالة الأنباء أن تصف مايجرى للمسلمين هناك بأنه مجرد اضطرابات، ثم لما زاد البلاء سمته مذبحه، فلما تفاقم وتفاقم قالوا: إنها إبادة جماعية.

ب- الفتك بالمسلمين في الفلبين منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٧٠ م يحاصرونهم في المدارس، وفي المساجد، ثم يبيدونهم عن آخرهم .

ج- كثير جداً من المسلمين هناك يخرجون من ديارهم ولا يعودون؛ لأن القناصة تخطفهم وسط الأحرار وتقوم بذبحهم .

د- البيوت هناك تنهب وتتحرق، بيوت المسلمين خاصة، والأطفال يشوهون بقطع الأذان والأيدي، ويطرحون في مداخل القرى .

هـ- حضر القاهرة أحد زعماء المسلمين هناك، وهو (سالبادا بنداتون) وكشف النقاب عن البشائع والفظائع المنصبة على المسلمين هناك .

و- مما عرف ذبحهم خمسة عشر ألف قتيل، ومثلهم مفقود، أما الهاربون من أفران الإبادة فهم مائتان وخمسون ألفاً، مع تدمير ست قرى تماماً .

ز- القنابل والرصاص لا تكفي، بل تقلع العيون من الوجوه، وتزرع الأحشاء والقلوب من الأبدان .

حـ المقصود من هذه الفظائع إخلاء البلاد من المسلمين، كما فعلت إسرائيل في فلسطين في الأربعينات ليحلوا محلهم .

طـ الأمراض والجماعة يفتكان بالآلاف من المهجّرين وهم يطلبون من المسلمين الأرز والدواء لإنقاذ مايمكن إنقاذه .

ىـ طائفة (إيلاجا) هي الجماعة المسلحة في حماية الشرطة التي تقوم بالمذابح ، ويؤيدها الرئيس الفلبيني (ماركوس) وحكومته .

كـ مذهبهم كاثوليك متعصبون هجّروا المسلمين من الشمال إلى الجنوب ليحتلوا ثرواتهم وبلادهم، وليحصروهم في مقاطعتين حتى يسهل محوهم .. أُلخ ماجاء في الأهرام .

فِعجِبٌ بعد هذا ممن سوّدت وقائعه وجرائمه التاريخ؛ أن يرمى الإسلام بالتعصب . إننا نتخذه أن يأتي بواقعة ولو قرية من هذه الفظائع في أي قطر من الأقطار التي بسط عليها الإسلام سلطانه، ونشر عليها رايته في مدى أربعة عشر قرناً .

٩ـ ألم يدفع التعصب المسيحية إلى أن تمد يديها إلى الوثنية المادية والوثنيات الأخرى تستعين بها في محاربة الإسلام، وفي القضاء عليه في بلاده، وفي بلاد كانت إسلامية آمنة مثل: ألبانيا، ويوغسلافيا، والتركتستان الشرقية والغربية، وزنجبار، والفلبين، وموزمبيق، وغيرها .

وليس أدل على تعاون الغرب مع الوثنية والشيطان للقضاء على الإسلام، مما قاله كاسترو للسفير الإسرائيلي في بلاده— كما ذكرته صحف كوبا وإذاعتها وترجمته عنها صحفنا العربية— قال ناصحاً :

على إسرائيل ألا تترك الحركة الفدائية تتخذ طابعاً إسلامياً دينياً، حتى لا يجعل من حركاتهم شعلة من نار الحماس الديني، مما يجعل من المستحيل على إسرائيل أن تصون كيانها؛ لأنّ الفداء إذا تملكته عقيدة دينية، وبخاصة في المجتمعات الإسلامية، تلاشت أمامه كل العقائد الأخرى، بما فيها المركسية^(١) ومن قول أحد

(١) خلود الإسلام للدكتور محمد خفاجي ص ٣٠ .

المسؤولين في ثورة عفر بالحبشة: وثورتنا ثورة إسلامية وطنية، مبادئنا نابعة من صميم ديننا، وكلنا مسلمون والحمد لله.. وليس بيننا فكر غير إسلامي.. ولذا فإنهم يشنون حربهم علينا بلا هوادة.. ولو كنا نحمل أفكارا غير إسلامية لما حاربونا هذه الحرب الشرسة.. لأنهم يدركون أن الثورات غير الإسلامية يمكن القضاء عليها بسهولة.. أما الحركة الإسلامية فلا يمكن اقتلاعها؛ لأنها تعيش في عقل كل مسلم عقيدة.. وتمثل في سلوكه عملاً.. ويقاوم من أجلها وهو ضامن إحدى الحسنين: النصر أو الشهادة^(١).

ومن قول القس صمويل زويمر للمبشرين أعضاء مؤتمر القدس الشهير الذي عقد بالمدينة المقدسة في يناير سنة ١٩١١م إبان الاحتلال البريطاني لفلسطين:

ولكن مهمة التبشير التي نددتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لاصلة له بالله، وبالتالي فلا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبهذا تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما مقمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنتكم عليه.. وتهنتكم عليه المسيحية، والمسيحيون جميعاً^(٢).

أقول: أليس إخراج المسلمين من دينهم الحق إلى أى دين سماوى تعاوننا مع الشيطان كما قال تعالى: ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾^(٣)؟

وإذا أخرج المسلمون من دينهم إلى غير دين سماوى أصلاً، أليس في ذلك تعاون صريح، ثم صريح، ثم صريح مع الشيطان، وأعوان الشيطان؟ وبعد هذا تزعمون أنكم من أتباع المسيح المؤمنين بالتوراة والإنجيل؟ ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾^(٤).

إنكم بهذا كفرتم بالله الواحد الأحد، وبكل دين سماوى، لا بالإسلام وحده،

(٣) آل عمران ٨٥ .

(٤) البقرة ٩٣ .

(١) الوعي الإسلامي أول ربيع الثاني سنة ١٣٩٦ هـ ص ٦٦

(٢) من الغارة على العالم الإسلامي ٣٩ .

وآمنت بالشیطان وبالوثنية المادية .

اتركوا التبجح وافترء الكذب — أيها القوم — ولا تلمسحوا بموسى وعيسى — عليهما السلام — فإنهما منكم براء، وقولوها صراحة — بلا لف ولا دوران حول الأديان — إنكم كفرتم بالله ورسله، وبجميع القيم والأخلاق، وآمنت بالشیطان وبالوثنية المادية، وإنكم لستم من أتباع الشيطان فقط ولكنكم شياطين من الإنس، تأمرون بالمنكر، وتنهون عن المعروف، وتكفرون بالله، وتلبسون مسوح المؤمنين به .

قولوا كلمة الكفر صراحة . فقد كفرتم بالله صراحة؛ لأنكم ضالون عن الحق ومضلون لغيركم عنه ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾^(١)، وما مثلكم إلا كما قال الشاعر :

وكنت فتى من جند إبليس فانتهى بي الحال حتى صار إبليس من جندى

١٠ — ألم يدفع التعصب المسيحية المستعمرة إلى أن تفرض حكماً استبدادياً على جميع البلاد الإسلامية التي استعمرتها، وتجعل لنفسها حق القيام على دينها، وثقافة شعوبها، وتخصهم بضروب من المعاملات، لا يحمّلها الصبر مهما عظم، ولا يطيقها التحمل مهما اشتد، حتى إذا تم لها القدرة على طردهم بعد أن تئس من إخراجهم عن دينهم وتعميدهم أجلتهم عن ديارهم، وغسلت الأرض من آثارهم، كما فعلت في جنوب إيطاليا وصقلية، وجزر البحر المتوسط، وأسبانيا، وفي كل مستعمراتها التي فيها أقليات إسلامية، وكما تفعل اليوم في الحبشة والفلبين وأستراليا وغيرها .

١١ — ألم يدفع التعصب والحرص على اضطهاد المسلمين الاستعمار المسيحي إلى أن يجعل الرئيس مسيحياً ويفرض حكماً مسيحياً متعصباً على شعوب كثيرة غالبيتها مسلمون كما فعل في قبرص وغانة ونيجيريا والسنغال وسيراليون وتشاد وغيرها حرصاً منه على مضايقة المسلمين وإذ لاهم لينفروا من دينهم ويتخلصوا منه .

١٢ — ألم يدفعكم التعصب للجنس واللون، والتمييز العنصرى إلى تحريم دور العلم والخيالة، والمعابد والمطاعم والفنادق، والمساكن والأحياء والمتنزهات الخاصة بالبيض على السود، وكذا زواج السود من البيض والعكس، وما جزاء من يتعدى ذلك

(١) . يونس ٣٢ .

إلا الهلاك، ثم بعد ذلك تغمضون أعينكم، وتغلقون عقولكم عما هو حاصل بينكم، وترمون الإسلام والمسلمين بالتعصب .

الإسلام — أيها المتجنى عليه والمتهم له بما ليس فيه — لا يعرف التمييز الدينى بينه وبين أصحاب الديانات الأخرى ، بل يعرف المساواة الكاملة بمقتضى قاعدته وقانونه الذى استخلصه من دينه (لهم مالنا وعليهم ما علينا) ، ولا يعرف التمييز العنصرى ، ولا التفرقة بين الأجناس والألوان .

فقد ولى رسول الله ﷺ أسامة بن زيد قيادة جيش فيه كبار الصحابة وخيارهم ، أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم ، وهو عبد أسود ، وابن مولاة زيد بن حارثة ، وسنه لم يتجاوز سبع عشرة سنة (١) .

وليس فى الإسلام مجتمعات للبيض وأخرى للسود كما فى أمريكا ومن على شاكلتها ، التى تحظر على الزوج السكنى فى أحياء البيض ، أو التعلم فى معاهدهم ، أو دخول فنادقهم ، أو العلاج فى مستشفياتهم ، أو التعبد فى كنائسهم ، ولا أن يعيشوا معا ، أو يتساووا فى أى شىء .

الإسلام — يامن تفترى عليه — عالمى فى دينه ، إنسانى فى حضارته ، ينظر إلى الناس جميعاً بمنظار الحق والعدل ، والمودة والبر ، ولا يرى البياض ولا السواد إلا بياض الأعمال وسوادها ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (٢) ، ولا يرى التفاضل والتمايز بين الناس إلا بالأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (٣) ، وقال ﷺ : « لافضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى ، الناس من آدم وآدم من تراب » رواه أحمد (٤) والإسلام يوجب ألا يؤدى اختلاف الناس فى أديانهم أو جنسياتهم ، أو أوطانهم إلى أن يظلم بعضهم بعضاً ، أو يتعدى بعضهم على بعض ، أو يتعالى عليه ، بل يفرض عليهم أن يتعاونوا على فعل الخير ودفع الشر ، قال تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان

(١) نور اليقين للخضرى ٢٧٠ .

(٢) آخر الزلزلة .

(٣) الحجرات ١٣ .

(٤) فى سنده ٤١١ / ٥ عن رجل من أصحاب النبى ﷺ وإسناده صحيح .

واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴿١﴾، ولذا قال الأستاذ محمد عبده: وما جاء به الإسلام هو الذى حببه إلى من كانوا أعداءه وردوا إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه .

غلب على المسلمين فى كل زمان روح الإسلام، فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم ، إلا بعد أن يجرهم الجار، فهم كانوا يتعلمونها من سواهم، ثم لا يكون إلا طائفاً يجل ثم يرتحل، فإذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب إلى سابق مألفته من الدين والمياسرة (٢).

١٣ — ألم يدفع التعصب البغيض الغرب المسيحى كله إلى أن يقف فى وجه الإسلام محاولاً صد تياره، ومنع انتشاره وإطفاء نوره، ويعلن عليه حرباً استعمارية فى جميع أقطاره، وينشر مبشره فى كل دياره، ويمدهم بكل الطاقات والإمكانيات، ويغريهم بالمكافآت، وبالسمو إلى أعلى الدرجات لتزييف حقائق الإسلام، وطمس معالمه، وإخفاء فضائله، ويوالى الطعن والتجريح فى رسوله الكريم، وكتابه العظيم فى كل مكان وزمان، محاولاً تجريد الرسول ﷺ من محاسنه ومكارمه، والقرآن من هداه وفضائله .

١٤ — ألم يدفع التعصب الغرب المسيحى إلى أن يصرح بأن القضاء على الإسلام أو على الأقل وقف توسعه عند حد هو هدف حيوى بالنسبة لفرنسا وأوروبا؟

١٥ — ألم يتساءل لويس التاسع قائلاً: هل فى وسع المسيحية أن تواصل وحدها الاطلاع بمحاربة الإسلام؟ .. وعلى ضوء تجاربه كان جوابه هو أنه لم يعد فى وسع الكنيسة أو فرنسا مواجهة الإسلام، وأن هذا العبء لا بد أن تقوم به أوروبا كلها لتضييق الخناق على الإسلام وتقضى عليه، ويتم لها التخلص من الحائل الذى يحول دون تملكها لآسيا وأفريقيا .

وأنه إذا كانت الحروب الصليبية قد فشلت عسكرياً فى تحقيق أهدافها فمما

(١) المائدة ٢ .

(٢) رسالة التوحيد ١٨٨ .

لاشك فيه أنها مهدت الطريق لزحف المبشرين كى يحققوا الهدف نفسه .

١٦- ألم يقل اليسوعيون : ألم نكن ورثة الصليبيين .. أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيري والتمدين المسيحي ، ولنعيد في ظل العلم الفرنسى وباسم الكنيسة مملكة المسيح^(١) .

١٧- ألم يدفع التعصب البغيض الغرب المسيحي على أن يدفع بكتائب التبشير إلى جميع بلاد الشرق الإسلامى ، ويؤسس لهم فيه أكثر من خمسمائة جامعة وكلية ومعهد ، فضلاً عن المستشفيات والمستوصفات الطبية ، وتقديم المعونات المالية ، وعندما وضع النظام الأساسى للجامعة الأمريكية في بيروت منذ أكثر من مائة عام أصر واضعوه على تأكيد الطابع التبشيري لها ، وعلى أن يكون كل أستاذ فيها مبشراً مسيحياً^(٢) .

١٨- ألم يقل القس صمويل في نشرته لأعضاء هيئة التبشير : تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها .

ينبغي للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرير النساء^(٣) .

وهكذا جعل الاستعمار من مبشريه بضلالهم وافترائهم نقادا للإسلام وطاعنين في القرآن وفي رسول الإسلام ، ورامين الإسلام بأنه سبب تأخر المسلمين ، ومشعلين على المسلمين نار العداوة والحقد في كل مكان. لاأريد أن أطيل في تسويد هذه الصفحات من هذا الكتاب بمساوئكم ومخازيكم التى يندى لها جبين الإنسانية ، وتقشعر منها جلود العقلاء ، ويتحدث عنها أحرار مفكريكم وهم في نخجل بالغ واستحياء مهين ، أمام مايعلمونه من سماحة الإسلام وتسامح المسلمين .

نحن لانعتدى ولكن نرد العدوان ، وما نفترى ، بل ندحض البهتان . لقد كان

(١) حقائق عن التبشير ٣١ . (٣) حقائق عن التبشير ٣٢ .

(٢) خلود الإسلام ٤٧ .

من الخير لكم — لو كنتم تعقلون ولا تحاولون طمس الحقائق — ألا تفتحوا على أنفسكم هذا الباب الذى سودتم صفحاته بمخازيكم، وملائم أوراقه بمساويكم، وأحقادكم الدفينة .

هل نسيتم مذابحكم وما فعلتموه ضد المسلمين فى الحروب الصليبية؟ وفى أسبانيا الإسلامية، وفيما استعمرتوه من بلاد الإسلام الأفريقية والأسيوية . تذكروا من أكرهتموهم على ترك الإسلام، وقتلتموهم بالجملة فى كل مكان، تذكروا محاكم التفتيش التى نصبتموها لمحو الإسلام والقضاء على المسلمين، ومرسوماتكم التى أصدرها رؤساؤكم لإبادة المسلمين فى الغرب والشرق، ومعابد المسلمين التى دمرتموها من أقطار بأكملها، وأخليتموها من مدن بجملتها، والتى انتهكتموها، والفجور الذى ارتكبتموه فى كل قطر حللتم به، تذكروا كل هذا ولا داعى إلى التفصيل خشية التطويل .

ثم اذكروا لنا أية جماعة فى أى قطر فى الأقطار قتلهم المسلمون لإكراههم على الدخول فى دينهم، وأية كنيسة هدمها المسلمون إكراها فى أى من البلاد التى فتحوها؟ ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ .

ولا تدعوا على الإسلام والمسلمين ما هو فيكم وليس فيهم إن كنتم تعقلون ماتقولون .

* * *

المبحث الثالث

دحض جريمة اتهام أصحاب محمد ﷺ بالفجور

لقد رمى المنسنيور كولى فى كتابه « البحث عن الدين الحقيقى » أصحاب محمد ﷺ ، بالفجور كما سبق ذكره فى أول هذا الفصل ، وتلك ثلاثة الجرائم ، وكبرى العظام ، وكيف لا تكون كذلك ؟ .

وقد عارض بها شهادة الله جل جلاله ، وشهادة رسوله ﷺ ، وشهادة المنصفين من أهل الكتاب ، وشهادة الواقع الفعلى الذى سجله التاريخ المتواتر هؤلاء القوم الفضلاء .

أيها المتجنى على الرسول الكريم وصحبه الأطهار ، هل كنت حين تكلمت بذلك غائب العقل ، أو جاهلاً بالإسلام ، وبسيرة محمد ﷺ ، وأتباعه ، فانطلقت تهرف بما لا تعرف ، فأظهرت جهلك ، وفضحت أمرك ؟ أم كنت مكابراً فى الحق حسداً وحقدأ على الرسول الكريم ، وأصحابه الفضلاء ، فنطقت بالباطل فى وجه الحق المبين الذى سجله فى كتابه رب العالمين ، ونطق به الرسول الأمين ، والأحرار المنصفون ؟ .

إن كنت لا تعلم فتلك مصيبة وإن كنت تعلم فالمصيبة أعظم

لقد قال فيهم ربهم الذى خلقهم ، واختارهم — وهو أعلم بهم — أصحاباً لمحمد ﷺ : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ (١) فقد وصفهم ربهم بالإيمان الصادق والخيرية الممتازة ،

(١) آل عمران ١١٠ .

والأخلاق الكريمة ، والحرص على تقديم الخير للغير ، ثم ترميمهم أنت — أيها الجاهل بهم — بالفجور ، إن هذا ليهتان عظيم .

كما شهد لهم ربهم بالنبل والفضل ، وكإل الخلق مع الله وخلقه ، وسجل شهادته لهم بذلك في قرآنه الكريم ، وفي التوراة والإنجيل ، ووعدهم في الدار الآخرة بالمغفرة السابعة والأجر العظيم فقال عز وجل :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم (١) في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه (٢) فأزراه (٣) فاستغلظ (٤) فاستوى (٥) على سوقه (٦) يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم (٧) مغفرة وأجرًا عظيماً ﴾ (٨) .

وكرمهم الله بعدة تكريمات ، فاصطفاهم على غيرهم من الأمم ، ويسر لهم أمور دينهم ، وجعل دينهم شريفاً شرف البيت العتيق ، وسماههم المسلمين في الكتب السابقة وفي القرآن الكريم ، ثم منحهم ربهم ميزة لم تحلم بها أمة من الأمم ، فرفعهم إلى منزلة ما بعدها منزلة ، وسما بهم إلى درجة لم يصل إليها غيرهم ، فجعلهم يوم القيامة شهداء على الأمم جميعها ، ورسولهم شهيداً عليهم ، وقد ذكر الله هذه التكريمات الخمس فقال مخاطباً لهم : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ (٩) .

(١) علامتهم التي تميزهم عن غيرهم .
(٢) شطأه قال الكسائي : يعني طرفه الأعلى ، وفسره بأنه السنبل ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ استوى على سوقه ﴾ .

(٣) قواه والمراد قوى الزرع سنابله بما يغذيها به لجودته .

(٤) صار هذا السنبل غليظاً بعد أن كان ضعيفاً .

(٥) استقر ولم تذهبه الآفات .

(٦) سيقانه ، وهي عيدانه .

(٧) (من) لبيان الجنس ، أي الذين آمنوا من جنس هؤلاء .

(٨) آخر الفتح .

(٩) آخر الحج .

وأكد الله هذه الميزة التي خصهم بها بقوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (١) وسطا : عدولا وخيارا ، لا تفرط عندكم ولا إفراط .

وقال فيهم رسولهم الذي عاشهم ، وعاش معهم في ليل ونهار ، وحضر وسفر ، وحرب وسلم . محذراً من إيدائهم ، ومبيناً فضلهم ، وأنهم في الفضل والخير لا يشق لهم غبار ، وأنهم لهم عند ربهم منزلة لا يدنو منها أحد مهما كان : « لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه (٢) » رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري (٣) .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من يرد هوان قريش أهانه الله عز وجل » رواه أحمد (٤) .

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضى الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ قال : أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيارها وأكرمها على الله تعالى « أخرجه الترمذى (٥) .

وقال فيهم عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « من كان مستناً فليستن بمن قد مات فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة . أبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » أخرجه رزين (٦) .

وقال فيهم عليّ — كرم الله وجهه — : لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر شيئاً يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ،

(١) البقرة ١٤٣ .

(٢) المد : ملاء الكفين المتوسطتين ، ولا نصيفه : نصفه ، وأحد جبل عظيم شمال المدينة المنورة .

(٣) اللؤلؤ والمرجان ٣ / ١٨٢ .

(٤) في مسنده ج ٢ حديث ١٤٧٣ .

(٥) تيسير الوصول ١ / ١٠٣ .

(٦) تيسير الوصول ١ / ٢٦ .

قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله ، يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله فما دوا كما يميد الشجر يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم (١) .

وقد شهد رجال منكم لأصحاب محمد ﷺ وأتباعه بأنهم كانوا نماذج رفيعة في الأخلاق الكريمة ، وفعل الخيرات وعمل الصالحات ، ومثلاً علياً في الطهارة والعفاف والعدالة والوفاء ، فقد جاء في البداية لابن كثير (٢) وغيرها : أنه حينما حاقت بالروم هزيمة ساحقة في يوم واحد — بالرغم من أن الروم كانوا أضعاف أضعاف عدد المسلمين — أن أحد أمراء الروم وهو هرقل أمير أنطاكية بلغ به العجب كل مبلغ حينما رآهم يولون الأدبار في كثرة ساحقة ، وعدة وافرة ، فسألهم : ويلكم ، ألبهروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، أليسوا بشراً مثلكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم في كل موطن . قال هرقل : فما بالكم تهزمون ؟ فأجابه شيخ من عظمائهم قائلاً :

من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون فيما بينهم ، ومن أجل أننا نشرب الخمر ونزني ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ونظلم ، ونأمر بما يسخط الله ، ونهى عما يرضى الله ، ونفسد في الأرض ، فقال هرقل : أنت صدقتني أهـ

وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ ، لا كما تجنى عليهم المتجنى وافتري عليهم المفتري ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ (٣) ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (٤) .

وقال بيتان رئيس فرنسا — بعد سقوطها المزمري في الحرب العالمية الثانية موضعاً لقومه أسباب الهزيمة ، ومبيناً أن الفجور عندكم لا عند أصحاب محمد ، وداعياً إلى الأخذ بوسائل النصر ، وأولها ترك الفجور — فقال :

« زنوا أخطاءكم فهي ثقيلة الموازين ، إنكم لم تريدوا نسلاً حلالاً ، وتنكرتم

(١) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ ٢٢٦ . (٣) آخر المجادلة .

(٢) الأنعام ٩٠ .

(٤) جـ ٧ ص ١٥ .

للقليم الخلقية ، ونبذتم المبادئ الروحية ، وجريتم وراء الشهوات تتمرغون في حمأة الزنا والخنا والفجور ، فانظروا إلى أين قادتكم كل هذه الخطايا والدنايا (١) .

ولقد قال البابا أنست الثالث في وصف ما فعله الصليبيون — حين قدموا من أوربا فاستولوا على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م — بإخوانهم الأرثوذكس : إن أتباع المسيح وناصرى دينه الذين كان يجب أن يستلوا سيوفهم ضد عدو المسيحية الأكبر « يعنى الإسلام » قد سفكوا الدم المسيحى الحرام ، وغرقوا فى بحاره ، هؤلاء لم يحترموا الدين ، ولا السن ولا الجنس ، فارتكبوا الزنى فى وضح النهار ، لقد سلّمت الراهبات ، والعدارى والأمهات لوحشية الجنود . أ هـ (٢)

لقد علمتم — أيها القوم — بعد هذا من هو الأحق بوصف الفجور ، ولقد فسد منطقكم ، وضاع احترامكم للنقل والعقل ، حتى بلغ ما بكم من الغباوة والجهل ، أن يسخر الباطل من الحق ، والفساد من الصلاح والتقوى ، والفجور من العفاف والطهر .



(١) من مجلة الأزهر عدد جمادى الأول سنة ١٣٧٦ هـ .
(٢) من روايع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعى ١١١ .

المبحث الرابع

سحق جريمة تشكيك المبشرين في القرآن

يقول المبشر جون تاكلي : يجب أن نستخدم القرآن — وهو أمضى سلاح — ضد الإسنزم نفسه ، بأن نعلم المسلمين أن الصحيح في القرآن غير جديد ، وأن الجديد فيه لم يبر صحيح^(١)

ويزعم المبشر نلسن وغيره : أن الإسلام مقلد ، وأن أحسن ما فيه مأخوذ من النصرانية ، وسائر ما فيه مأخوذ من الوثنية^(٢) .

وحكى الكونت هنرى دى كاسترى في كتابه « الإسلام سوانخ وخواطر » عن أحد المبشرين قوله : إن الرسول ﷺ كان يقرأ ويكتب ، فقرأ التوراة وقرأ الإنجيل وأخذ تعاليمه منهما^(٣) .

وسحقاً لهذه الافتراءات أقول : إن هذه الافتراءات مقطوع ببطلانها نقلاً وعقلاً لأمر :

١ — أن القرآن الكريم منقول إلينا عن الرسول عن جبريل عن رب العالمين بالتواتر سماعاً وكتابة ، كل سورة منه ، وكل آية وكل حرف ، وكلما يتقدم العهد يزداد حفظاً على حفظ ، فأصبح بعد حفظه وتدوينه في المصاحف مسجلاً في شرائط ، ويذاع من جميع إذاعات القرآن الكريم في جميع العالم صباح مساء ، وصدق الله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾^(٤) .

(١) واجب المسلمين في نشر الإسلام للأستاذ زيد فياض ١٩ .

(٢) مفتريات اليونسكو للأستاذ عبد الله السمان ٢٠ .

(٣) أوروبا والإسلام للدكتور عبد الحلیم محمود ٣١ .

(٤) الحجر ٩ .

فلأنه آخر كتاب وأنزل للعالمين حفظه الله من أى تحريف أو تغيير ، ليكون حجة قائمة على الناس إلى يوم الدين ، ومرور الزمن وتوالى القرون والقرآن كما هو يوم أنزل يؤكد وعد الله بحفظه .

٢ — أن القرآن الكريم تشريع شامل ، وكتاب كامل من جميع نواحيه ، فلا خلل في مبانيه ، ولا معانيه ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ (١) أى لا ريب في كونه من عند الله ، ولا في إعجازه وبلاغته ، ولا في معانيه وحكمته ، ولا في شمول تشريعه ودقته ، ولا في عدالة أحكامه وكال هدايته .

فهل يأتي بعد هذا من يشكك فيه ؟ أو يطعن فيه من أية ناحية من نواحيه ، فيقول: إن الصحيح في القرآن غير جديد ، وإن الجديد فيه غير صحيح ، أو يقول إن ما في القرآن مأخوذ من التوراة أو الإنجيل أو الوثنية ؟ يا لها من فرية ما فيها مرية .

٣ — إن هذه الافتراءات ولدت ميتة وباطلة ، فمن أنزل القرآن تحدى به الإنس والجن ، وفيهم العرب الذين عاصروا نزوله ، ونزل بلغتهم وكانوا في القمة فصاحة وبلاغة ، ونبوغاً وذكاء ، ومع ذلك عجزوا عن أن يأتوا بأقصر سورة من مثله ، فأين منهم أمثالكم ؟

قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٢) .

أى قل لهم — يا محمد متحدياً — والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذى أنزل عليك فصاحة وبلاغة وأحكاماً وتشريعاً ، وإخباراً عن المغيبات ، وبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة ونحو ذلك ، لا يأتون بمثله ولو تعاونوا وتظاهروا ، فإن ذلك غير ميسور لهم ، لأنه فوق مستواهم لفظاً ومعنى ، إذ هو من كلام الخالق القادر على كل شيء العليم الحكيم ، وشتان بين كلام الخالق القادر على كل شيء ، وبين كلام المخلوق العاجز ، ثم

(١) البقرة ٢ .

(٢) الإسراء ٨٨ .

تخداهم الله بأن يأتوا بمثل أقصر وأوجز سورة منه ، وأخبرهم بأنهم لن يستطيعوا ذلك ، فقال تعالى :

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿ (١) .

فإذا كان من عاصر نزول القرآن من العرب الذين نزل بلغتهم كانوا في القمة في جميع النواحي : من إتقان اللغة وحسن الصياغة ، ورسالة الأسلوب وتأثيره في السامعين ، والإحاطة بما يريد الكلام فيه ، ومع ذلك عجزوا عن أن يأتوا بسورة مماثلة من سور القرآن في بلاغتها وأحكامها وعلومها ، وسائر هدايتها ، عجزوا فرادى وجماعات .

فهل يستطيع أمثالكم — الذين هم دونهم في اللغة وآدابها وكل ما يتعلق بها بمراحل — أن يأتوا بسورة من مثله ؟ جربوا حظوظكم واعرضوا علينا إنتاجكم لتضحكونا وتضحكوا الناس عليكم .

٤ — لو كان محمد كاذباً والقرآن مختلفاً — كما تدعون — لما جاء بتشريعات يعجز عنها البشر ، فتشريعات البشر كل يوم في تغيير وتبديل ، ولما بقى أربعة عشر قرناً شاخماً سامقاً يتحدى العالم كله إنسه وجنه ، ولم يستطع أحد أن يقف أمام هذا التحدى ، ولم ينله أحد بشيء ، وأتباعه في ازدياد ، ولقد ظهر أنبياء أدعياء ، رماتت دعوتهم بموتهم ، لأن دعوة الكاذب لا بقاء لها .

٥ — أعداء القرآن كانوا إذا خلا بعضهم إلى بعض يشهدون له بالكمال وأنه فوق مستوى البشر .

فعتبة بن ربيعة حينما ذهب إلى النبي ﷺ يعرض عليه أموراً ليرك دعوته وينسجموا معه سمع منه النبي ﷺ كلامه ، وما عرضه عليه ، فلما انتهى من ذلك قرأ عليه النبي ﷺ أول سورة فصلت ، فعاد إلى قومه فقال لهم : والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر ،

(١) البقرة ٢٣ ، ٢٤ .

يا معشر قريش ، أطيعوني فاجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكون لكلامه الذى سمعت نبأ (١) .

والوليد بن المغيرة عم أبى جهل — وكان من النبغاء فى اللغة والنظم والنثر — سمع القرآن مرة من رسول الله ﷺ . فلما خلا بقومه قال لهم : والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ماهو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة (٢) ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو وما يُعلى (٣) .

وكارليل أحد كبار كتاب الإنجليز ، ولم يعتنق الإسلام ، ولكنه يعترف بالحق لأهل الحق فيقول : فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً ، متذرعاً بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع ... وما الرسالة التى أداها إلا الصدق والحق وما كلمته إلا صوت حق صادق ، صادر من العالم المجهول . . . وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله . . . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (٤) .

٦ — فرية أن الرسول ﷺ كان يقرأ أو يكتب فقراً التوراة والإنجيل وأخذ تعاليمه منهما أبطلها الله بقوله ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذأ لارتاب المبطلون ﴾ (٥) .

أى ما كنت — يا محمد — تتلو كتاباً ولا تخط يمينك حرفاً ، ولم تجلس إلى معلم ، ولم تستمع إلى مدرس ، بل كنت أمياً ، ومعروفاً فى التوراة والإنجيل بذلك ، قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ (٦) ولو كنت قارئاً كاتباً لارتاب فيك أهل الكتاب ، وقالوا : الذى فى التوراة والإنجيل أمى ، ومحمد ليس كذلك .

٧ — جميع معاصرى الرسول ﷺ من أهل الجزيرة العربية يعلمون أنه ﷺ أمى ، ولم يعارضه أحد فى ذلك ، وهذا أمر معلوم بالتواتر معرفة ونقلأ ، فكيف يتجرأ أحد وينكر الأمر المعروف بالتواتر ، فضلاً عن النصوص القطعية ، لا شك أن كلامه باطل .

(٤) أوروبا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ٣٧ .

(١) نور اليقين للحضرى ٥٣ .

(٢) الطلاوة بضم التاء وفتحها : الحسن .

(٣) نور اليقين للحضرى ٤٣ .

(٥) العنكبوت ٤٨ .

(٦) الأعراف ١٥٧ .

٨ - النبي ﷺ معروف في التوراة والإنجيل أنه أمي فمن ينكر ذلك فقد أنكر ما جاء فيهما من وصف النبي ﷺ .

٩ - لو استقى النبي ﷺ معلوماته من التوراة والإنجيل لقال - كما قالوا - بالثليث والحلول ، وبألوهية عيسى ، ووجد التحريف في كتابه ، كما وجد فيهما ، لكنه جاء بالتوحيد وبأن الله ليس كمثل شيء ، الذي هو موافق لفطرته ، ومطابق لوجدانه منذ نشأته ، ولا تحريف أو تبديل في كلماته .

١٠ - لو كان القرآن مأخوذاً من التوراة والإنجيل لكان غير معجز لأنه يكون من صنع البشر ، وهذا لا يقول به عاقل ، لأن كل عاقل معترف بأن القرآن معجز ، ويعلو ولا يُعلى .

١١ - لو كان القرآن مستقى منهما لما كان ناسخاً لهما ، ولما خالفهما في كثير من تشريعاته ، ولما كان كاملاً من جميع نواحيه ، ولذا قال فيه الشاطبي : إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة ، وعمدة الملة ، ونبوع الحكمة ، وآية الرسالة ، ونور الأبصار ، والبصائر وأنه لا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة غيره ، ولا تمسك بشيء يخالفه ، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه ، لأنه معلوم من دين الأمة (١) .

١٢ - وإذا كان القرآن مستقى من التوراة والإنجيل - كما يقول من يقول ، وأنه من صنع البشر ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ (٢) فإنهم بشر مثل محمد ﷺ .

١٣ - ذكرت تحت عنوان « علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن القرآن حق » أحد عشر دليلاً من القرآن الكريم يثبت هذه القضية فالذي يعارض في ذلك مكابر في الحق مجادل بالباطل فلا قيمة لهرائه ، ولا اعتبار لكلامه فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم حرصاً على منصب أو جاه ، أو منفعة في هذه الحياة . فالقرآن حق كله ، وجديد كله ، ومقطوع بصحته كله ، بل بكل حرف منه ، وصدق الله ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ (٣) .

(١) الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠ هـ ص ٢٢٤ ج ٣ .

(٢) الطور ٣٤ (٣) الإسراء ١٠٥ .

المبحث الخامس

سحق جريمة تشكيكهم في نبوة محمد ﷺ

يذلل المبشرون نهاية طاقتهم ، وأقصى جهدهم في التشكيك في نبوة محمد ﷺ ويظهر ذلك فيما يأتي :

١ - ألف الإمبراطور ما نويل الثاني « ١٣٩١ - ١٤٢٥ م » كتاباً في الرد على الإسلام وتعاليمه ، عرف فيه الإسلام بأنه ضلالة تسمى عقيدة وتحدث عن محمد ﷺ في لهجة تشف عن التهجم (١)

٢ - وجاء في كتاب مادة التاريخ الذي يدرس للصف الرابع بالمدرسة البطريركية في بيروت (٢) .

« وافق محمد في أثناء رحلته أن يعرف شيئاً قليلاً من عقائد اليهود والنصارى ، ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعته بأن الله اختاره رسولا . . . » ص ٣١ .

« والقرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما كان هو يتكلم . . . وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة » ص ٣٢ .

« وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عجل » ص ٣٦ .

« ودخلت فلسطين في سلطان الكفرة منذ القرن السابع الميلادي »

(١) حضارة الإسلام لجوستاف جرونيباوم ترجمة عبد العزيز جاويد ٦٥ : ٧١ .

(٢) ويحمل غلافه هذا العنوان « تاريخ محاضرات ج إيزاك حررها أ . ألبا للمشرق الأدنى لطلبة الصف الخامس عن العصور الوسطى » راجع التبشير والاستعمار ٦٨ - ٦٩ للدكتور مصطفى الخالدي ، والدكتور عمر فروخ .

ومعنى هذا أن محمداً ﷺ ليس مرسلأ من عند الله ، وأن القرآن مستقى من كتب اليهود والنصارى ، وأنه لم يكن يوحى إليه بشيء ، وأن الإسلام قام على الإكراه ، وأن المسلمين كفرة ، هل سمعت افتراء على الحق أعظم من هذا ؟ .

٣ - ونقل كارليل فى كتابه الأبطال عن بعض كتاب الأوربيين : « إن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً لم يكن على حق » (١) .

وقال كارليل : « ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية ، والحياة والسلطان . . . » وقال : ويزعم الكاذبون أن الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمداً وأثاره (٢) .

وقالت مجلة العالم الإسلامى الفرنساوية : فى المؤتمر الثانى العام الذى عقد بمدينة لنكو بالهند سنة ١٩١١ م ، وعرف باسمها ألقى الرئيس القس صمويل زويمر خطاباً يشير فيه إلى ارفضاض المؤتمر ، ثم وزعت على الأعضاء رقاع مكتوب عليها من جهة تذكارة مؤتمر لنكو سنة ١٩١١ م ، ومن الجهة الأخرى العبارة الآتية :

اللهم يا من يسجد لك العالم الإسلامى خمس مرات فى اليوم بخشوع انظر بشفقة إلى الشعوب الإسلامية ، وألمها الخلاص بيسوع المسيح (٣) .

ويؤخذ من كلامهم أن الذى يخلص الشعوب الإسلامية من الشدائد والملمات التى ألت بهم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور فى زعمهم ، إنما هو المسيح عليه السلام ، وفى هذا كفر منهم بالله وتكرار لرسالة محمد ﷺ وتجاهل لها .

ودحضاً لهذه الافتراءات والأكاذيب أقول :

لقد أثبت فى المبحث الأول من الفصل الثالث من هذا الكتاب بالأدلة

(١) أوربا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) من الغارة على العالم الإسلامى ٦٥ .

المتواترة القاطعة أن علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن القرآن حق ، وفي المبحث الثاني منه أن علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن محمداً ﷺ صادق في دعواه الرسالة ، وفي المبحث الثالث منه ، أن كل من لم يؤمن برسالة محمد ﷺ فهو كافر ومخلد في النار .

كما أثبت في المبحث الأول من هذا الفصل بالأدلة المتواترة القاطعة كذلك أنه لا إكراه في الدين الإسلامي .

ثم أعود لدحض افتراءات المبشرين للتشكيك في نبوة محمد ﷺ فأقول :

١ — إن كل افتراءات المبشرين في هذا الموضوع داخضة ، وجميعها جدال بالباطل في وجه الحق الواضح ، وقد ذكرت ثلاثة وعشرين دليلاً من القرآن والتوراة والإنجيل والسنة النبوية تحت عنوان « علماء أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن محمداً ﷺ صادق في دعواه الرسالة » ، ولكنهم يكابرون في ذلك ، ويكتمونه عن قومهم حرصاً على سلطانهم وحفظ الحياة الفانية .

٢ — كان المشركون من قومه ﷺ إذا خلا بعضهم إلى بعض يعترفون بصدق النبي ﷺ في دعواه الرسالة ، ولكنهم لا يؤمنون به حسداً وحقداً .

ففي الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هرقل ملك الروم سأل عنه (١) أبا سفيان بن حرب قبل أن يسلم : « هل كنتم تتهمون بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . قال هرقل : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله » (٢) .

ولقى رجل أبا جهل — ألد أعداء الرسول ﷺ — فسأله : يا أبا الحكم ، ليس هنا أحد غيرى وغيرك يسمع كلامنا ، فخبرنى عن محمد ، أصادق أم كاذب ؟ فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط .

وقال النضر بن الحارث لقريش : لقد كلن محمد فيكم — وهو شاب — صادقاً أميناً ، فلما نبت الشيب في صدغيه ، قلت ساحر كذاب خائن ، والله ما هو

(١) أى عن النبي ﷺ .

(٢) اللؤلؤة والمرجان ٢ / ٢٢١ .

بساحر ولا كذاب ولا خائن (١) .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ
يُحَدِّثُونَ ﴾ (٢) .

٣ — وقد أنصف بعض خصوم الإسلام الرسول الكريم — عليه الصلاة
والسلام — فإن السيرة العطرة لم تكن لتخفى ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من خلق كريم .

فقال كارليل : من العار أن يصغى أى إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى
وهم القائلين : إن دين الإسلام كذب ، وإن محمداً لم يكن على حق ، لقد آن لنا
أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المحجلة ، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي
ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان لملايين كثيرة من الناس ، فهل من
المعقول أن تكون هذه الرسالة — التي عاشت عليها هذه الملايين وقامت —
أكذوبة كاذب ، أو خديعة مخادع ؟ .

ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت
الحياة سخفاً وعبثاً ، وكان الأجدر بها ألا توجد . هل رأيتم رجلاً كاذباً يستطيع
أن يخلق ديناً ويتعمده بالنشر بهذه الصورة (٣) .

وقال تولستوى : لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين
خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور
الحق ، وجعلها تنجح للسلام ، وتكف عن سفك الدماء ، وتقديم الضحايا (٤) .

وقال أرنست رينان في كتابه « تعليقاتي على تواريخ الأديان » : قد دلتني
تحريات العلمية والتاريخية على أنه لا صحة مطلقاً لما أريد إصاقه بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم
من كذب وافتراء مصدرهما بعض المباينات العرفية ، والعادات القومية التي أراد
بعض المتحاملين أن يتوجهوا بها إلى الناحية التي تشفى سقام ذهنيهم الوقحة ،

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري وابن كثير في آية ٣٣ من سورة الأنعام « فَإِنَّهُمْ لَا يَكذِبُونَكَ . . » وتفسير

المنار ج ٧ ص ٣٧٢ : ٣٧٦ .

(٢) الأنعام ٣٣ .

(٣) في كتابه « الأبطال » وهو من كبار كتاب الإنجليز المشهورين .

(٤) أوروبا وإسلام للدكتور عبد الحليم محمود عدد ٧ ص ٤٥ .

وتعصّبهم الذمّيم ، كقولهم : إنه كان يميل إلى التسيد والسيطرة ، مع أن محمداً كما أثبتت الوثائق التاريخية وشهادات أكابر علماء التاريخ كان على العكس من ذلك ، بريفاً من روح الكبرياء متواضعاً صادقاً أميناً ، لا يحمل الحقد لأحد ، وكانت طباعه نبيلة ، وقلبه طاهر ، ورقيق الشعور (١) .

وقال الأستاذ الكبير عبد الرحمن عزام رحمه الله : ولقد سألت مرة — ونحن في قطار لندرة أجد كبار العلماء المستشرقين : هل تظن أن محمداً كان يقول قولاً لا يؤمن به ؟ فقال : لا . إن أمراً واحداً لا ريب فيه هو أنه كان صادقاً مؤمناً إيماناً كاملاً بما يقول وبما يدعو إليه (٢) .

وهكذا يعترف بصدق النبي ﷺ وكاله المشرك والمسيحي .

٤ — وقولهم : إن محمداً لم يكن يرصد بدعوته غير الشهرة الشخصية والحياة والسلطان وإن الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره . إن هو إلا افتراء وكذب على أخلاقه وسيرته ﷺ .

فقد فاوضه عن قومه عتبة بن ربيعة بجانب الكعبة ، فقال له : يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت ، من البسطة والعشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آهتهم ودينهم ، وكفرت من مضي من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل بعضها .

فقال محمد : قل يا أبا الوليد . قال عتبة : إن كنت إنما تريد بما جئت به مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى .

فقال عليه الصلاة والسلام : فقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال :

(١) من « محمد رسولاً نبياً » للأستاذ عبد الرزاق نوفل ٦٨ .

(٢) في كتابه بطل الأبطال ١٧ .

فاسمع منى ، فقرأ رسول الله ﷺ أول سورة فصلت :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب
فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم
لا يسمعون ... ﴾ (١) ومضى يتلو عليه (٢) ، وكان ذلك جوابه لما عرضته
قريش .

وقال كارليل : ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة
الشخصية والحياة والسلطان . . كلا واسم الله ، لقد انطلقت من فؤاد ذلك
الرجل الكبير النفس المملوءة رحمة وبراً وحناناً ، وخيراً ونوراً وحكمة ، وأفكاراً
غير الطمع الدنيوى ، وأهداف سامية غير طلب الحياة والسلطان (٣) .

وقال ليونارد إن كان رجل على هذه الأرض قد عرف الله ، وإن كان رجل
على هذه الأرض قد أخلص له وفنى في خدمته بقصد شريف ودافع عظيم ، فإن
هذا الرجل بلا ريب هو محمد نبي العرب (٤) .

٥ — إن الرسول العظيم محمداً ﷺ ولد وولد الخير معه ، ونما وترعرع ،
ونما معه كل خلق كريم ، وكل فعل جميل ، وما اكتمل شبابه وبلغ أشده حتى بلغ
خلقه كماله ، وصار المثل الأعلى للإنسانية ، والقدوة الحسنة للبشرية ، وليس أدل
على ذلك من قوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان
يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ (٥) .

وقول مشركى قومه له حين قال لهم : « رأيتمكم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج
من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقى ؟ » قالوا : ما جربنا عليك كذباً » رواه
الشيخان عن ابن عباس (٦) .

وقول زوجه السيدة خديجة رضى الله عنها — وهى ألصق الناس به — حينما

(١) أول فصلت .

(٢) نور اليقين للمخضرى ٥١ .

(٣) أوروبا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ٣٧ .

(٤) بطل الأبطال للأستاذ عبد الرحمن عزام ١١ .

(٥) الأحزاب ٢١ .

(٦) اللؤلؤة ١ / ٥٢ .

قال لها : لقد خشيت على نفسي « كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ، والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » رواه الشيخان (١) .

وقوله ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم » رواه مسلم عن وائلة بن الأسقع (٢) .

لقد جمعت الأنبياء خير صفات أقوامها وجمع محمد ﷺ صفات الأنبياء كلها ، وقد أخبر الله عن ذلك بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣) ، وعن الحسن قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : « كان خلقه القرآن » رواه أحمد (٤) . ومعنى ذلك أنه ﷺ كان تطبيقاً عملياً للقرآن الكريم .

٦ — إن رسولنا محمداً ﷺ كانت أخلاقه وصفاته وسجاياه ، وأعماله برهاناً صادقاً ، ودليلاً ناطقاً على أنه فوق مستوى الإنسانية وعلى أسمى ما تتصور البشرية يؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بَرَهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (٥) ، فالبرهان : الرسول ﷺ ، والنور : القرآن .

وقد عرف فيه ذلك جده عبد المطلب ، وهو دون الثامنة من عمره ، فقال : إن ابني هذا سيد ، وسيكون له شأن عظيم .

وكان يجيء إليه ﷺ الرجل من أهل البادية ليتعرف أمره ، فيقول له زعماء الشرك : إنه كذاب ، فإذا ما التقى بالرسول ﷺ وألقى عليه نظرة فاحصة هتف قائلاً : والله ما هذا الوجه بوجه كذاب .

وعن عبد الله بن سلام رضى الله عنه قال : أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه (٦) فكانت فيمن جاءه فلما تأملت وجهه واستشيتته (٧) علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب . . « الحديث رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن

(١) اللؤلؤة والمرجان ١ / ٣٣ ، واللفظ لمسلم ج ٢ ص ٢٠٠ (٥) النساء ١٧٤ .

(٢) واللفظ له ج ٥ ص ٣٦ ، وأحمد والترمذى . (٦) أسرعوا ومضوا إليه كلهم .

(٣) القلم ٤ .

(٧) تحققته وتبينته .

(٤) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٠٢ .

صحيح ، وابن ماجه والحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين (١) .

٧ — ماذا نقول في أكرم مخلوق شهده الوجود ، وأفضل إنسان عرفه التاريخ ، وما عسى أن نقول فيه بعد قول الله سبحانه ، وهو أعلم بمقامه : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (٢) .

وبعد أن بين لنا منزلته الكريمة وعرفنا بمقامه العظيم فقال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ (٣) .

لقد رفع الله منزلته فكرمه وعظمه وأعدده للشهادة على الأنبياء والمرسلين يوم الدين ، وجعله مبشراً للمؤمنين بالجنة ومنذراً للكافرين بالنار ، وداعياً إلى الله وطاعته بأمره وسراجاً منيراً ، يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾ (٤) .

وعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ؟ قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وحرزا للأمين (٥) ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب (٦) في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً » (٧) رواه أحمد والبخارى (٨) .

٨ — ماذا نقول فيه ؟ وقد شرح الله صدره ، وجعله يتسع لكل ما في الحياة

(١) الترغيب ٢ / ٣ .

(٥) حافظاً لهم .

(٢) الأنعام ١٢٤ .

(٦) السخب : رفع الصوت بالخصام .

(٣) التوبة ١٢٨ .

(٧) كل شيء في غلاف .

(٤) الأحزاب ٤٥ : ٤٧ .

(٨) أحمد في مسنده ج ١٠ حديث ٦٦٢٢ وإسناده صحيح ، والبخارى في ج ٣ ص ١٣٩ واللفظ له .

من خير ويقوم بالدعوة إلى الله خير قيام ، ويتحمل أعباءها بنفس راضية ، وقلب مطمئن ، وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ورفع له ذكره حتى أصبح يقترب باسم الله تعالى في الأذان والإقامة والشهد والدعاء ، والصلاة ، وجعل طاعته من طاعة الله ، فقال له مولاة : ﴿ ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك ﴾ (١) .

٩ — وماذا نقول فيه بعد أن أعطاه مولاة الخير الكثير ، ومنحه الفضل العميم : أعطاه النبوة ، والدين الحق ، والقرآن العظيم ، والمعجزة الخالدة ، والعلم والحكمة ، وأرسله رحمة للعالمين ، وجعل دينه خاتم الأديان ، ونهاية الرسالات ، وخلّده خلود الأرض والسماوات ، وجمع له فيه بين الحسن والكمال في كل ناحية وخيرى الدنيا والآخرة ، وغير ذلك من الأمور التى جمعها في قوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ (٢) فالكوثر : الخير الكثير .

وجاء في المسعودى من صفة الرسول ﷺ : « ٥٥ الرسول أجود الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله » (٣) .

وجاء في دائرة المعارف البريطانية : لقد صادف محمداً النجاح الذى لم ينل مثله نبي ولا مصلح ديني في زمن من الأزمنة ، ويقول يوزورث اسمث : إن محمداً بلا نزاع أعظم المصلحين على الإطلاق (٤) .

فمحمد ﷺ الذى هو في نظر المسلمين خاتم الأنبياء والرسل ، ومعلم الأبطال ، هو في نظر المفكرين العقلاء من أهل الملل الأخرى أكبر المصلحين على الإطلاق ، إن مدار الاصطفاء للإيجاء هو التبريز في إحراز الفضائل ، ونيل المكرمات ، وللنبي ﷺ في ذلك القُدح المَعلى ، فقد اشتهر بينهم بالأمانة والصدق وحسن السمعة ، وبلوغ الغاية في الكمالات ، والله در القائل :

(١) أول الانشراح .

(٢) أول الكوثر .

(٣) محمد رسولاً نبياً للأستاذ عبد الرزاق نوفل ٦٥ .

(٤) بطل الأبطال للأستاذ عبد الرحمن عزام ١١ .

لخِلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء
وقول الآخر :

ولو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

وهكذا كان محمد رسول الله ﷺ وكتابه الكريم في القمة من جميع
النواحي ، وفي الذروة من جميع الجوانب بشهادة القرآن والسنة ، وبشهادة أعدائه
ومحبيه ، وبشهادة كل من رآه وخالطه ، ولا صمود أمام هذه الشهادة لكلام
حاسد أو حاقد .

* * *

المبحث السادس

بذل المبشرين نهاية جهدهم لإخراج المسلمين من دينهم

بيذل المبشرون وأعاونهم كل ما يستطيعون لإخراج المسلمين من دينهم ،
والتخلي عن قرآنهم ، ويدل على ذلك ما يأتي :

١ - ما قاله وليم جيفور بالكراف : متى توارى القرآن ومدينة مكة عن
بلاد العرب . يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده
عنها إلا محمد وكتابه(١) - يقصد حضارة الغرب الداعرة الفاجرة ، التي
لا تعرف حلالاً ولا حراماً .

٢ - وما قاله م . ك . اكسنفلد في تقريره لمؤتمر أدنبرج الذي عقد في هذه
المدينة سنة ١٩١٠م : إن نمو ثروة الاستعمار متوقف على أهمية الرجال الذين
يذهبون إلى المستعمرات ، وأهم وسيلة لتحقيق هذا الهدف هي إدخال الدين
المسيحي في البلاد المستعمرة ؛ لأن هذا هو الشرط الجوهرى حتى من الناحية
الاقتصادية .

وجاء في قرار المؤتمر أيضا : إن ارتقاء الإسلام يهدد نمو مستعمراتنا بخطـ
ر عظيم (٢) ..

ويشير المؤتمر على الذين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من
شأنه توسع نطاق الإسلام ، وأن يزيلوا العراقيل من طريق أنتشار النصرانية(٣) .

(١) من الفارة على العالم الإسلامى ٣٩ .

(٢) راجع حقائق عن التبشير لعناد شرف ٤٤ .

(٣) المرجع السابق .

٣ — وما قاله القس صمويل زويمر رئيس المبشرين لأعضاء مؤتمر القدس الشهير الذي عقد بالمدينة المقدسة في يناير سنة ١٩١١ م إبان الاحتلال البريطاني لفلسطين دافعاً للمبشرين ومحماً لهم على تكفير المسلمين كما سبق بيانه :

... ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ، ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي فلا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ، وبذلك تكونون أنتم بحملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية ، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام السالفة — خير قيام ، وهذا ما أهنتكم عليه ، وتهنئكم عليه المسيحية والمسيحيون جميعاً .

لقد سيطرنا من ثلث القرن التاسع عشر على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية ، ونشرنا فيها مكامن التبشير والكنائس ، والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية ، ولقد أعددتهم في ديار الإسلام شباباً لا يعرف الصلة بالله ، ولا يريد أن يعرفها وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية ، وبالتالي جاء النشء طبقاً لما أراده الاستعمار ، لا يهتم بالعظائم ، ويحب الراحة والكسل ، ولا يصرف همه في دنياه إلا إلى الشهوات .

إن مهمتكم قد تمت على أكمل الوجوه ، وانتهيت إلى خير النتائج ، وباركتم المسيحية ، ورضى عنكم الاستعمار ، فاستمروا فقد أصبحتم بفضل جهادكم موضع بركات الرب (١) .

٤ — وما قاله الأسقف دي ميسنيل وكيل إدارة البعثات التبشيرية في الشرق بروما :

إن الهدف الذي يتعين على المبشر تحقيقه هو تحطيم قوة التماسك الجبارة التي يتميز بها الإسلام ، أو على الأقل إضعاف هذه القوة ، وإن على المبشر أن يدرس

(١) راجع المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام للأستاذ محمد محمود الصواف ٥٧ ، ٥٨ ، وحقائق عن التبشير لعماد شرف ٣٣ ، ٣٤ .

ويتفهم « قرآن محمد » ليعرف كيف يذكر الناس في الشرق بأنه كانت هناك مدنية سابقة على الهجرة ، وأنها كانت مدنية مسيحية ، وأن يستخدم الأسلحة السلمية التي تأسر النفوس وفي مقدمتها الصدقات والمعونات وإقامة المعاهد والمدارس والمؤسسات الخيرية ، وهي كلها مؤسسات دينية^(١) .

٥ - وحين قامت الثورة في مصر بتأميم قناة السويس سنة ١٩٥٦ م ، وأخذت في دراسة دفاترها وميزانياتها وجدت أنه قد خصص في هذه الميزانيات ثلاثة ملايين جنيه استرليني سنوياً للتبشير في بلاد الشرق الأوسط .

فقناة السويس التي حفرت بأيدي مصرية في أرض مصرية يخصص من دخلها ثلاثة ملايين جنيه لإضعاف شأن مصر ، والشرق ديناً وخلقاً وتشريعاً^(٢) .

٦ - وفي ١٦ يولية سنة ١٩٦٧ م نشرت مجلة التايم أن الدكتور أرثر فلمنج رئيس المجلس الكنسي في الولايات المتحدة قد أوصى بقيام حملة تبرعات لجمع ثلثمائة ألف دولار من أربع وثلاثين طائفة مسيحية تشترك في عضوية المجلس الكنسي ، لتقديم معونات إلى الكنائس في أندونيسيا ، وإلى جانب هذا الخبر ذكرت المجلة معلوماتها عن النشاط التبشيري هناك على لسان الميجور أندروني لاندى المدير المساعد للشئون التنفيذية لجمعية الإغاثة الكاثوليكية بأن الجمعية قد أنفقت أكثر من ثلاثة ملايين جنيه في صورة غذاء وأدوية للمحتاجين في كافة أنحاء أندونيسيا ، وذلك بتعاونها مع ممثلى الكنائس منذ عام ١٩٦٢ م ، أى في خلال خمس سنوات^(٣) .

٧ - وما قاله الأستاذ عبد الرحمن زكى في كتابه « المسلمون في العالم اليوم » : قد صارت أقسام الدراسات الإسلامية والعربية التي يشرف عليها المستشرقون في جامعات أوروبا وكندا والولايات المتحدة ، ذات طابع هجومى على الإسلام ومراكز للتجسس عليه ، ويندب للتدريس فيها أساتذة من أنحاء العالم الإسلامى^(٤) .

٨ - وما قاله المبشر لورانس براون : الخطر الحقيقى يكمن في نظام

(١) المرجع السابق ٣٤ .

(٢) غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا .

(٣) خلود الإسلام ٤٦ .

(٤) المرجع السابق ٧٣ .

الإسلام ، وفي قدرته على التوسع ، وفي حيويته ، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي^(١) .

٩ — وما قاله الإمام محمد عبده : أما التبشير فيقف من ورائه العالم المسيحي بتوجيه الهيئات الدينية العليا في أوروبا ، وهو ند لحركة الاستشراق في الأهداف وفي خدمة الاستعمار القديم والجديد ، وفي التجسس على الإسلام والحركات الإسلامية المعاصرة ، وهو كذلك حملة صليبية جديدة على الإسلام ، ومحالفة أبدية من الاستعمار لخنقه وصرف أتباعه عنه بكل وسيلة^(٢) .

١٠ — وقال الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي^(٣) : ولا يصح بحال أن ننسى أو نتناسى أهداف أوروبا التي تعمل لها بيننا وفي مقدمتها العمل من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين في العالم .

إن بقاء الإسلام أمر تكرهه أوروبا كل الكراهية ، وكذلك قيام بعث إسلامي جديد شيء ترهبه كل الرهبة ، شرقها وغربها وامتداد الشرق والغرب جميعاً ، وهي تقدم الخوف منه والحذر من انطلاقه على كل خوف وكل حذر ، إنها مشغولة بأمر الإسلام مشغولية من يشعر بيقظته . وترقب ما وراء هذه اليقظة ، فلا يخرجها لحظة من حسابه ، كما يقول العقاد

ومن أجل ذلك تجمعت أوروبا في الماضي ، وتحالفت شعوبها المتناقضة المختلفة في سبيل إيقاف هذه اليقظة ومقاومتها بكل ما تستطيع .

وقال الدكتور خفاجي^(٤) : وقف الإسلام في العصر الحديث أمام غزو استعماري مدمر ، وامتحان قاس شديد ، وامتصاص كامل لمقدرات شعوبه ، وثروات أممه ، وكما ورث الترك العرب في سيطرتهم على العالم الإسلامي ، فقد ورث الاستعمار الغربي الترك والعرب في السيطرة على الشعوب العربية والإسلامية في أفريقيا وآسيا

وأوجد الاستعمار طبقة من الشباب العربي الذين راعتهم حضارة الغرب المادية ، فتنكروا لماضيهم وعروبتهم ودينهم ، وساند هذه الطبقة لتعمل على تغيير

(٣) في كتابه خلود الإسلام ٢٣ .

(١) واجب المسلمين في نشر الإسلام ٢٣ .

(٤) في نفس المراجع ١٢٦ : ١٢٩ .

(٢) راجع الإسلام والنصرانية له .

التفكير الإسلامي ، وربطه بالتفكير الأوربي .

ثم أخذ المستشرقون الأوربيون باسم العلم والفكر يدسون أفكارهم الصليبية في بحوثهم وكتبهم ، ويشوهون الإسلام وتاريخه في نظر العالم المتحضر ، وكان من ذلك البلاء كل البلاء ، فإن الأساتذة في الجامعات العربية أخذوا يدعون إلى هذه الآراء ، ويذيعونها بحجة أنها آراء علمية خالصة .

وفاتهم أن الغرب لا يفرق بين العلم وبين مصلحته في القضاء على الإسلام ، وأن أوربا تقدم الفكرة اليوم ، لتخدم بها غداً أو بعد غد غرضاً سياسياً أو استعمارياً ، وتخدم بها مصالحها الاقتصادية .

إن الغرب يخشى الإسلام ، ويحذر قيام حركات إسلامية جديدة . إنه يخاف من الأسد وهو مكبل بالسلاسل ، فكيف به لو تحرك وفك قيوده وأغلاله ؟ .
ثم جاءت الشيوعية فقضت على الإسلام في كل بلد من بلادها .

ولقد اصطدم الغرب بالإسلام في معارك كثيرة ليؤخر سيره العظيم ، والحروب الصليبية في العصور الوسطى والحروب الاستعمارية في العصر الحديث من مظاهر هذا الاصطدام الرهيب .

ولقد ملأ الأوربيون أنفسهم بالتعصب الديني ضد الإسلام ، وعبثوا شعوبهم معنوياً ومادياً لمحاربتهم ...

وساعدت أوربا على قيام مذاهب جديدة منحرفة في وسط العالم الإسلامي ، وعلى الدعاية للغرب وحضارته ، وللمذاهب الغربية الهدامة ، من ماسونية ، وصهيونية ، ووجودية ، وإلحادية ، وغيرها ، وعلى قيام مذاهب إسلامية متخاصمة متعادية .

وأخذوا فوق ذلك يزيفون الحقائق والمفاهيم الإسلامية ، ويحرفون كثيراً من أصول ثقافتنا وحضارتنا ، ويجهلون الشباب الإسلامي بدينهم وكتابهم العظيم ، وبلغت القرآن الكريم .

وأخذوا يفهموننا أنهم كشفوا أفريقيا ، وأن بدء البعث العربي كان بحملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ م ، أو بوصول الجمعيات التبشيرية ، الفرنسية

والأمريكية إلى الشرق العربي في نصف القرن التاسع عشر . أ هـ
عملهم في هدم أركان الإسلام :

وإن تعجب لإجرام هؤلاء القوم فاعجب لعملهم الذي يسلكونه لهدم أركان الإسلام ، وإليك بعض الأمثلة .

أ — ففي العقيدة : يلقن المبشرون المسلمين أن رب السموات والأرض ومن بيده جلب الخير ، ودفع الشر هو المسيح . فيقول : س . أ . موريسون . في مجلة العالم الإسلامي : « نحن متفقون بلا ريب على أن الغاية الأساسية من أعمال التنصير بين مرضى العيادات الخارجية في المستشفيات أن نأتي بهم إلى المعرفة المتقدمة ، معرفة ربنا يسوع المسيح ، وأن ندخلهم أعضاء عاملين في الكنيسة المسيحية الحية .

وفي بلدة الناصر بجنوب السودان مثلاً ، كانوا لا يعالجون المريض أبداً إلا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو المسيح .
وفي الحبشة كان العلاج لا يبدأ قبل أن يركع المريض ، ويسألوا المسيح أن يشفيهم (١) .

ب — وفي الصلاة : التي تصل العبد بمولاه ، ويقوم فيها بذكره وشكره ، وتطهر القلب ، وتزكي النفس ، وتهذب الخلق .
يقول فيها نيتشة : إنه لشيء مخجل أن يتהל الإنسان بالصلاة (٢) .

ج — وفي الصيام :

قال القسيس زويمر : إنه جمع تلاميذه المسلمين مرة ووضع بين أيديهم كرة تمثل الكرة الأرضية ، ثم حول عليها نوراً قوياً ، وبرهن لهم بذلك على أن الأمر بصيام شهر رمضان ليس آتياً من عند الله ، لأنه يتعذر أداء هذه الفريضة في بعض البلاد (٣) .

(١) راجع حقائق عن التبشير ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) خلود الإسلام ٦٣ .

(٣) الغارة على العالم الإسلامي ٣٩ .

أقول : لقد نسي هذا المفضل أن الذى شرع أركان الدين الإسلامى هو العليم الحكيم ، فخطاب الله لعباده بنى على الغالب من الأحوال ، فإذا طال النهار ، والليل أكثر من أربع وعشرين ساعة فيقدرون وقت الصوم ، ووقت الإفطار بالساعات بحسب أقرب الجهات المعتدلة إليهم ، وذلك إنما يكون بالحساب ، فالشارع بنى أحكامه على الغالب .

يوضح ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه^(١) عن النواس بن سمعان من حديث الدجال : « قلنا يا رسول الله ، وما لبثه في الأرض ؟ قال : « أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » قلنا : يا رسول الله ، فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : « لا ، اقدروا له قدره » .

وكذلك جاءت عدة أحاديث غير هذا في هذا المعنى ، وحديث مسلم ، وإن ورد في الصلاة ، ولكن يؤخذ منه مدار العبادات على الدورة اليومية ، والدورة الشهرية ، والدورة السنوية ، وأن الشارع لم يأمر بالصلاة لدلوك الشمس مثلاً ، ولا بالصوم لرؤية هلال رمضان ، ولا بالحج في وقته ، وغير ذلك من الأوقات ، التى جعلها علامات لأوقات العبادات ، إلا بناء على الغالب ، ولتكون تلك العلامات دالة على أوقات العبادات ظاهرة للخواص والعوام .

وهكذا تتوالى افتراءات المبشرين على الدين الإسلامى وشعائره دون أن ينالوا منه شيئاً إلا الخزى والعار ، لأن ديننا وتشريعنا صادر إلينا من ربنا العليم الحكيم ، وفيه ما يحميه ويصونه من عبث العابثين ، وكيد الحاقدين .

* * *

المبحث السابع

الواجب على المسلمين

للحفاظ على دينهم من هذا التيار الجارف

- يجب على المسلمين جميعاً في كل مكان وزمان للحفاظ على دينهم من فتنة المبشرين لهم ما يأتي :
- ١ - مقابلة كل عمل للمبشرين وأعاونهم بالمثل فيما تجوز لنا فيه المثلية ، ورد ادعاءاتهم وافتراءاتهم أولاً بأول .
 - ٢ - عقد المؤتمرات الإسلامية في كل مكان من العالم لإزاء المؤتمرات التي يعقدها هؤلاء المبشرون ، لنبين للعالم حقيقة الإسلام ، ومحاسنه .
 - ٣ - نشر الوعي الإسلامي في جميع أنحاء العالم الإسلامي بجميع الوسائل الممكنة من إذاعات وكتب ومجلات وغير ذلك .
 - ٤ - قيام المساجد بدور إيجابي في هذا الميدان ، وتأدية رسالتها على الوجه الأكمل ، لأن المساجد كانت دائماً النواة التي تنفجر منها الدعوات الإصلاحية والمكان الصالح لنشر التعاليم الإسلامية ، وإقامة الندوات الدينية .
 - وكان للحرمين المباركين والأزهر الشريف ، والمساجد الشهيرة في العالم الإسلامي الأمثلة الواضحة في ذلك .
 - ٥ - إسهام البلاد الإسلامية في طبع ترجمة تفسير القرآن الكريم بجميع اللغات وتوزيعه في جميع مراكز العالم الثقافية .
 - ٦ - نشر كتب تتناول مبادئ الإسلام وتشريعاته ، وما يمتاز به ، وقضايا

العصر من وجهة النظر الإسلامية بكل لغات العالم ، وعلى أوسع نطاق .

٧ — تبادل زيارات العلماء والكتاب الإسلاميين بين مختلف البلدان لا سيما بين بلدان العالم الإسلامي لتبينة مناخ إسلامى لتهيئة مناخ إسلامى عالمى يساعد على نشر الثقافة الإسلامية وتنشيط العقول الإسلامية الهامدة .

٨ — اهتمام صحافتنا ووسائل الإعلام بالثقافة الدينية ، وتطهيرها مما ينشر الفساد ويفسد الأخلاق ، ويتعارض مع ديننا الحنيف وتعاليجه .

٩ — خلدلة المناطق المزدحمة بالسكان ، والأقل ثراء إلى المناطق الأقل ازدهاماً والأكثر ثراء .

فلاستعمار هو الذى وضع حدوداً بين أوطان العالم الإسلامى لتفتيت وحدته حتى يسهل عليه استعماره ، فنشأ عن ذلك الانفجار السكاني الذى أدى إلى انتشار الفقر؛ الذى أوجدوه ، ورموا ديننا بأنه السبب فيه .

١٠ — تعميم نظام الضمان الاجتماعى فى جميع بلاد الإسلام حتى يشمل كل المحتاجين من المسلمين فى العالم ، وحتى لا يستغل المبشرون فقرهم فى إخراجهم من دينهم .

١١ — التطلع إلى ماضى الإسلام الحضارى العريق لتتخذ من ذلك دافعاً لنا إلى الأمام فى سبيل رقى أمتنا الإسلامية ، حتى نرد وهم المستعمر بأن سبب تخلفنا هو تمسكنا بالدين ، فيعرف أن سببه هو استعماره لنا ، ونهبه خيراتنا قروناً عديدة .

١٢ — التوسع بقدر المستطاع فى إقامة المؤسسات الصناعية والمهنية فى كل دولة حتى تستوعب الأيدى العاملة ، ويكثر الإنتاج ويعم الخير والرخاء .

* * *

المبحث الثامن

اتهمهم الإسلام بأنه السبب

في انتشار الجهل وتخلف شعوبه

يتهم المبشرون وأعدائهم الإسلام بأنه هو السبب في انتشار الجهل في الأقطار الإسلامية ، وتخلف شعوبها وانحطاطها ، وإليك بعض افتراءاتهم في ذلك :

١ - عقد مؤتمر في مدينة لنكو بالهند سنة ١٩١١ م ، واشترك فيه ١٦٨ مندوباً ، ١١٣ مدعواً من ٥٤ جمعية تبشيرية ، وخطب في هذا المؤتمر رئيسه القسيس صمويل زويمر ، ثم ختم خطابه الافتتاحي بقوله :

« إذا نظرنا إلى البلاد التي يحكمها هذا الدين الكبير المعادى لنا ، وإلى البلاد التي يتهدها بحكمه إياها يظهر لنا أن كل واحدة من هذه البلاد هي رمز لعنصر من عناصر المعضلة الكبرى .

فالمغرب الأقصى في الإسلام مثال للانحطاط ، وفارس مثال للانحلال ، وجزيرة العرب مثال للرقود ، ومصر مثال لمجهودات الإصلاح ، والصين مثال للإهمال ، وجاوة مثال للتغيير والانقلاب ، والهند مركز للاحتكاك بالإسلام ، وأفريقيا الوسطى مكان للخطر الإسلامي .

والإسلام يحتاج قبل كل شيء إلى المسيح ، فهو الذي يرسل أشعة النور إلى المغرب ، ويعيد الوحدة لفارس ، والحياة لجزيرة العرب ، والنهضة لمصر ، ويرد إلى الصين ما أهمله الإسلام فيها ، وهو الذي يبقى لأهالي ماليزيا بلادهم ، ويزيل الخطر العظيم من أفريقيا^(١) .

(١) من مجلة الغارة على العالم الإسلامي ٦٥ .

٢ - وقال اللورد كرومر الحاكم الإنجليزي في مصر في أوائل هذا القرن :
إن المسلم غير المتخلق بالأخلاق الأوربية لا يصلح لحكم بلاده ، وإن الإسلام
ناجح كعقيدة ، ولكنه فاشل كنظام اجتماعي (١) .

ولذلك حاول بقدر ما استطاع في منع علماء الأزهر من العمل في وزارات
الحكومة ، وحصر مهمتهم في العمل في الوعظ والإمامة والتدريس في الأزهر بحجة
عدم صلاحيتهم لغير ذلك ، ولكنه في الحقيقة خوفاً من نشر الوعي الديني في
المصالح الحكومية ، وإقناع الشعب بأن الإسلام ناجح كنظام اجتماعي ، كما هو
ناجح كعقيدة ، وأيضاً خوفاً من أن يحرك رجال الأزهر الثورة ضد الإنجليز ، كما
أشعلوها وقادوها ضد الحملة الفرنسية على مصر .

وقد وقع ما كان يخشاه اللورد كرومر فأشعل رجال الأزهر الثورة وقادوها
ضد الإنجليز سنة ١٩١٩ م ، تماماً كما فعلوا ضد الحملة الفرنسية .

٣ - وقال اللورد كرومر : إن الإسلام دين مناف للتجديد ، ولم يكن
صالحاً إلا للزمن والمحيط الذي وجد فيهما ، وإن المسلمين لا يمكن أن يرقوا في سلم
الحضارة والتقدم إلا بعد أن يتركوا دينهم ، وينبذوا القرآن وأوامره ظهيراً لأنه
يأمرهم بالحمول والتعصب ، ويثبت فيهم روح البغض للأغيار والشقاق وحب
الانتقام ، وإن الإسلام على الجملة هو العقبة الكمود في سبيل رقي الأمة
الإسلامية (٢) .

٤ - ويدعى المبشرون أن الإسلام سبب انتشار الجهل ، وتأخر الشعوب
وإحطاطها ، وأن العلم والإسلام عدوان لدودان (٣) .

٥ - والمبشرون في الفلبين وأمثالها يعملون جاهدين على إقناع المسلمين
هناك بأن الإسلام هو سبب تخلفهم اقتصادياً (٤) .

(١) خلود الإسلام للدكتور خفاجي ١٢٧ .

(٢) الإسلام في معركة التغريب للأستاذ أنور الجندي ٦٣ .

(٣) المصدر السابق ٢٢ ، وحقائق عن التبشير للأستاذ عماد شرف ٤٧ .

(٤) المصدر السابق ٧٢ .

المبحث التاسع

دحض هذا الافتراء

لدحض هذا الافتراء الكاذب ، وسحق هذا الادعاء الباطل أقول :

١ — إن ما يدعيه المبشرون من أن الإسلام هو سبب التخلف والجهل في البلاد الإسلامية هو أمر مفترى أشد ما يكون الافتراء ، وإن الهدف الوحيد من هذا الافتراء هو تنفير الناس من الإسلام ، وإخراج المسلمين منه ، كما أخرجوا بعض دول الإسلام منه بسبب افتراءاتهم الخاقدة .

٢ — إن الإسلام دين كامل وتشريع شامل صادر من عليم حكيم لإسعاد البشرية والسمو بها إلى درجات الكمال والهناء في الدنيا والآخرة ، ويدل على ذلك أن الآيات القرآنية نزلت تحت الناس جميعاً على فعل الخير للفرد والمجتمع الإنساني أجمع ، ودفع الشر عن الفرد والإنسانية جمعاء ، وأن يعيش الناس جميعاً في محبة ووثام ، وأمان واطمئنان فقال تعالى : ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ (٢) .

ودعا إلى تعلم العلم بجميع أنواعه النافعة في الدنيا والآخرة في مئات الآيات منها قوله تعالى في أول آية نزلت : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (٣) .

(١) الحج ٧٧ .

(٢) النحل ٩٠ .

(٣) العلق ١ : ٥ .

فهذه أول آيات القرآن نزولاً جاءت تأمر بتعلم القراءة والكتابة ، وتحارب الجهل وتحث على التعليم بجميع أنواعه وفروعه .

ولذا قال الإمام محمد عبده رحمه الله تعالى — عقب تفسيره لهذه الآيات (١) :
« ثم إنه لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحي بهذه الآيات الباهرات » .

وقوله تعالى : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (٢) وهذه هي المرة الثانية من الوحي التي نزلت فيها آيات تحث على العلم والتعلم ، فقد بدأ سبحانه بحرف من حروف الهجاء وأقسم بالقلم والكتابة ، فكان أول قسم في القرآن الكريم هو القسم بالقلم وبما يسطر القلم .

قال الدكتور عبد الحلیم محمود رحمه الله (٣) : والقرآن بتسميته ، وبأول آيات نزلت منه وبأول قسم فيه يوجه الإنسان — بطريق مباشر وبطريق إيحائي — إلى الاتجاه نحو المعرفة قراءة وكتابة وعلماً .

وقوله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) فالذكر هنا هو العلم بدليل قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فَإِنَّ أَمْرَ مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنْ يَسْأَلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالسُّؤَالِ لِلْعُلَمَاءِ . أ . هـ .

وقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (٥) فبدأ بالعلم وجعله قبل القول والعمل وأساس الدين وقوامه ، وماذا يبقى من الدين إذا ذهب أساسه .
وسرد الآيات التي نزلت تحث على العلم والتعلم يطول ، فهل بعد ذلك يقول المبشرون إن الإسلام والعلم عدوان لدودان ؟ .

وأمر تعالى بالسعى على المعاش وتحصيل الرزق في آيات كثيرة كذلك منها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ (٦) وقوله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ

(٤) الأنبياء ٧ .

(٥) محمد ١٩ .

(٦) الملك ١٥ .

(١) في جزء عم ١٢٤ .

(٢) القلم ١ ، ٢ .

(٣) في كتابه دلائل النبوة .

فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴿١﴾ وقوله : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ (٣) .

ووضع القرآن أساس المدنية الفاضلة والسعادة الدائمة للمجتمع الإنسانى أجمع ، فأوجب على كل إنسان أن يكون كاملاً فيعمل النافع لنفسه وأهله وقومه والناس أجمعين ، ويدعو غيره إلى مثل ذلك ، وأن يستعين كلاهما على بلوغ هذا الكمال بالصبر ، وضع أساس ذلك بصورة العصر الوجيزة البليغة فقال تعالى : ﴿ والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

وجعل معيار التفاضل بين الناس بالتقوى والعمل الصالح ، لا بالجنس واللون ، ولا بالقبيلة والقوم فقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (٤) فهل بعد هذا يقال إن الإسلام سبب تخلف الشعوب والمخاطباتها ؟ .

٣ — وإذا لم يكفكم هذا الإجمال فى نهضة الإسلام بالشعوب ورقمها فإليكم التفصيل .

تنزل القرآن العظيم فى ليلة مباركة من شهر رمضان الكريم ﴿ هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ تنزل تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، وانطلق نوراً وسلسيل حياة فى قفار الجزيرة العربية ، أبعد بلاد الله عن الحضارة والمدنية ، وأهلها منغمسون فى الشرور والوثنية ، فرقهم عصبية الجاهلية شيعاً وأحزاباً ومذاهب وأدياناً وقبائل وبيوتاً فطهرهم من أدران الوثنية ، وحمة الجاهلية ، وسلطان العادات ، ونقاهم من الشرور ومساوىء الأخلاق ، وجمعهم تحت راية واحدة فى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يعهد لها نظير فى ماضى حياتهم ، وجعلهم جميعاً وحدة متضامنة وكتلة متكاتفه ، وجسماً

(٣) القصص ٧٧ .

(٤) الحجرات ١٣ .

(١) الجمعة ١٠ .

(٢) البقرة ٢٩ .

واحداً يشترك جميع أعضائه في المسئولية عن صلاح المجتمع ، وفي التبعة عن شيوع الفساد .

أخرجهم القرآن العظيم من الصحراء رجالاً في كل نواحي الحياة ، حتى كانوا كما قال الله : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (١) .

جيشوا الجيوش ، وكتبوا الكتائب وانطلقوا يحملون الحق على أيديهم يفتحون البلاد التي عمها الشر ، وطبقها الفساد لا يستذلوا أهلها ، ولا ليستغلوا خيراتها ، وإنما ليدفعوا عن أنفسهم عدوان المعتدين ، وليؤمنوا دعوتهم ويشقوا الطريق لتبليغ رسالتهم وليخرجوا العالم من ظلمات الشرك والبعى إلى نور الحق والعدل .

فتفتحوا الجزيرة العربية ، ونشروا الإسلام في ربوعها ، ثم انطلقوا شرقاً وغرباً يعلنون دعوة الحق ، ويبلغون رسالات الله ، والاستشهاد في سبيلها أحب إليهم من الحياة ، تميد الجبال ولا يميدون ، ويلين الحديد ولا يلينون ، لا تستعصى عليهم قلاع ، ولا تقف أمامهم حصون .

ثلوا عروش الأكاسرة الذين أرادوا الفتك بهم ، ودكوا ممالك القياصرة الذين تعددت اعتداءاتهم عليهم ، واكتسحوا بلاد أفريقيا ، واستمر زحفهم يمتد حتى غطت انتصاراتهم الأرض ، من جدار الصين في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب ، ومن حقول الجليد في الشمال إلى خط الاستواء في الجنوب .

فتفتحوا الدنيا وطهروا العالم ومدنوا الإنسانية ، وملئوا الوجود علماً وإيماناً ونوراً وعرفاناً وعدلاً وإحساناً .

وانطلقوا يعلمون رجال الحرب كيف تصاحبها الرحمة ، ويعلمون رجال السياسة كيف تكون سياسة الشعوب ، ودارس العدل كيف يكون العدل ، ويلقنون علماء الإدارة كيف تكون الإدارة ، ويلقنون درساً على العالم أن قوة الخلق فوق مظاهر العلم ، وقوة الاعتقاد في الحق فوق النظريات الفلسفية والمذاهب العلمية .

(١) آل عمران ١١٠ .

ويعلمون الناس كيف يبنون علاقاتهم مع من هم على غير دينهم ، يبنونها على
أسمى ما تتصور البشرية ، وتصل إليه الإنسانية ، يبنونها على أساس المودة
المخلصة ، والعدالة الكاملة ، والمساواة الشاملة ، طبقاً لقاعدة الإسلام الفاضلة
« لهم ما لنا وعليهم ما علينا » في ضوء ما قاله الله ﷻ لا ينهاكم الله عن الذين لم
يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب
المقسطين ﴿١﴾ .

فلم يمر قرن — كما قال السيد رشيد رضا (٢) — حتى جدد الإسلام للعالم كله
ديناً قيماً وعلماً محكماً ومجتمعاً فاضلاً ، وسياسة رشيدة ، ومدنية سعيدة ، ونشر
ذلك كله في مشارق الأرض ومغاربها ، بقوة الحق ، وسرعة البرق ، فتغير
وجه الأرض ، ونفخ في الإنسانية روحاً جديدة ، وأعطاهها من أصول السعادة ،
ومقومات الحياة ما لا يقبل الفناء ، ما دامت الأرض والسماء .

وانطلق صوت الشاعر العربي يدوي :

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قبيلا
لا تذكروا الكتب السوالف بعده طلع الصباح فأطفأ القنديلا

وهكذا كان الإسلام هدى للناس ، وخيراً للإنسانية ، ورحمة للبشرية ، فيه
قضاء على شرور العالم ومساوئه ، فيه أصول كل السعادات ، فيه صلاح للحياة في
شتى نواحيها ، وترقية للبشرية إلى أسمى مراقبها فيه حضارة زاهية ، ومدنية
صافية ، وسعادة في الدنيا والآخرة .

* * *

(١) المتحنة ٨ .

(٢) في مقدمة كتاب الإسلام والنصرانية للأستاذ محمد عبده .

المبحث العاشر

مراحل تطور التعليم في الأمة الإسلامية

لقد انتشر التعليم في الأمة الإسلامية وتطور في عدة مراحل على النحو التالي :

١ - فحينما بعث الرسول ﷺ بمكة المكرمة ، وأخذ القرآن الكريم ينزل عليه منجماً كان كلما نزل عليه نجم منه يدعو أصحابه فيقرؤه عليهم ويأمر الكتابين منهم بكتابته حفاظاً عليه ، وكان فيما ينزل من آيات القرآن ما يحث على تعلم القراءة والكتابة ، وعلى العلم والتعلم ، فدعا ذلك أصحابه للتنافس في ذلك حرصاً منهم على حفظ القرآن وفهمه والعمل بما يدعو إليه ، وبذلك أخذ التعليم في الانتشار بين المسلمين .

٢ - وبعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة ، وأخذ سلطان الإسلام يمتد إلى الجهات البعيدة عنها أخذ الرسول ﷺ يرسل البعث من أصحابه إلى من يدخلون في الإسلام لتعليمهم شعون دينهم ، وسلك طريقه الخلفاء من بعده ، وأكثروا من إنشاء الكتاتيب لتعليم الصبيان القراءة والكتابة ، ومبادئ العلوم ، وتحفيظهم القرآن الكريم .

٣ - وأخذت دائرة العلوم والفنون في الاتساع ، ولم ينته القرن الثاني حتى غطت المدارس والمكتبات الصغيرة الأقطار الإسلامية على سعتها ، فضلاً عن أن كل مسجد كان لا يخلو من مدرسة تقوم فيه ، فكان المسجد هو النواة الأولى للمدرسة في حضارتنا ، فلم يكن مكان عبادة فحسب ، بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة ، وعلوم الشريعة واللغة وفروع العلم المختلفة .

٤ - ثم أقيم بجانب المسجد الكتاب وخصص لتعليم القراءة والكتابة ، والقرآن وشيئاً من العلوم العربية والرياضية ، وكان الكتاب يشبه المدرسة الابتدائية

في عصرنا الحاضر ، وكانت الكتاتيب من الكثرة بحيث عد ابن حوقل ثلثائة كتاب في مدينة واحدة من مدن صقلية ، وكان من الاتساع أحياناً بحيث يضم الكتاب الواحد مئات وآلاف من الطلاب .

وما يذكر في تاريخ أبي القاسم البلخي أنه كان له كتاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ ، وكان كتابه فسيح جداً بحيث يحتاج إلى أن يركب إحماراً ليرتد بين طلابه ، ويشرف على شئونهم .

٥ - ثم قامت المدرسة بجانب الكتاب والمسجد ، وكانت الدراسة فيها تشبه الدراسة الثانوية والعالية في عصرنا الحاضر ، وكان التعليم فيها مجانياً في جميع مراحلها ، فلم يكن يدفع الطلاب في دراستهم الثانوية والعالية رسماً ما من رسوم الدراسة التي يدفعها طلابنا اليوم في بعض الدول الإسلامية .

ولم يكن التعليم فيها محصوراً في فئة من أبناء الشعب دون فئة ، بل كانت فرصة التعليم متوفرة لجميع أبناء الشعب وكان يجلس فيها ابن الفقير بجانب ابن الغني ، وابن التاجر بجانب ابن الصائغ والمزارع .

وكانت الدراسة فيها قسمين : قسماً داخلياً للغرباء ، والذين لا تساعدهم أحوالهم المادية على أن يعيشوا على نفقات آبائهم ، وقسماً خارجياً لمن يريد أن يرجع في المساء إلى بيت أهله وذويه ، أما القسم الداخلي فكان بالمجان أيضاً ، يهياً للطلاب فيه الطعام والنوم والمطالعة والعبادة ، وبذلك كانت كل مدرسة تحتوي على مسجد وقاعات للدراسة ، وغرف لنوم الطلاب ، ومكتبة ومطبخ وحمام ، وكانت بعض المدارس تحتوي فوق ذلك على ملاعب للرياضة البدنية في الهواء الطلق .

٦ - وقامت الجامعات والمكتبات الكبيرة التي تحوى آلاف المجلدات في المدن الكبيرة ، من سمرقند وبخارى شرقاً إلى العراق والشام ومصر والمغرب وقرطبة وغرناطة غرباً .

واشتغل المسلمون بالعلوم على اختلاف أنواعها من دينية وأدبية ، ورياضية وهندسية ، وطبية وكيميائية وفلكية وفلسفية ، وغيرها .

٧ - والمسلمون هم أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية ، وأعتق العلم من رق التقليد ، وعلم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع

استقامة الدين .

ففى الطب لم يكتبوا بما حوته الكتب الطبية التى نقلوها من اليونانية أو السريانية ، بل عكفوا على دراسة الأمراض ومداواتها فى تجارب كانوا يجربونها فى المخابر والمستشفيات التى أنشئوها ، حتى زادوا فى الطب القديم زيادات كبيرة ، وعدّلوا من معارف القدماء تعديلات مهمة .

وحسب الأطباء المسلمين أنهم أول من فتتوا الحصى فى المثانة ، وسدّوا الشرايين النازفة ، وكتبوا فى الجذام والحصبة والجدري ، وعدوى الطاعون واستعملوا الخدر فى العمليات الجراحية ، وكشفوا النقاب عن الدورة الدموية ، وعن دورة « الإنكلستوما » وكان اسمها عندهم الدورة المستديرة . . . إلخ .

٨ — وهم أول من أنشأ المدارس الطبية على أدق النظم الحديثة ، وأول مدرسة طبية أنشئت فى أوروبا على النظام الحديث هى التى أنشأها المسلمون فى ساليرن من بلاد إيطاليا .

ومن أشهر أطباء المسلمين فى الشرق أبو بكر الرازى ، وابن سينا ، ومن أشهرهم فى الأندلس أبو القاسم الزهراوى (١) وعبدالله بن زهر (٢) .

٩ — والمسلمون هم الذين وضعوا أساس صناعة الصيدلة ، وكانوا يجلبون العقاقير من الهند وغيرها ، ثم أخذوا يصنعون عقاقير أخرى ويعالجون المرضى بها ، ويدرسونها ويؤلفون الكتب فيها .

١٠ — وهم أول من اكتشف الكيمياء الحقيقية ، ويقول العارفون من علماء أوروبا : إن المسلمين هم الذين وضعوا أساس الكيمياء الحديثة بما كانوا يقومون به من تجارب وبما كانوا يبيعونه من مستحضرات كيمائية استعملت فى صناعات شتى ، كصناعة الورق ، والصابون والأصبغة والمفرقات ، والأدوية ، وقد نقل الغربيون عنهم بعض الصناعات ولا سيما صناعة الورق ، كما نقلوا إلى لغاتهم أكثر من خمسين اسماً من الأسماء الكيمائية التى وضعها المسلمون .

(١) أبو القاسم الزهراوى من أطباء الأندلس المعدودين توفى سنة ٥١٦ هـ .

(٢) من أطباء الأندلس الذين اشتهروا فى الكتابة عن الأغذية والأدوية توفى سنة ٥٥٧ هـ .

١١ - وفي ميدان العلوم الرياضية اقتبس المسلمون الأرقام الهندية وهذبوها وأوجدوا لها طريقة مبتكرة ، هي الإحصاء العشري باستعمال الصفر ، كما يستعمل في أيامنا هذه ، وعن الأرقام العربية التي استخدمها المسلمون في المغرب والأندلس أخذت أوربا أرقامها في شيء يسير من التعديل ما زال يشف عن أصلها العربي.

ولم يكتف علماء المسلمين في الرياضة بكتب إقليدس ، وأرشميدس^(١) ، بل ألفوا في الحساب كتباً كثيرة ترجم الأوربيون بعضها وانتفعوا بها . أما الجبر فقد أوضحوا معالمة ، وأضافوا إليه ما جعله علماً مستقلاً ، وعنهم نقل الإفرنج اسم هذا العلم إلى لغتهم .

ولمحمد بن موسى الخوارزمي^(٢) أول كتاب في الجبر نهل من معينه علماء العرب وعلماء الغرب جميعاً ، وقد استعمل المسلمون الرموز في الرياضة فسبقوا الأوربيين إليها .

١٢ - وفي الهندسة ترجموا كتاب إقليدس ، وأسموه كتاب الأصول ، ثم صنفوا كتباً أخرى ضمنوها قضايا عويصة أبدعوا في حلها .

ومن الثابت أن الأوربيين في القرون الوسطى لم يعرفوا عن علم الهندسة شيئاً إلا بعد أن نقلوا كتاب إقليدس وغيره من كتب الهندسة العربية إلى اللاتينية ، ويعود الفضل الأكبر إلى المسلمين في جعل المثلثات علماً مستقلاً كامل التكوين .

١٣ - ومآثر المسلمين في علم الفلك جد كثيرة ، فقد بدعوا يترجمون الكتب اليونانية في هذا العلم منذ أواخر عهد الأمويين ، ثم صححوا ونقحوا ما ترجموه ، وزادوا عليه معلومات كثيرة ، وأنشئوا المراصد في أنحاء البلاد الإسلامية ، فقامت المراصد في جيرالد وأشبيلية وصقلية غرباً تجاوب مراصد العراق وسمرقند وبخارى شرقاً .

وقد طهروا هذا العلم من خرافات التنجيم ، ووضعوا الأزياج^(٣) الدقيقة

(١) من أكبر علماء الهندسة الإغريق توفى سنة ٢١٢ قبل الميلاد .

(٢) مؤلف رياضى مشهور توفى سنة ٣٥٠ هـ ، ٩١٧ م .

(٣) الأزياج جمع زيج وهو ما يستدل به على حركة النجوم السيارة .

الكبيرة الفائدة ، ووضعوا جداول للأرصاء الفلكية في غاية الضبط ، ووصلوا بتلك إلى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية الأرضية .

وهم أول من عرف الأصول التي تفضى إلى الرسم على سطح الكرة ، وأول من أوجد علمياً طول الدرجة من خط نصف النهار ، وقالوا باستدارة الأرض ودورانها على محورها، وفي عهد أمير المؤمنين المأمون مسحوا الكرة الأرضية ، وعرفوا محيطها وقطرها .

١٤ - والعرب سبقوا الغرب إلى إختراع آلة الأسطرلاب الدقيقة، وحققوا مواقع كثيرة من النجوم ، وحسبوا طول السنة الشمسية ، وبحثوا في كلف الشمس^(١) قبل الأوربيين ، ووضعوا جداول دقيقة في النجوم الثوابت ، وصوروها في مصورات ، فأمتت مرجعاً مهما لعلماء عصرنا في بحثهم التاريخي عن مواقع بعض الكواكب وحركاتها ، ونقل الأوربيون إلى لغاتهم كثيراً من أسماء النجوم العربية وكان للعلماء المسلمين في بحوث علم الطبيعة ملاحظات واختبارات تدل على أنهم يعدون من واضعي أسس البحث العلمي الحديث قبل الأوربيين المحدثين .

١٥ - وقد كتبوا في الميكانيكا ، وسموا ما كتبوه في ذلك علم الخيل ، وبحثوا في السوائل فعملوا صعود الماء في العيون والفوارات ، وتجمعه في الآبار والقنوات واعترف كثير من علماء أوربا أن ابن يونس هو الذي اخترع البندول أما قانونه فواضعه جاليليو^(٢) ، ومع هذا كان للمسلمين فكرة واضحة عن هذا القانون .

١٦ - والمسلمون هم أول من استعمل الساعات الدقاقة والساعات الزوالية وبحثوا في الصوت : حدوثه وانتشاره وأنواعه ، وعللوا الصدى ، وطبقوا مبادئ الصوت على الموسيقى ، وألفوا في ذلك كتباً نفيسة ، وابتدعوا آلات كثيرة .

١٧ - وعرف المسلمون ظاهرة الجذب المغناطيسي وطبيعة اتجاهه ، وأفادوا من ذلك في أسفارهم البرية والبحرية .

(١) البقعة السوداء التي ترى في وجهها .

(٢) هو فلكي إيطالي مشهور توفي سنة ١٦٤٢ م .

١٨ - ولهم في علم الضوء بحوث جلييلة لم يسبقهم إليها أحد ، ومن أشهر الباحثين في هذا العلم الحسن بن الهيثم ، وقد كانت مؤلفاته مرجعاً للأوروبيين حتى القرن السادس عشر للميلاد .

١٩ - ونقل المسلمون إلى العربية كتب فلاسفة اليونان ، مثل أفلاطون وأرسطو ، وسرعان ما ظهر فيهم فلاسفة امتازوا بتفكيرهم الواسع ، وعقولهم الجبارة ، فعدوا من العاملين على تقدم العقل البشرى ، ومن أشهرهم الفارابى (١) وابن سينا (٢) وابن رشد (٣) والغزالي (٤) .

قال لوبون : إذا تخزينا الحقيقة نجد أن العرب هم أول من برز فيهم ما نسميه في زماننا هذا باسم التفكير الحر ، وقد أعجب العلماء الغربيون بذلك الفكر المتقدم الذى أملى على ابن خلدون آراءه الاجتماعية والاقتصادية فى مقدمة تاريخه المشهور ، وعده كثير منهم مؤسس علم الاجتماع ، وأصول الاقتصاد السياسى قبل ميكافلى (٥) ومنتسكيو (٦) ، وأوجست كُنت (٧) ، وغيرهم من علماء الغرب .

٢٠ - ولست فى حاجة إلى ذكر من نبغ من المسلمين فى تلك العصور فى كل علم وفن وما ألفوه من الكتب فى مختلف العلوم والفنون التى نحن عالة عليها فى معارفنا حتى اليوم ، ولا إلى ذكر ما أسس الخلفاء والولاة من المدارس ، وأقاموا من المراصد ، وما حشدوا من الكتب إلى المكاتب ، لأن هذا يحتاج إلى مجلدات .

ولا إلى ذكر ما أقاموا فى المدن الكبيرة من مساجد تعتبر تحفة غالية ، وما شيدوا من بيوت عالية ، وقصور شاهقة ، وسماء تطاول السماء ، وأطواد تناطح الجوزاء ، وقباب تفضى إليها النجوم بالأسرار ، وأبراج تحيل السحب إلى

(١) فيلسوف إسلامى له أبحاث فى الفلسفة والموسيقى ، ويقال إنه واضع الآلة الموسيقية المعروفة بالقانون توفى سنة ٣٣٩ هـ .

(٢) فيلسوف إسلامى اشتهر بالفلسفة والأخلاق والطب توفى سنة ٤٢٨ هـ .

(٣) أشهر فلاسفة المسلمين وأكبر أساتذة أوروبا فى العلم والفلسفة توفى فى بلاد المغرب سنة ٥٩٥ هـ .

(٤) من أشهر فلاسفة العرب له مؤلفات كثيرة فى الفلسفة والتصوف توفى سنة ٥٠٥ هـ .

(٥) مؤلف سياسى إيطالى توفى سنة ١٥٢٧ م .

(٦) هو أحد واضعى أسس علم الاجتماع ، وهو فرنسى الأصل توفى سنة ١٨٥٧ م .

(٧) هو من أبرز علماء الاجتماع الفرنسيين توفى سنة ١٨٥٧ م .

أمطار .

ولا إلى ذكر ما أقاموه في المدن والقرى من مصانع ومؤسسات تمد الشعوب بكافة المنتجات والحاجيات .

ولا إلى أنهم جعلوا من بلاد الأندلس فردوساً ، ومن الشام جناناً ، ومن العراق ومصر وغيرهما حقولاً ناضرة ، وحدائق يانعة ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وتبعث إليك بأريج أزهارها .

لست في حاجة إلى ذكر شيء من هذا ، فقد كفتنا ذكره كتب التاريخ ، وما زالت آثارهم في بعض البلاد تشيد بفضلهم ، وتحدث بمجدهم .

مدينة الأوربيين من المسلمين :

من دولة المسلمين في الأندلس التي كانت زينة الدنيا في العلوم والفنون والحضارة وال عمران أخذ الأوربيون مدنيتهم وحضارتهم ، وفي جامعات العرب ومدارسهم في الأندلس وجنوب إيطاليا تلقوا علومهم ومعارفهم ، كما نقلوا كثيرا من محاسن الإسلام وعلومه إلى بلادهم أيام اختلاطهم بالمسلمين في الحروب الصليبية وهذا أحد فلاسفتهم يقول : ليس في الأوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ، ثم ينكر أن الفضل في إخراج أوربا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم ، وفي تعليمها كيف تنظر ، وكيف تفكر ، وفي معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الأصلان اللذان يبنى عليهما العلم إنما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التي حملوها إليهم ، وأدخلوها من أسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا عليهم .

إن شوارع باريس لم تفرش بالحجارة إلا في القرن الثاني عشر ، وقد رصت بالبلاط على نحو ما رصت به مدن أسبانيا(١) .

ويقول آخر : لا أدري كيف أعطانا الإسلام في مدة قرنين عدداً من الفلكيين يطول سرد أفرادهم ، وإن الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثني عشر قرناً في أوربا ولم تمنحنا فلكياً واحداً(٢) .

(١) الإسلام والنصرانية للإمام محمد عبده ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) الإسلام والنصرانية ٩٦ .

ويقول لوبون : إنه لو انتصر العرب على شارل مارتل لأصاب أوروبا النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب أسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي محمد ﷺ (١) .

وهكذا نجد المسلمين قد ضربوا بسهم وافر في ميادين المعرفة الإنسانية من أقدم العصور ، فكانوا أساتذة علماء أوروبا ، ومصدراً للعلوم الحديثة في صورها المختلفة باعتراف المفكرين الأحرار من الأوربيين (٢) .

* * *

(١) مخلود الإسلام للدكتور خفاجي ١١٩ .

(٢) مراجع هذه المبحث : العلوم عند العرب للأستاذ قدرى حافظ طوقان . أثر العرب في الحضارة الأوربية للعقاد . الكيمياء عند العرب للأستاذ روجي الخالدي . علوم العرب وأثرها في نهضة أوروبا للأستاذ مصطفى الشهاوى رئيس المجمع العربى بدمشق ، ويعد من أبرز علماء سوريا وأدبائها . الإسلام والنصرانية للإمام محمد عبده .

المبحث الحادى عشر

سبب تأخر المسلمين فى العصور الوسطى

يرجع تأخر المسلمين فى جميع نواحيهم فى العصور الوسطى حتى العصر الحديث إلى أمرين :

أ — انحرافهم عن دينهم وتركهم تعاليمه :

فالمسلمون حينما كانوا متمسكين بدينهم علماء بقرآنتهم ، مستبصرين بتعاليمه سائرين على نهجه كانوا علماء الكون ، وأساتذة العالم فى العلم والمعرفة ، وفى القمة فى جميع شئونهم ، وأقاموا أرقى حضارة ، وأزهى مدنية كما سبق بيانه .
وحينما انحرفوا عن دينهم ، وتركوا تعاليم قرآنتهم ، وأخذوا فى الصد عنه وعن علومه وفنونه ، وأغلقوا باب الاجتهاد وجمدوا على التقليد الأعمى تأخروا عن ركب الحضارة والتقدم العلمى والفنى والحضارى .

وساعد على ذلك أن تولى رئاستهم رجال أعاجم بعينين عن لغة القرآن وفهم تعاليمه وأدار شئونهم جهالهم ، فجهل المسلمون شئون دينهم ، واستولت عليهم البدع والخرافات من جميع جوانبهم ، وانقطعت الصلة ، الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، والأمم التى تجهل ماضيها لا تعرف كيف تنهيا لخير مستقبلها .

ب — الاستعمار :

كان المسلمون هم أصحاب الفضل فى مدنية الغربيين وحضارتهم ، كما سبق بيانه ، واعترف به أحرارهم ، وكان من المنتظر أن يقابل الغربيون الفضل بمثله ، ولكن خوفهم من انتشار الإسلام وظهوره وحقدهم عليه ، وتعصبهم

ضده ، دفعهم إلى أن يعملوا على تأخر المسلمين وتخلفهم ثقافياً واقتصادياً ، وإليك الأدلة على ذلك :

١ - لقد استعمر الغربيون بلاد المسلمين واستعبدوا أهلها ، وابتزوا ثروتهم ، وجعلوا من أنفسهم حكاماً عليهم ، وفرضوا عليهم ثقافتهم ولغتهم وقوانينهم وعملوا على تنفيرهم من دينهم الذي كان سبب مجدهم ورفقيهم ، وحالوا بينهم وبين تشريعاته القيمة التي تدفعهم إلى سعادة الدنيا والآخرة .

٢ - حال الاستعمار بين المسلمين وبين إقامة مؤسسات صناعية وفنية وتجارية ، ورحلوا سكان المستعمرات من المناطق الخصبة إلى المناطق المجذبة وضعيفة الإنتاج حتى يحتكروا الصناعات وتخلص لهم الثروات والخيرات ، ويحرم منها أهلها فيعمهم الفقر وتفتك بهم الأمراض ، فيسهل عليهم تبعاً لذلك تجريدتهم من دينهم .

٣ - نشر الاستعمار مبشريه في البلاد التي بسط نفوذه عليها ، وزودهم بكل الإمكانيات للعمل على إضعاف الإسلام وتقلصه ، وإخراج الناس منه .

٤ - أوعز الاستعمار إلى مبشريه بالعمل على تحطيم قوة التماسك الجبارة التي يتميز بها الإسلام ، وتربط بعضه ببعض ، ليستمر استعمارهم لبلادهم .

٥ - كما أوعز الاستعمار إليهم دراسة القرآن الكريم ، لا لينتفعوا بما جاء فيه ، وإنما ليصلقوا به أباطيلهم ، ويشوهوا حقائقه ، لينفروا الناس منه ، ويحولوا بينهم وبين تعاليمه التي تعمل على اتحاد شعوبه ضد أعدائه ، وعلى رقي المسلمين وتقدمهم .

٦ - أقام الاستعمار ومبشروه في البلاد الإسلامية مؤسسات تعليمية ومشافى ومستوصفات ، وجمعيات خيرية ، ظاهرها نفع المسلمين ، وبساطها شر لهم ، وهدم لدينهم .

٧ - فرض الاستعمار ضرائب باهظة على منشئاته في البلاد الإسلامية ، تجبى من المسلمين وتصرف على المبشرين بالدين المسيحي ، كما كان يحدث في قناة السويس .

٨ — إن أكثر المستشرقين لم يكونوا مخلصين في مهنتهم ، بل كانوا يعملون على تشويه التاريخ الإسلامى ، وأبطاله وقادته ، والطنن فى العقيدة الإسلامىة .

٩ — إن أقسام الدراسات الإسلامىة والعربىة التى يشرف عليها المستشرقون فى جامعات أوربا وكندا والولايات المتحدة صارت ذات طابع هجومى على الإسلام ، ومراكز للتجسس عليه ، ويندب للتدريس فىها أساتذة من جمىع أنحاء العالم الإسلامى لهذا الغرض .

١٠ — إن شعوب أوربا المختلفة المتناقضة قد تحالفت وتجمعت للعمل جاهدة على الحىولة دون نهضة الإسلام ، وللقضاء عليه ، لاعتقادهم أنه الحدار الوحىد الذى يقف فى وجه الاستعمار الأوربى ، وأن الخطر الحقىقى عليهم يكمن فى نظام الإسلام ، وفى قدرته على التوسع وفى حىويته .

١١ — ما دسه المستشرقون باسم العلم والفكر من أفكارهم الصلبنىة فى بحوثهم وكتبهم ، وشوهوا به الإسلام وتارىخه فى نظر العالم المتحضر ، وتلقنه كثر ممن تعلم من الشرقىين فى جامعات الغرب ، وعادوا به ىثونه فى الشرق ، وىدعون إىله .

١٢ — ما قامت به أوربا من نشر مذاهب جدىة منحرفة وهدامة فى وسط العالم الإسلامى ، كالماسونىة ، والصهىونىة ، والوجودىة ، والإحادىة ، وىرها التى تدعو إلى حضارة الغرب المدمرة ، حضارة الربا والقمار . والعرى الفاضح والشهوات العارمة ، والجنس الآثم ، والشذوذ الجنسى ، والمادىة الملحذة ، والعلمانىة الكافرة ، والشىوعىة الفاجرة ، فخلقت العداوة والبغضاء بىن المسلمىين وشغلت بعضهم بىعض .

نهضة تبشر بالخىر : مما ىبشر بالخىر أن أكثر المسلمىين فى هذا العصر أخذوا فى العودة إلى دىنهم ودراسة قرآنهم وعلومه ، وفتحوا باب الاجتهاد من جدىد واتجهوا إلى أخذ تعالیم دىنهم من منبعه الأول : كتاب الله وسنة رسوله ، صافياً من البدع والخرافات وإلى دراسة أحوال السابقىن ، والاسترشاد بهدىهم فى فهم الدىن ، والسىر على صراطهم المستقىم .

واتخذت معظم الدول الإسلامىة قراراً بمجانىة التعلیم فى جمىع مراحلها ، وأقامت

المبحث الثاني عشر

كيف يستعيد المسلمون مجدهم التليد

لقد بنى المسلمون السابقون مجداً علمياً شامخاً سامقاً في شتى الميادين ، وكانوا هداة الإنسانية ، وقادتها إلى آفاق المعرفة حقباً طويلة من الزمن ، وكانت لهم حضارة زاهية ، ومدنية صافية ، شهد لهم بها مؤرخو الثقافة والفكر ، كما سبق ذكره .

ولكى نستعيد هذا المجد ، ونسعد في الحياتين كما سعدوا ، يجب علينا أن نهج منهجهم في فهم الدين ، والسير على طريق رب العالمين ، وصراطه المستقيم ، فنأخذ ديننا من منبعه الأول — كتاب الله وسنة رسوله — صافياً من البدع والخرافات ، وأن ندرس أحوال السابقين ، ونترسم خطاهم في التعلم والعمل ، وبذل كل ما لدينا من إمكانيات ، وما نملكه من طاقات ، لنترفع إلى مستوى المسئولية والآمال التي نتطلع إليها ، ونصل حاضرنا بماضيينا .

وقد أثبتنا في الماضي قدرتنا على إنشاء مثل تلك الحضارة المرتقبة ، والمدنية المنتظرة ، وما دمننا قد استطعنا أن نقيم تلك الحضارة الإنسانية الرائعة في عصور التخلف العلمي والفكرى ، فنحن اليوم أقدر على أن نقيم مثلها في عصور التقدم العلمي والفكرى ، واكتشاف المجهول الكونى شيئاً بعد شيء ، وقد وعدنا الله أن يهبنا في الدنيا الحياة الطيبة الرغيدة ، وأن يرفعنا في الآخرة إلى الفردوس الأعلى إذا سرنا في طريقه القويم ، وعملنا النافع لنا وللناس أجمعين ، فقال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (١) .

(١) النحل ٩٧ .

وإننا إذا سرنا على منهاج القرآن الكريم فلا تنتظر الإنسانية منا — على اختلاف أديانها ومذاهبها — إلا الرحمة والبر والمودة والخير .

فحين نمسك بزمام الحضارة المرتقبة لن نتخذ من الوصول إلى الفضاء دليلاً على الإلحاد وإنكار وجود الله ، ولن نتخذ من الصواريخ عابرة القارات وسيلة إلى تهديد الأمم والشعوب ، لتظل تحت دائرة نفوذنا ، ولا نتخذ من وسائل الإعلام ودور الخيالة وسيلة للتضليل ونشر الفجور ، وفتنة الشباب وإغرائه بالفساد ، ولا من المرأة متعة للجسم ، ولا من التقدم الحضارى أداة لاستغلال الشعوب المتخلفة ، واستنزاف خيراتها ، وإذلال شعوبها ، وإنما تنتظر منا العدالة الكاملة ، والمساواة الشاملة ، والخير العام ، والنفع التام ، فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ، كما كان الحال في عهد أسلافنا .

إن الله تعالى ينفخ فينا من روحه لكى نحمل اللواء ونكون قادة الأمم إلى مدينة سعيدة فاضلة ، وحياة خيرة طيبة ، فيقول تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (١) ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ (٢) .

وقد بين الله لنا الدعائم التى تبنى عليها الحياة الهنيئة الفاضلة ، وتؤدى إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وهى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال تعالى : ﴿ الدين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ (٣) .

وحيث أننا حين استجبنا لنداء الله تعالى فى الماضى حملنا لواء الإنسانية ، وقدناها إلى مواقع الأمن والطمأنينة ، والحياة الهنيئة السعيدة ، فلماذا لا نحمله مرة أخرى ونعيد سيرتنا الأولى ، ونستجيب لنداء الله الذى يحثنا على السير فى طريق أسلافنا ، حتى نعزكاً عزواً ونحظى بحياة هنيئة كريمة ، فيقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم ﴾ (٤) .

(٣) الحج ٤١ .

(٤) الأنفال ٢٤ .

(١) آل عمران ١١٠ .

(٢) البقرة ١٤٣ .

وإذا كان المسلمون قد تأمرت عليهم قوى الظلم والعدوان ففتحهم عن قيادة الركب العلمى والثقافى فترة من الزمان ، فها هم أولاء قد أفاقوا من غفلتهم ، وأخذوا يتنادون فى كل مكان ، هيا إلى الأمام لتسجل من جديد صفحات رائعة فى سفر التاريخ ونضيف إلى العلوم والفنون والحضارة والمدنية بإبداعنا ما يستحق أن يكون فخراً لنا وللإنسانية فى مستقبلها ، كما كان ذلك فخراً للإنسانية فى ماضيها . وإننا لنأمل أن يحمل راية الإسلام من جديد رجال لا يخافون فى الله لومة لائم ، يردون عنه عادية الإلحاد والفسوق ، ويرفعون راية الإسلام عالية خفاقة فى كل مكان .

فيدرك ثأر الله أنصار دينه . والله أوس آخرون وخزرج

فإلى الأمام على طريق الله — أيها المسلمون فى كل مكان — فإننا على ميعاد من الله أن يحقق لنا عز الدنيا ، وسعادة الآخرة ، إذا سرنا على هدى قرآننا وسنة نبينا ، وفى طريق سلفنا ، فقد قال تعالى :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ويمكّنهم الذى ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (١) .

قرآننا

قرآننا	نور	يضىء	طريقنا	قرآننا	ياقوم	مصدر	عزنا
قرآننا	كان	الأساس	مجدنا	قرآننا	أضحى	السييل	لنصرنا

يا إخوة الإسلام سيروا إلى الأمام
بالعزم والإقدام بصحبة القرآن

قرآنا نور يضيء طريقنا

النور في أيدينا وربنا يحمينا
قرآنا يهدينا لساحة الإيمان

قرآنا نور يضيء طريقنا

هيا ارفعوا القرآن وحطموا الأوثان
وحرروا الإنسانا من قبضة الطغيان

قرآنا نور يضيء طريقنا

هيا اهتفوا يا إخواني واستيقظي يا أمتي
هيا أعيدي بسمتي كسابق الأزمان

قرآنا نور يضيء طريقنا

* * *

الفصل الخامس

محااربة أهل الكتاب للدعوة المحمدية

وبه مقدمة ، وتسعة مباحث

- ادعاء كل من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملته .
- ادعاء كل منهم أن غيره ليس على شيء من الدين .
- ادعاء كل منهم أن لا دين إلا دينه .
- ادعاء كل من اليهود والنصارى أن دينه هو الأحق بالاتباع وأن إبراهيم عليه السلام كان على ملته .
- سعى الكثير من أهل الكتاب في إضلال المسلمين .
- تعالى أهل الكتاب على الإسلام والمسلمين .
- سعيهم في تمزيق وحدة المسلمين وإشعال نيران الفتن ضدهم .
- استهزاؤهم بالدين الإسلامي وعباداته .
- محاربتهم للدعوة المحمدية في شخص رسولها ﷺ .

مقدمة

لم يقف أهل الكتاب من الرسالة المحمدية ، والدعوة الإسلامية عند هذا الحد من إنكار نسخها لما سبقها من الشرائع السماوية ، وشمولها لسائر البشرية ، ومن الامتناع عن اعتناقها ، والانضواء تحت لوائها ، ليفوزوا بخيرى الدنيا والآخرة ، مع أنهم — كما سبق — كانوا على بينة من أمرها ، ويعرفون صدقها ، وصدق صاحبها ، كما يعرفون أبناءهم .

بل أخذوا يحاربونها ، ويقفون في وجهها ويصدون الناس عن سبيلها ، فضلوا ، وأخذوا يضللون غيرهم ، ويدعون أن لا هدى إلا هداهم ، ولا دين إلا دينهم ، فاليهود يدعون أن لا دين إلا اليهودية ، والنصارى يدعون أن لا دين إلا النصرانية ، وقد تمادى اليهود والنصارى في الدعاوى الباطلة ، حتى زعم كل فريق منهم أن الجنة وقف عليه ، لا يدخلها غيره ، لأنه — في نظره — صاحب الديانة الحقة وشعبه هو المختار .

وقد حكى القرآن أباطيلهم ، وسرد مفترياتهم ، ودمغها بالحجة والبرهان ، وإليك البيان لبعضها في المباحث الآتية .

المبحث الأول

ادعاء كل من اليهود والنصارى

أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملته

قال تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١) .

معاني المفردات : هودا : جمع هائد ، وهو معتنق اليهودية . الأمانى : واحدها أمانة ، وهي ما يتمناه الإنسان ولا يدركه ، والعرب تسمى كل ما لا حجة عليه ولا برهان له تمنيّاً وغروراً ، وضلالاً وأحلاماً . أسلم وجهه لله : انقاد وأخلص له في عمله ، بحيث لا يجعل العبد بينه وبين ربه وسطاء يقربونه إليه زلفى .

والمعنى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ، إلا أن الآية سلكت مسلك الاختصار ، فحكّت القولين في جملة واحدة ، وعطفت أحد الفريقين على الآخر بحرف « أو » ثقة بفهم السامع أن يرد كلا من القولين إلى صاحبه ، وأما من اللبس لما عرف من التعادى بين الفريقين ، وتضليل كل منهما لصاحبه .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ (٢) أى قال اليهود : كونوا هوداً تهتدوا ، وقالت النصارى : كونوا

(١) البقرة ١١١ ، ١١٢ .

(٢) البقرة ١٣٥ .

نصارى تهتدوا ، وهذه آراء الفريقين إلى يومنا هذا .

وكل من الفريقين لا يستند في مدعاه إلى عقل سليم ، أو نقل صحيح ، وإنما هي أماني وشهوات تمنوها على الله بغير حق ، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لكلا الفريقين : هاتوا برهانكم ودليلكم على ما تزعمون إن كنتم صادقين فيما تدعون .

وهذا وإن كان ظاهره طلب الدليل على صدق المدعى ، فهو في عرف التخاطب تكذيب له ، لأنه لا برهان لهم عليه .

وفي هذا إيماء إلى أنه لا يقبل من أحد قول لا برهان له عليه ، والقرآن الكريم ملء بالاستدلال على ذات الله ، وصفاته الذاتية ، بالآيات الكونية والبراهين العقلية .

ثم رد الله زعمهم الباطل فقال : بلى إنه سيدخلها من لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، لأن رحمة الله لا تختص بقوم دون غيرهم ، فليس بينه وبين أحد نسب ، وإنما هي لكل من يستحقها ، فمن أسلم وجهه لله وحده فلم يشرك به شيئاً ، وهو محسن في عمله ، فله ثواب عمله عند ربه ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون على ما مضى مما يتركونه .

قال ابن كثير^(١) : قال تعالى : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ أى من أخلص العمل لله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ﴾^(٢) الآية ، وقال أبو العالية والربيع : « بلى من أسلم وجهه لله » يقول من أخلص لله ، وقال سعيد بن جبير : « بلى من أسلم » أخلص « وجهه » قال : دينه (وهو محسن) ، أى اتبع فيه الرسول ﷺ فإن للعمل المتقبل شرطين : أحدهما أن يكون خالصاً لله وحده ، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشرعية ، فمتى كان خالصاً ، ولم يكن صواباً لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » رواه مسلم^(٣) ، فعمل

(١) في تفسيره ١ / ١٥٤ .

(٢) آل عمران ٢٠ .

(٣) في ١٢ / ١٦ .

الرهبان ، ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة

وفيهم وفي أمثالهم قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ﴾ (٢) يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة ﴾ (٤) تصلى ناراً حامية * تسقى من عين آنية ﴾ (٥) وروى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه تأولها في الرهبان .

وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله ، فهو أيضاً مردود على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين ، كما قال تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾ (٧) ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ (٨) . أ هـ

* * *

(١) الفرقان ٢٣ .

(٢) السراب : ما يرى في المكان المتسع الخالي وقت الظهر كأنه ماء . وقبعة : جمع قاع كحجرة جمع جار ، والقاع هو المكان الخالي .

(٣) النور ٣٩ .

(٤) خاشعة : ذليلة لأنها أدركت بطلان عملها في الدنيا . عاملة ناصبة : وقع منها عمل في الدنيا وأصابها فيه نصب ، أى تعب ولم تستفد من عملها سوى نصبها ، فأثر الحمية ، وحبوط العمل ظاهر عليها .

(٥) الآيات آخر الماعون .

(٥) شديدة الحرارة .

(٦) آخر الكهف .

(٦) الغاشية ٢ : ٥ .

(٧) النساء ١٤٢ .

المبحث الثاني

ادعاء كل منهم أن غيره ليس على شيء من الدين

قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ (١) | يقال فلان ليس على شيء من كذا : أى ليس على شيء منه يعتد به ، ويؤبه له .

سبب نزول الآية : أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد ، أو عكرمة عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ اتهم أحبار يهود فتنازعوا ، فقال رافع بن خزيمة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى والإنجيل ، فقال رجل من أهل نجران لليهود : ما أنتم على شيء ، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله في ذلك ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ﴾ (٢) | الآية .

والمعنى : وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء من الدين يعتد به ، فهم قد كفروا بالمسيح مع أنهم يتلون التوراة التى تبشر به ، وتذكر من الأوصاف ما لا ينطبق إلا عليه ولا يزالون إلى اليوم يدعون أن المسيح المبشر به فيها لما يأتي بعد ، و ينتظرون ظهوره وإعادة الملك إلى شعب إسرائيل . وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء من الدين يعتد به ؛ لإنكارهم نبوة المسيح المتمم لشريعتهم ، قالوا ذلك ، وكتاب كل من الفريقين ينطق بغير ما يعتقدون به ، فالتوراة تبشر برسول منهم يأتي بعد موسى ، لكنهم خالفوها ولم يؤمنوا به ،

(١) البقرة ١١٣ .

(٢) لباب النقول للسيوطى ١ / ١٩ .

والإنجيل يقول : إن المسيح جاء متمماً لنا موسى ، لا ناقضاً له ، وهم قد نقضوه ، فدينهم واحد ، لكن ترك بعضهم أوله ، وبعضهم آخره ، ولم يؤمن به كل واحد منهم ، والكتاب الذى يتلونه حجة عليهم ، وشاهد على كذبهم .

ثم بين الله أنهم ليسوا أول من قال ذلك ، بل قبلهم أمم قالت مثل مقالتهم فقال : ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ أى مثل هذا القول الذى لم يبن على برهان قال الجهلة من عبدة الأوثان ، من مشركى العرب وغيرهم لأهل كل دين : لستم على شيء .

والحق وراء هذه المزايع ، فهو إيمان خالص ، وعمل صالح ، لو عرفه الناس حق المعرفة لما تفرقوا أو اختلفوا فى أصوله ، لكنهم تعصبوا لأهوائهم ، فاختلفوا وتفرقوا طرائق قديداً .

﴿ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فهو العليم بما عليه كل فريق من حق أو باطل ، فيحق الحق ، ويجعل أهله فى النعيم ، ويبطل الباطل ، ويلقى أهله فى الجحيم .

* * *

المبحث الثالث

ادعاء كل منهم أن لا دين إلا دينه وأن لا هدى إلا في اتباعه

وقد حكى الله دعواهم هذه ، وأبطل مدعاهم . فقال تعالى : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ (١)

سبب النزول : أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال : قال ابن صوريا للنبي ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد . وقالت النصرارى مثل ذلك . فأنزل الله فيهم : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ (٢) .

والمعنى : وقالت اليهود للنبي ﷺ وللمسلمين : لا دين إلا اليهودية ، ولا يتقبل الله سواها فاتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا ، وبذلك كفروا بعبسى وإنجيله ، ومحمد وقرآنه — عليهما الصلاة والسلام — وقالت النصرارى للنبي ﷺ وأصحابه : لا دين إلا النصرانية ، ولا يتقبل الله سواها ، فاتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا ، وبذلك كفروا بموسى ومحمد وكتايبهما — عليهما الصلاة والسلام — ولو صح ما يقولون لما كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام مهتدياً ، لأنه لم يكن يهودياً ، ولا نصرانياً ، والجميع متفقون على أنه سيد المهتدين وإمامهم .

(١) البقرة ١٣٥ .

(٢) لباب النقول لسيوطى ١ / ٢٤ .

ثم أمر الله رسوله أن يرد عليهم بقوله ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ حنيفاً : أى مستقيماً ، ومائلاً عن الأديان الباطلة إلى دين الحق .

والمعنى : قل لهم — يا محمد — ليس الهدى فى اتباع ملتكم ، بل الهدى فى أن تتبع ملة إبراهيم الذى لا تنازعون فى هداه ، والمائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق ، والذى ما كان من المشركين بأى نوع من أنواع الشرك ، فاتبعوا أنتم أيضاً يا معشر أهل الكتاب — ما اتبعناه لتكونوا حقاً متبعين ملة إبراهيم .

وفى هذا تعريض بأهل الكتاب بأن ملتهم غير مستقيمة ، بل معوجة ، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم باطلة ؛ لأنهم أشركوا بالله العزيز والمسيح وغيرهما ، ونسبوا لله ما لا يليق .

* * *

المبحث الرابع

ادعاء كل من اليهود والنصارى أن دينه هو الأحق بالاتباع وأن إبراهيم صلى الله عليه كان تابعاً له

وقد سحقت الله ادعاءهم ، وسفه عقولهم ، وأظهر جهلهم فقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ . ما أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴿ (١) .

• سبب النزول : روى ابن إسحاق بسنده المتكرر إلى ابن عباس قال : اجتمعت نصارى نجران ، وأخبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأخبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً ، فأنزل الله ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون ﴾ الآية : أخرجه البيهقي في الدلائل (٢) .

والمعنى : أيها اليهود والنصارى ، لم تتنازعون وتجادلون في إبراهيم ، فيدعى اليهود منكم أنه كان يهودياً ، والنصارى أنه كان نصرانياً ، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ، أعميت عن الحق فلم تعقلوا أن المتقدم على الشيء لا يمكن أن يكون تابعاً له .

(١) آل عمران ٦٥ : ٦٨ .

(٢) لباب القول للسيوطي ١ / ٥٧ .

ها أنتم هؤلاء حاججتكم فيما لكم به نوع من العلم والمعرفة وهو عيسى عليه السلام وقد قامت عليكم الحججة ، وتبين أن منكم من غلا وأفرط ، وادعى ألوهيته ، ومنكم من فرط وقال : إنه دعى كذاب ، ولم يكن علمكم بمانع لكم من الخطأ ، فلم تحاجون في شأن إبراهيم عليه السلام ، وليس لكم به علم يصلح أن يكون أساساً للمحاجة وبخاصته ، والله يعلم كل ما يتعلق بشأن إبراهيم ، وأنتم لا تعلمون .

ما كان إبراهيم يهودياً كما يدعى اليهود ، ولا نصرانياً كما يدعى النصارى ، فكل منهما كاذب في دعواه ، والصادق فيهم أهل الإسلام ، فإنهم وحدهم أهل دينه ومنهاجه دون سائر الملل الأخرى ، وإبراهيم كان حنيفاً ، مائلاً عن الشرك بالله والوثنية ، منقاداً ومطيعاً لله وحده ، وما كان من المشركين ، كأهل الكتاب الذين قالوا عزير ابن الله ، أو المسيح ابن الله ، ومشركي العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله وعبدوا الأصنام والأوثان .

فإبراهيم الذي اتفق اليهود والنصارى ، ومشركو العرب على إجلاله وتعظيمه لم يكن على ملة أحد منهم ، بل كان مائلاً عما هم عليه من الشرك والوثنية ، مسلماً لله مخلصاً له .

إن أولى الناس بإبراهيم ، وأحقهم بالانتساب إلى دينه ، هم الذين سلكوا طريقه ، واتبعوا سبيله في عصره ، وعبدوا الله وحده مخلصين له الدين ، وكانوا خنفاء مسلمين غير مشركين ، وهذا النبي محمد ﷺ والذين آمنوا معه من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، إذ الكل متفق معه في الوحدةانية ، وإخلاص العبادة لله ، والله ولي المؤمنين بالنصر والتأييد والتوفيق والتسديد ، وهو حسبهم ونعم الوكيل .

* * *

المبحث الخامس

سعى الكثير من أهل الكتاب في إضلال المسلمين

وفى العمل على تكفيرهم ، وفتنتهم فى دينهم ، وتشكيكهم فى القرآن الكريم ، والآيات فى ذلك كثيرة منها :

١ - قوله تعالى : ﴿ وَذَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

والمعنى : يود كثير من أهل الكتاب ويرغبون أن يردوكم - أيها المسلمون - إلى الكفر بعد إيمانكم ، مع أنه قد تبين من الآيات التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم ، ومما يجدونه فى كتبهم أنكم على الهدى ودين الحق ، وما ودوا إضلالكم وتكفيركم إلا حسداً لكم على ما آتاكم الله من فضله ، وخشية أن ينتقل السلطان إليكم .

٢ - وقوله : ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢) .

والمعنى : إن فريقاً من أهل الكتاب يحبون إضلال المؤمنين وفتنتهم عن دينهم بإلقاء الشبه التى توهن الاعتقاد ، وتزين الارتداد ، وهم بعملهم هذا لا يضلون إلا أنفسهم لأنهم بتوجههم إلى الإضلال ، واشتغالهم به ينصرفون عن النظر فى طرق الهداية ، ويفسدون فطرتهم باختيارهم ، وما يشعرون أنهم يضلون أنفسهم بذلك لأن انهماكهم فى الإضلال صرفهم عن معرفة الحق والهدى ، إذ المنهمك فى

(١) البقرة ١٠٩ .

(٢) آل عمران ٦٩ .

الشيء لا يفتن لعواقبه وأضراره .

٣ — وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجِهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ * وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا مَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ الْهُدَى هَدَى اللَّهُ . . . ﴿١﴾ .

والمعنى : وقال جماعة من أهل الكتاب لبعض أتباعهم : آمنوا بالقرآن الذي نزل على محمد — واتبعه فيه المؤمنون — أول النهار ، وصلوا معهم ، واكفروا في آخره لعلكم تستطيعون بهذا فتنتم بيت الرب والشك فيهم ، فيرجعوا عن دينهم ، ولا تصدقوا أحداً في أمور الدين إلا إذا كان منكم .

قل لهم — يا محمد — إن الهدى هدى الله يهدى به من يشاء من عباده .
ويثبتته على الإيمان .

* * *

(١) آل عمران ٧٢ ، ٧٣ .

المبحث السادس

تعالى أهل الكتاب على الإسلام والمسلمين

يتعالى كل من اليهود والنصارى على الإسلام والمسلمين ، ويدعون أنهم في حصانة من عذاب الله ، لأنهم أبناؤه وأحباؤه .

وقد حكى الله عنهم ذلك ، ورد عليه بما دحضه في عبارة وجيزة ، فقال تعالى : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ (١) .

سبب النزول : روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال : « أتى رسول الله ﷺ نعمان بن قصى ، وبحر بن عمرو ، وشاس بن عدى . فكلموه وكلمهم ، ودعاهم إلى الله ، وحذرهم نقمته ، فقالوا : ما نخوفنا يا محمد ، نحن والله أبناء الله وأحباؤه ، كقول النصارى ، فأنزل الله فيهم ﴾ وقالت اليهود والنصارى . . . ﴿ (٢) .

والمعنى : وقالت اليهود — التى تدعى أنها شعب الله المختار — كما قالت النصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فالله يعاملنا معاملة الأب لأبنائه ، يعطف علينا ويرحمنا ، ويمنحنا عطفه وبره ، وقد رد الله عليهم بقوله : قل لهم — يا محمد — إذا كان الأمر كذلك فلم يعذبكم بذنوبكم فى الدنيا ، كما ترون من تخريب دياركم وهدم الوثنية لمسجدكم فى بيت المقدس ، ومن لصوق العداوة والبغضاء فيكم أيها النصارى ، فأنتم تتحاربون ، وتتقاتلون مدى الحياة على هذه الأرض ، وأما فى

(١) |المائدة ١٨ .

(٢) |آبَاب النقول للسيوطى ١ / ١٠٩ .

الآخرة فالعذاب شديد ، والألم عظيم ، وأنتم مقرون بأنكم ستعذبون على ما ارتكبتم من خطايا ، والأب لا يفعل هذا مع أبنائه ، والأولاد لا يعصون أباهم ، ولا يفعلون معه ما تفعلون ، بل أنتم بشر من خلق الله كسائر البشر ، لا مزية لكم على غيركم ولا فضل ، والله تعالى يغفر لمن يشاء إذا تاب عن الشرك ، ويعذب من يشاء تعذيبه لا اعتراض عليه لأنه صاحب التصرف المطلق له ملك السموات والأرض وما بينهما ، ومصير البشر جميعاً إليه ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ (١) .

قال صاحب المنار (٢) : كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ، ميزهم لذاتهم على جميع البشر ، فلا يمكن أن يساويهم شعب آخر عنده ، وإن كان أصح منهم إيماناً وأصلح عملاً ، وأنهم لا يكونون تابعين لغيرهم في الدين ، فلا يصح أن يتبعوا محمداً ﷺ لأنه عربي لا إسرائيلي ، والفاضل لا يتبع المفضول بزعمهم ، ولا يمكن أن يؤاخذهم الله على الكفر به ، لأنهم شعبه الخاص المحبوب ، فهو لا يعاملهم إلا معاملة الوالد لأبنائه الأعمام ، والمحبة المحبوبة الخاص .

وأما النصراني فقد أربوا عليهم في الغرور — وإن كان النبي الذي يدعون اتباعه قد جاهد غرور اليهود جهاداً عظيماً — فهم يدعون أن المسيح قد فداهم بنفسه ، وأنهم أبناء الله وولادة الروح ، والمسيح ابنه الحقيقي ، ويخاطبون الله تعالى دائماً بلقب الأب .

وقد كانت جميع فرقهم في زمن بعثة النبي ﷺ أشد من اليهود فساداً وإفساداً ، وفسقاً وفجوراً ، وظلماً وعدواناً ، بشهادة مؤرخي الأمم كلها منهم ومن غيرهم ، ومع ذلك كله كانوا يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم غير محتاجين إلى إصلاح في دينهم ولا دنياهم .

ولذا رفضوا ما دعاهم إليه النبي ﷺ من التوحيد الخالص ، والفضائل الصحيحة والأعمال الصالحة ، وردوا ما جاءهم به من كون مرضاة الله تعالى ومثوبته لا تنالان إلا بتزكية النفس ، وإصلاحها بالتوحيد والعمل . أهـ

(١) النجم ٣١ .

(٢) في تفسيره ٦ / ٣١٦ .

المبحث السابع

سعيهم في تمزيق وحدة المسلمين

وإشعال نيران الفتنة ضدّهم

لما كان من شأن اليهود والنصارى ، ومن طبيعتهم العمل على تمزيق وحدة المسلمين ، وإشعال نيران الفتنة والعداوة ضد الإسلام والمسلمين وبينهم ، على مدى العصور الإسلامية — والتاريخ أكبر شاهد على ذلك — وأنهم لا أيمان لهم ولا عهود ، حذر الله المسلمين من موالاتهم ، وموادتهم ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴿ (١) .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله حق الإيمان لا يوال أفراد أو جماعات منكم اليهود أو النصارى المعادين لكم ولرسولكم ودينكم في شيء ، فلا تعاهدوهم على التناصر من دون المؤمنين ، رجاء أن تحتاجوا إلى نصرتهم إذا خذل المؤمنون وغلبوا على أمرهم ، إن اليهود بعضهم أنصار بعض ، والنصارى بعضهم أنصار بعض ، لاتحاد كل في الضلال ، والكفر برسالة محمد ﷺ ، ولم يكن للمؤمنين منهم ولى ولا نصير .

(١) المائدة ٥١ : ٥٣ .

فاليهود قد نقضوا ما عقده الرسول ﷺ معهم من العهود من غير أن يبدهم بقتال أو عدوان ، فصار الجميع حرباً للرسول ومن معه من المؤمنين فسبب النهي هو ما وقع من اليهود ، ولكن لما أريد النهي لم يقتصر عليهم ، لكى لا يظن المسلمون أنهم مآذونون فى موالة النصارى ، فلدفع ذلك عطف النصارى على اليهود هنا ، لأن السبب الداعى لعدم الموالة واحد فى الفريقين ، وهو اختلاف الدين والنفرة الناشئة من تكذيبهم برسالة محمد ﷺ .

فالنصارى وإن لم يجيء منهم يومئذ أذى للمسلمين — مثل اليهود لعدم وجود دواعيه — فقد وجد منهم بعد ذلك حين وجدت دواعيه وجاور المسلمون تخوم بلاد النصارى بالشام ، وبسبب ذلك حصلت غزوة مؤتة وغزوة تبوك ، بل نرى الأذى واضحاً والعداوة مشتعلة فى كل قطر وجد فيه مسلمون ونصارى على مدى تاريخ الإسلام الطويل ، وخاصة إذا كان المسلمون قلة فيه .

وشدد الله تحذيره من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء فقال : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ أى ومن ينصرهم أو يستنصر بهم من دون المؤمنين وهم أعداء لكم فإنه فى الحقيقة منهم لا منكم ، لأنه معهم عليكم ، ولا يتصور أن يقع ذلك من مؤمن صادق الإيمان ، قال ابن جرير : فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم ، فإنه لا يتولى متول أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض وإذا رضيه ورضى دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه . أهـ

﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ أى إن الله لا يهدى للإيمان الذين ظلموا أنفسهم بمواليتهم لليهود والنصارى من دون المؤمنين .

ثم بين الله أنه لا يسارع فى موالة أهل الكتاب إلا المنافقون فقال : ﴿ فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾ أى فترى ، الذين فى قلوبهم شك ونفاق ، كعبد الله بن أبى وأصحابه يسارعون فى موالة أهل الكتاب ومعاونتهم ، يقولون معتذرين عن ذلك نخاف أن تصيبنا دائرة ، وهى ما يدور من مكاره الدهر ، كأن يظفر الكفار بمحمد ﷺ فتكون الدولة لهم وتبطل دولته ، فيصيبنا منهم ما نكره .

قال تعالى — رداً على مزاعمهم الباطلة — ﴿ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ أى فعسى الله أن يأتي بالنصر لنبيه ، بإظهار دينه ، أو بأمر من عنده تندفع به صولة أهل الكتاب ومن معهم ، وتنكسر به شوكتهم ، ويكون به هتك ستر المنافقين وافتضح أمرهم ، فيصبح المنافقون نادمين على ما كان منهم من موالة أعداء الله من اليهود والنصارى .

﴿ ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾ أى ويقول المؤمنون — تعجباً من حال المنافقين إذ هتك الله أستارهم — أهؤلاء الذين حلفوا لكم — يا معشر اليهود — بأغلظ الأيمان إنهم لمعكم بالنصر والمعونة ، كما حكى الله تعالى عنهم ﴿ وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ قد بطلت أعمالهم ونفاقهم ، فصاروا خاسرين في الدنيا بالفضيحة والذل والهوان ، وفي الآخرة بعذاب النار .

* * *

المبحث الثامن

استهزاءؤهم بالدين الإسلامى وعباداته

وسخريتهم من المسلمين قاصدين بذلك تنفير المسلمين من دينهم ، وتكريهم فيه ، ولذا حذرنا الله من موالاتهم ، وموالاته كل من يتخذ ديننا هزواً ولعباً ، وسفه عقول كل من يعادى الإسلام الدين العالمى الخالد وتشريعاته فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ * وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴿ (١) .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار حلفاء لكم وأنصاراً فإنهم لا يألونكم خبالاً ، ولا يقصرون فى الإضرار بكم ، وتنفيركم من دينكم — وإن أظهروا لكم بمودة وصدقة — لأنهم لا يحترمون دينكم ويسخرون منكم ومن شعائر دينكم ، ويتخذونه هزواً ولعباً ، فبعضهم يظهر الإيمان لكم وهو على كفره مقيم ، وبعد اليسير من الزمن يظهر الكفر بلسانه ، تلاعباً بدينكم واستهزاء بكم .

فخافوا الله — أيها المؤمنون — فى موالاته هؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً إن كنتم صادق الإيمان تحفظون كرامته ، وتجتنبون مهانته ، وتصدقون بالجزاء يوم اللقاء مع الله تعالى ، فمن اتخذ دينكم سخرية لا يصح لكم أن تصادقوه أو توالوه فى حال من الأحوال ، بل يجب أن تبغضوه وتعادوه .

كيف لا وأنتم إذا ناديتهم إلى الصلاة وأذن مؤذنكم داعياً لها سخر من

(١) المائدة ٥٧ ، ٥٨ .

دعوتكم لها من نهيتهم عن موالاتهم ، من أهل الكتاب والمشركين ، واتخذوها هزواً
ولعباً ، لجهلهم بحقيقة الأديان ، وما أوجب الله فيها من تعظيمه والثناء عليه ، بما
هو أهله .

ولو كان عند هؤلاء القوم عقل لخشعت قلوبهم لذكر الله كلما سمعوا المؤذن
يكبر الله تعالى ويوحده ، ويدعو إلى الصلاة والفلاح بمناجاته وذكره ، فهو ذكر
مؤثر في النفوس الصالحة ، لا تخفى محاسنه على من يعقل الحكمة في تشريعاته
تعالى ، ويؤمن بالله العلي الكبير .

* * *

المبحث التاسع

محاربتهم للدعوة الحمديّة في شخص رسولها ﷺ

وإعلان سخطهم عليه ما لم يتبع ملتهم المبنية على تقاليدهم وأهوائهم الباطلة ، قال تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله من ولاى ولا نصير ﴾ (١) . ملتهم : شريعتهم ؛ لأن الطريقة المشروعة للعباد تسمى ملة ؛ لأن الأنبياء أمّلوها وكتبوها لأمتهم ، وتسمى ديناً لأن العباد انقادوا لمن سنّها ، وتسمى شريعة ؛ لأنها مورد للمتعطشين إلى ثواب الله ورحمته .

والمعنى : كان النبي ﷺ يطمع في أن يبادر أهل الكتاب إلى الإيمان به لموافقته لهم في أصول الدين : من توحيد ، وتقويم ما اعوج من الفطرة الإنسانية — بسبب ما طرأ عليها من التقاليد الفاسدة — بالمعارف الدينية الصالحة والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والإيمان بالبعث والجزاء على الأعمال .

فلما تنكروا لدعوته وجحدوها، وبذلوا أقصى ما يستطيعون في محاربتها وصد الناس عنها ، كبر عليه ذلك وشق على نفسه ، فهوّن الله عليه أمرهم ، وأعفاه من مسئولية اهتدائهم في الآية السابقة على هذه فقال تعالى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ .

وفي هذه الآية أيّسه من إيمانهم حتى لا يهلك نفسه ، ويحملها ما لا تطيق من أجلهم طمعاً في إسلامهم ، إذ علق رضاهم عنه بما هو مستحيل أن يكون ، وهو اتباعه ملتهم ، والدخول في دينهم فقال ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى

(١) البقرة ١٢٠ .

حتى تتبع ملتهم ﴿ لأنهم اتخذوا الدين جنسية لا يرضون عن أحد إلا إذا دخل في حظيرتها وانضوى تحت لوائها ، وهذا معناه أن ملتهم هي الهدى وحدها .

ولذا أمر الله رسوله أن يرد على ذلك بقوله ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ أى إن الهدى هو ما أنزله الله على أنبيائه ، لا ما أضافه إليه اليهود والنصارى بالهوى والابتداع ، ففرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل شيعه تكفر الأخرى ، وتقول إنها ليست على شيء .

ثم حذر الله من اتباع أهوائهم فقال :

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ﴾ أهواءهم : هى التى عبر عنها فيما قبل بملتهم ؛ إذ هى التى ينتمون إليها ، وأمّا ما شرعه الله تعالى لهم من الشريعة على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهو المعنى الحقيقى للملة فقد غيروها تغييراً .

أى والله لئن اتبعت ما اخترعوه وأضافوه إلى دينهم ، وجعلوه أصلاً من أصول شريعتهم ، بعد ما حصل لك من اليقين والطمأنينة عن طريق الوحي الإلهى الذى نزل عليك ، ومنه علمت أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه بالتأويل ، وأنهم نسوا حظاً عظيماً منه — إن اتبعتمهم فى ذلك — فالله لا ينصرك ، ولا يساعذك على ذلك ؛ لأن اتباع الهوى ليس طريقاً إلى الهدى ، وإذا لم ينصرك الله ويثول شعونك فمن بعده ينصرك ويرعاها .

وهذا الإنذار الشديد ، والوعيد والتهديد ، وإن كان موجهاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى عصمه الله من الزيغ والزلل ، وأيده بروح من عنده ، هو فى الحقيقة موجه إلى الناس كافة فى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم فهو على حد قولهم « إياك أعنى واسمعى يا جارة » ، أو المراد ولئن اتبعت أهواءهم على سبيل الفرض والتقدير .

* * *

الفصل السادس

من جرائم اليهود ضد الإسلام كما جاءت في القرآن
وبه مقدمة وعشرة مباحث

- ادعاؤهم أنهم غير مكلفين إلا بما أنزل عليهم .
- زعمهم أن المانع من إيمانهم هو عداوة جبريل لهم .
- إنكارهم أن القرآن منزل من عند الله على محمد ﷺ .
- إنكارهم أخذ الميثاق عليهم بالإيمان بمحمد ﷺ .
- إنكارهم لمعجزات النبي ﷺ .
- تفضيلهم وثنية المشركين على توحيد المسلمين .
- طعنهم في الإسلام والمسلمين .
- تعنتهم مع الرسول ﷺ ومحاولتهم تعجيزه .
- جحود اليهود لبعثة النبي ﷺ إليهم .
- ادعاؤهم أنهم أولياء الله دون الناس .

مقدمة

إن جرائم اليهود ، ومكائدهم ضد الإسلام والمسلمين عديدة وقديمة ، فقد ولدت منذ ولدت الرسالة المحمدية ، وازدادت عداوة اليهود للإسلام والمسلمين شدة وضراوة ، وناوها اضطراباً واشتعالاً عندما هاجر الرسول الكريم وصحبه الأختيار إلى المدينة ، وتجاوز فيها الدينان ، ويصور هذه العداوة والحقد الدفين المشتعل في قلوب اليهود ، ويؤكدها الحوار الذي دار بين أبي ياسر وأخيه حبي بن أخطب زعيم بنى النضير — بعد أن اجتمعا بالرسول ﷺ في أول أيام هجرته إلى المدينة في بنى عمرو بن عوف بقاء يوماً كاملاً من قبل طلوع الشمس حتى غروبها — حيث قال أبو ياسر لأخيه حبي بعد أن عادا من عنده ﷺ : أهو هو؟ قال : نعم والله . قال : أتعرفه بنعته وصفته؟ قال : نعم والله . قال فماذا في نفسك منه ؟ قال : عداوته ما بقيت (١) .

فتمتد الهجرة ومكائد اليهود للإسلام وأهله تتابع وتشدت حقداً ، وتميز نفوسهم غيظاً وحنقاً ، وتشتعل حسداً وبغضاً ضد الإسلام ورسوله ﷺ . وحسبك أنها كانت السبب في إشعال نيران معظم الحروب التي وقعت في حياته ﷺ ، وأن اليهود دبروا عدة مؤامرات لقتل الرسول ﷺ لولا عناية الله به ، وحفظه له .

وأن اليهودية كانت هي المدبرة للفتنة الكبرى التي تولى كبرها عبد الله بن سبأ وأدت إلى قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ظلماً وعدواناً ، وأشعلت بين المسلمين حروباً ضروساً أكلت الأخضر واليابس ، وحصدت فضلاء الصحابة ، وخيرة التابعين ، ولا زال العالم الإسلامي يقاسى نارها حتى اليوم .

وقد حكى القرآن الكريم كثيراً من أباطيلهم وعديداً من مفترياتهم ، ودمغها بالحجة والبرهان ، وإليك البيان لبعضها في المباحث التالية :

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢ / ١١٩ .

المبحث الأول

ادعائهم أنهم غير مكلفين إلا بما أنزل عليهم

فقد كانوا عندما يدعون إلى الدخول في الإسلام ، والإيمان بالقرآن يقولون إننا مكلفون بألا نؤمن إلا بما أنزل على أنبياء بنى إسرائيل ، كالتوراة والزبور ، وقد ذكر الله دعواهم هذه ، ودحضها بالحجة والبرهان ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَقَالُوا تَوْمَنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ .

والمعنى : أنه إذا قال الرسول ﷺ وأصحابه لليهود المعاصرين له : آمنوا بما أنزل الله من القرآن على محمد ﷺ قالوا : نؤمن بما أنزل علينا من التوراة وغيرها ويكفرون بما عداه من القرآن الكريم ، والحال أنه هو الحق الذي لا تحريف فيه ولا تبديل ، والمصدق لما معهم من التوراة في العقائد وأمهات العبادات والأخلاق ، ونعته ﷺ .

ولقد كذبوا فيما يدعون من إيمانهم بما أنزل عليهم من التوراة ، لأن كفرهم بهذا الكتاب المصدق لما في كتابهم هو كفر بكتابهم نفسه ، فهم كاذبون في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم إذا لم يؤمنوا بمحمد ﷺ الذي بشرت به توراتهم وأمرتهم بالإيمان به .

(١) البقرة ٩١ : ٩٣

ثم امر الله رسوله أن يبين لهم بطلان إيمانهم بما في كتابهم بأمر ثلاثة : قتلهم الأنبياء بغير حق ، وعبادتهم العجل ، وقولهم — حين أخذ عليهم الميثاق بالإيمان والعمل بما في التوراة — سمعنا وعصينا ، فقال :

قل لهم — يا محمد — موبخاً ومنكراً عليهم دعوى إيمانهم : فلم قتلتم أنبياء الله من قبل محمد ﷺ إن كنتم مؤمنين بالتوراة ، فقتلهم محرم عليكم فيها أشد تحريم ، فهو أقطع دليل على عدم إيمانكم برسالتهم .

بل لقد كفرتم — أيها اليهود — كفراً صريحاً بكتابكم ، ورجعتم إلى الشرك في عهد موسى عليه السلام نفسه ، فلقد جاءكم بالبينات والمعجزات الناطقة بصدقه ، وحقيقة نبوته ، لكنكم لم تلبثوا — حين تغيب عنكم لمناجاة ربه — حتى عدتم لعبادة العجل ، ورجعتم إلى سابق وثنييتكم ، وأنتم ظالمون لأنفسكم .

واذكر لهم — يا محمد — وقت أن أخذنا عليهم الميثاق المؤكد بأن يعملوا بما في التوراة ورفعنا فوقهم الطور إذ ذاك إرهاباً لهم ، وقال الله لهم : خذوا ما آتيناكم بجد ونشاط ، واسمعوا ما فيها سماع قبول ، فما كان من آباءهم إلا أن قالوا : سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ، وعبدوا العجل ، وخالط حبه شغاف قلوبهم .

قل لهم — يا محمد — إن كان إيمانكم بالتوراة يدعوكم إلى هذا فبئس شيئاً هذا الإيمان ، الذي ألقى بكم في الكفر والعصيان .

* * *

المبحث الثالث

زعمهم أن الذى يمنعهم من إيمانهم

هو عداوة جبريل — عليه السلام — لهم

وقد بين الله فضل جبريل — عليه السلام — وفضل ما نزل به ، وتوعد من عاداه ، فقال تعالى : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين * من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ (١) .

سبب النزول : أن عبد الله بن سوريا من علمائهم سأل النبي ﷺ عن الملك الذى ينزل عليه بالوحى ، فقال : هو جبريل ، فزعم أنه عدو اليهود ، وذكر من عداوته أنه أنذرهم خراب بيت المقدس فكان ، ومنها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل مدراسهم ، فذكر جبريل فقالوا : ذاك عدونا ، يطلع محمداً على أسرارنا ، وأنه صاحب كل خسف وعذاب ، وميكائيل صاحب الخصب والسلم (٢) .

وقال ابن جرير الطبرى (٣) : أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولى لهم . أهـ

(١) البقرة ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) ذكر ذلك صاحب المنار فى تفسيره ١ / ٣٩٢ .

(٣) فى تفسيره ١ / ٣٤١ .

والمعنى : قل لهم — يا محمد — من كان عدواً لجبريل فهو عدو الله ؛ لأن جبريل ما جاء بهذا الكتاب من عنده ، بل من عند الله ، وإنما ينزله بأمره تعالى مصداقاً لما سبقه من الكتب السماوية ، ومصداقاً لكتابهم نفسه ، وهدى من الضلالة وبشرى للمؤمنين بالجنة .

من كان عدواً لله وملائكته ، وخاصة جبريل وميكال ، ورسله ، وخاصة عيسى ومحمد — عليهما الصلاة والسلام — فإن الله عدو له ، ومجازيه أشد الجزاء ، لأن العداوة لكل من هؤلاء كفر ، وجزاء الكفر الخلود في النار .

* * *

المبحث الثالث

إنكارهم أن القرآن منزل من عند الله على محمد ﷺ

وغيرهم بذلك الطعن في كونه معجزة للنبي ﷺ ، فعن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : « قال ابن سوريا الفطيوى (١) لرسول الله ﷺ : يا محمد ، ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بينة فتبعك ، فأنزل الله في ذلك قوله : ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ (٢) .

والمعنى : ولقد أنزلنا إليك — يا محمد — آيات واضحات الدلالة على معانيها ؛ لأنها لإعجازها ، وبقرن المسائل الاعتقادية ببراهينها لا تحتاج إلى دليل آخر ، كالضوء يظهر الأشياء ، وهو ظاهر في نفسه ، وما يكفر بها إلا الخارجون عن الفطرة ، والمارقون عن دين الله .

* * *

(١) الفطيوى : كلمة عبرانية تطلق على كل من تولى أمر اليهود ، وملكهم .
(٢) ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره ١ / ١٣٣ ، والآية ٩٩ من سورة البقرة .

المبحث الرابع

إنكارهم أخذ الميثاق عليهم بالإيمان بمحمد ﷺ

فقد قال مالك بن الصيف — حين بعث رسول الله ، وذكر ما أخذ عليهم من الميثاق ، وما عهد إليهم في محمد : والله ما عهد إلينا في محمد ، ولا أخذ علينا ميثاقاً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

والمعنى : أكفروا بالآيات وقالوا ما قالوا ، وكلما عاهدوا الله ورسوله ، أو المسلمين ، أو غيرهم عهداً نبذته جماعة منهم ؛ لأن معظمهم لا يؤمن بحرمة عهد ، ولا بقداسة ميثاق ، وفيه من أخبار الغيب أن أكثرهم لا يؤمنون بالنبي ﷺ ، ولا يوفون بعهودهم .

* * *

(١) لباب النقول للسيوطي ١ / ١٦ ، والآية ١٠٠ من سورة البقرة .

المبحث الخامس

إنكارهم لمعجزات النبي ﷺ توسلاً إلى إنكار رسالته

فقد قالوا : إنهم ما تركوا الإيمان بمحمد حسداً له ، ولا بغضاً فيه ، وإنما تركوا الإيمان به ، لأنه لم يأت بالمعجزات التي أتى بها الأنبياء السابقون ، فهو ليس نبياً صادقاً في زعمهم ، وقد حكى الله قولهم ، ورد عليهم بما أفحمهم ، فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهَدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا بِقُرْيَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

والمعنى : أن اليهود يقولون : إن الله عهد إليهم في كتابهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق من أمته بصدقة فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء فتأكلها ، وقد أمر الله نبيه أن يرد عليهم بما يفحمهم ويسكتهم ، فقال : قل لهم . قد جاءكم رسل من قبلي أمثال زكريا ويحيى وعيسى ، بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، وبنار تأكل القرابين المتقبلة ، فلم سعيتم في قتلهم إن كنتم صادقين في وعدكم بالإيمان بالحق ، وتصديق الرسول عندما يتحقق ما تريدون ؟ .

* * *

(١) آل عمران ١٨٣ .

المبحث السادس

تفضيلهم وثنية المشركين على توحيد المسلمين

فقد أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : « كان الذين حزّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة ، حبي بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق ، وأبو رافع ، والربيع بن أبي الحقيق ، وأبو عمارة ، وهوذة بن قيس ، وكان سائرهم من بنى النضير ، فلما قدموا على قريش ، قالوا : هؤلاء أحبار يهود ، وأهل العلم بالكتب الأولى ، فاسألوهم ، أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم ، فقالوا : دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه ومن اتبعه . فأنزل الله : ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ (١) إلى قوله : ﴿ ملكاً عظيماً ﴾ (٢) .

الجبت : كل ما خضع له الناس من دون الله من شيطان أو ساحر ، أو كاهن . والطاغوت : كل ما تكون عبادته والإيمان به سبباً للطغيان ، والخروج عن الحق ، من مخلوق يعبد ، أو رئيس يقلد ، أو هوى يتبع . وروى عن عمر ومجاهد أنه الشيطان .

فهل سمعتم بيهتان واقتراء على الإسلام — دين التوحيد والعمل الصالح والخلق الكريم — أقبح وأشد من هذا ؟ .

(١) النساء ٥١ .

(٢) لباب النقول للسيوطي ١ / ٨٢ .

المبحث السابع

طعنهم في الإسلام والمسلمين

حيث يدعون — زوراً وبهتاناً — أن الإسلام شر الأديان وأن المسلمين أتعس حظاً من غيرهم في الدنيا والآخرة ، وقد حكى الله بهتانهم وذكرت السنة افتراءهم ، ورد الله كيدهم في نحورهم ، وذكر أنهم أسوأ الناس خاتمة ونكالاً ، وشرهم جزاء وعذاباً فقال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل ﴾ (١) .

سبب النزول : أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود ، فيهم أبو ياسر بن أخطب ، ورافع بن أبي رافع وعازر ، وزيد ، وخالد ، وأزار بن أبي أزار ، وأشيع ، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل ؟ »

قال : « أوؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا لا تؤمن بمن آمن به ، فأنزل الله فيهم : ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ﴾ (٢) .

(١) المائدة ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٦ / ١٨٩ ، واللفظ له ، ولباب النقول للسيوطي ١ / ١١٤ .

والمعنى : قل — يا محمد — لأهل الكتاب هل تعيينون علينا من شيء ،
وتنكرون منا إلا إيماننا الصادق بالله ، وتوحيده وإثبات صفات الكمال له ،
وإيماننا بما أنزل إلينا وبما أنزل من قبل على رسله ، لقلة إنصافكم ولأن أكثركم
فاسقون ، خارجون عن حظيرة الإيمان الصحيح ، والطريق المستقيم فما تعيينونه
علينا ليس مما يعاب وينقم منه ، بل يمدح صاحبه ويكرم ، ولكنكم لفسقكم ،
وخروجكم من حظيرة الدين الصحيح عيتم الحسن من غيركم ورضيتم بالقبيح من
أنفسكم .

قل لهم — يا محمد — هل أخبركم بما هو شر من عملكم هذا الذى تعيينونه
علينا ثواباً وجزاء ثابتاً عند الله ، هو جزاء من طرده الله من رحمته وسخط عليه
بسيئته ، وانطلاقه فى المعاصى بعد وضوح الآيات ، ومسوخ بعضهم قرده
والتأزير ، وجعل منهم من عبد الشيطان بطاعته له ، هؤلاء الملعونون الموصوفون
بتلك القبائح والفضائح شر مكاناً فى الآخرة ، وأكثر ضلالاً عن الطريق
المستقيم .

* * *

المبحث الثامن

تعنتهم مع الرسول ﷺ ، ومحاولتهم تعجيزه

فقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إن موسى جاءنا بالألواح من عند الله فأتنا بالألواح حتى نصدقك ، فأنزل الله ﴿ يسألك أهل الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ بهتاناً عظيماً ﴾ فبحثنا رجل من اليهود ، فقال : ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ، ولا على أحد شيعاً^(١) ، فأنزل الله : ﴿ وما قدروا الله حق قدره . . ﴾^(٢) الآية وإليك الآيات التي تحكى بعض جرائمهم :

قال تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذت العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً * ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * فما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . . ﴾^(٣) .

معاني المفردات : الصاعقة : هي صوت شديد مزعج يصدر من جهة العلو مصحوب بما فيه هلاك ، من نار تحرق ، أو رياح تدمر ، أو غير ذلك . ثم اتخذوا العجل : جعلوه إلهاً وعبدوه ، والعطف بـ « ثم » للترقي في الجريمة . لا للترتيب

(١) لباب النقول للسيوطي ١ / ١٠٢ ، والآية ١٥٣ ، ١٥٦ من سورة النساء .

(٢) الأنعام ٩١ .

(٣) النساء ١٥٣ : ١٥٦ .

الزمنى ، لأن انخاضهم العجل كان من قبل طلبهم الرؤية . سلطانا مبينا : المراد سلطة ظاهرة قاهرة ، فأخضعناهم له مع شدة تمردهم حتى أمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا . ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم : بسبب أخذ الميثاق عليهم . الباب : أى باب القرية التى أمرهم الله بدخولها . سجدا : خاضعين لله . لا تعدوا فى السبت : لا تتجاوزوا حدود الله بالصيد فى يوم السبت . ميثاقاً غليظاً : عهداً مؤكداً . فما نقضهم ميثاقهم : أى فسبب نقضهم العهد لعناهم . قلوبنا غلف : أى مغلفة بما يمنع عنها فهم ما تقول يا محمد . طبع الله عليها : ختم الله عليها عقاباً لهم . وبكفرهم : أى بكفر اليهود بنبوة عيسى . بهتاناً : أى كذباً يبهت العقول ويحيرها .

والمعنى يسألك — أيها الرسول — أهل الكتاب من اليهود متعنتين ، أن تقيم دليلاً على صدق رسالتك ، فتأتيهم بكتاب خاص ، ينزل عليهم من السماء بصدق رسالتك ، ويدعوهم إلى الإيمان بك ، فإن تعاضمت ذلك فلا تعجل ، فقد سألت أسلافهم موسى أعظم منه ، فقالوا : أرنا الله عياناً ، فعاقبهم الله على ذلك بصاعقة أهلكتهم ، ثم اذكر لهؤلاء جرماً أشد وأفظع ، وهو أنهم اتخذوا العجل وجعلوه إلهاً لهم ، عبده من دون الله ، بعدما عاينوا الأدلة التى أظهرها موسى لفرعون وقومه ، ثم عفا الله عنهم بعد توبتهم ، وإنابتهم إليه ، وأيد الله موسى بالحجة الواضحة والكلمة النافذة :

ورفع الله الجبل فوق بنى إسرائيل تهديداً لهم لامتناعهم عن قبول شريعة التوراة حتى قبلوها . وأخذ عليهم الميثاق ، وأمرهم أن يدخلوا القرية خاضعين لله ، وألا يتجاوزوا ما أمرهم بالتزامه من العبادات فى يوم السبت ، ولا يعتدوا فيه ، وأخذ عليهم فى كل ذلك عهداً مؤكداً .

فغضب الله عليهم بسبب نقضهم هذا الميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء ظلماً وعدواناً ، ولا يكون قتلهم إلا كذلك ، وإصرارهم على الكفر بقولهم : قلوبنا مغلفة بما يمنع عنها فهم ما يقول محمد ، وليسوا صادقين فى قولهم هذا ، بل ختم الله عليها عقاباً لهم بسبب كفرهم ، فلا يؤمن منهم إلا قلة ، وغضب الله عليهم بسبب كفرهم بنبوة عيسى ، وافترائهم على مريم افتراء كثيراً يبهت العقول ويحيرها .

المبحث التاسع

جحود اليهود لبعثة النبي ﷺ إليهم

ينكر اليهود أن الرسول محمداً ﷺ بعث إليهم ، ويجحدون ما جاء عنه في التوراة ، ولا يستحيون أو يخجلون من مواجهة الرسول ﷺ ، بهذا الجحود ، فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : يا معشر اليهود ، ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا ، وأنى جئتكم بحق ، فأسلموا ، قالوا : ما نعلمه ، قالوا للنبي ﷺ ، قالها ثلاث مرات . . . » الحديث رواه البخارى (١) .

فقد أثبت هذا الحديث أن الرسول ﷺ مرسل إليهم ، كما هو مرسل إلى غيرهم وأن ذلك ثابت في التوراة ، كما أثبت جحودهم لرسالته إليهم ، مع إيمانهم بها في قرارة أنفسهم .

وقد سجل القرآن الكريم أن رسالته ﷺ إلى اليهود وغيرهم جاءت بها التوراة وغيرها من كتب الله السابقة ، ولكن اليهود والنصارى لا يعملون بمقتضى ما جاء فيها .

فقال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴿٢﴾ أى الذى يجدون نعته ، وصفته فى التوراة والإنجيل ، قال ابن كثير (٣) : هذه صفة محمد ﷺ ، فى كتب

(١) فى ١٦٢ / ٥ .

(٢) الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٣) فى تفسيره ٢٥١ / ٢ .

الأنبياء ، بشروا أهمهم ببعثه ، وأمرهم بمتابعتة ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم . أهـ

كما شنع القرآن الكريم على اليهود إنكارهم لرسالة نبينا محمد ﷺ إليهم فقال تعالى — في تفرغ ونقد لاذع — : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (١)

أ، إن هذا النبي الذي تقولون إنه أرسل إلى العرب خاصة ، ولم يرسل إليكم ، هو ذلك النبي المنعوت في التوراة ، والمبشر به فيها ، فكيف تنكرون نبوته وكتابكم يحض على الإيمان به ؟ .

فيما مثلكم في حملكم التوراة مع عدم العمل بما فيها إلا مثل الحمار الذي يحمل الكتب النافعة الضخمة ، ولا يدري ما فيها ، ولا يناله منها إلا التعب والعناء من غير انتفاع له بما حمل .

وقال الشيخ زادة : (٢) ذم الله تعالى اليهود بأنهم قراء التوراة عالمون بما فيها وفيها آيات دالة على صحة نبوة محمد ﷺ ، ووجوب الإيمان به ، ولكنهم لم ينتفعوا بها مما ينجيهم من شقاوة الدارين وشبههم بالحمار الذي يحمل أسفار العلم والحكمة ولا ينتفع بها ، ووجه التشبيه حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء في الانتفاع مع الكيد والتعب

ثم بين الله قبح هذا المثل ، وشدة وقعه على من يعقل ويتدبر فقال ﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴾ أي بئس هذا المثل الذي ضرب لليهود مثلاً للقوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على نبوة محمد ﷺ ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ لأنفسهم ، إذ هم دسوها حتى أحاطت بها الخطيئة ، وأعمت أبصارهم ، ورائت على قلوبهم ، فلم تر نور الحق ، ولم تشعر بحجة ولا برهان ، بل هي في ظلام دامس ، لا تهتدي لطريق ، ولا تصل إلى غاية .

(١) الجمعة ٥ .

(٢) في حاشيته على البيضاوي ٣ / ٤٩٤ .

المبحث العاشر

ادعائهم أنهم أولياء الله من دون الناس

يدعى اليهود أنهم أولياء الله من دون الناس ، وشعبه المختار ، وأصحاب الفضيلة على غيرهم ، فيقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، ويزعمون أن لهم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، وأن محمداً وأصحابه في ضلالة عن الحق .

وقد أكذبهم الله فيما يقولون ، وأبطل مزاعمهم الداحضة بالبراهين الدامغة ، والحجج المسكنة فقال تعالى :

﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (١) .

أى قل — يا محمد — لهؤلاء الذين تهودوا ، وتمسكوا بجملة اليهودية : إن كنتم أولياء الله وأحباؤه حقاً ، وأنكم على هدى من ربكم ، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة — كما تدعون — فتمنوا من الله أن يميتكم ، لتنتقلوا سريعاً إلى دار كرامته التى أعدها لأولياؤه إن كنتم صادقين فى هذه الدعوى فإن من يقين بأنه من أهل الجنة أحب أن يتخلص إليها من هذه الدار التى هى مقر الأعداء .

قال تعالى — مكذباً لهم ، ومبيناً سوء أعمالهم — وقبح فعالهم : ﴿ ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾ أى ولا يتمنون الموت بحال من الأحوال

(١) الجمعة ٦ : ٨ .

بسبب ما قدموه من الكفر والضلال ، والمعاصي وسيء الأعمال ، وتكذيبهم محمداً ﷺ ، وفي الحديث « والذى نفس محمد بيده لو تمنوا الموت ما بقى على ظهرها يهودى إلا مات » (١) .

وقال الألوسى (٢) : لم يتمن أحد الموت منهم ، لأنهم كانوا موقنين بصدقه عليه السلام ، فعلموا أنهم لو تمنوه لماتوا من ساعتهم ، وهذه إحدى المعجزات .
أهـ

﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ أى عالم بهم وبما صدر عنهم من أنواع الظلم والمعاصي ، وسيجازيهم عليها بأشد أنواع العذاب ، ووضع الظاهر موضع المضمرة ذمماً لهم ، وتسجيلاً عليهم أنهم ظالمون .

وفي سورة البقرة قال تعالى — مؤكداً لما هنا ، وفاضحاً لهم فى عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه إبدأ بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾ (٣) .

ثم بين الله لهم أنه لا فائدة من الهروب من الموت ، فإنه آت لا محالة فقال تعالى : ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (٤)

أى قل لهم — يا محمد — إن هذا الموت الذى تهربون منه وتخافون أن تتمنوه حتى بلسانكم فإنه آتاكم لا محالة ، ولا ينفعكم الفرار منه ﴿ أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ (٤) لأنه قدر محتوم ، فلا فائدة فى الحذر منه .

(١) تفسير القرطبي ١٨ / ٩٦ .

(٢) فى تفسير روح المعاني ٢٨ / ٩٦ .

(٣) البقرة ٩٤ — ٩٦ .

(٤) النساء ٧٨ .

ثم ترجعون بعد مماتكم إلى عالم رب السموات والأرض فيخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من حسن وسيء ، ثم يجازيكم على كل بما تستحقون ، وفي هذا ما فيه من التهديد ، وعظيم الوعيد .

هذا : والله الحمد في الأولى والآخرة ، وهو العليم الحكيم .

وبعد : فأرجو أن أكون قد قمت ببعض الواجب لدين الحق والقرآن العظيم ، والرسول الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين .

* * *

الفهرس

الصفحة

الموضوع

- المقدمة : ٣
- الفصل الأول : في الرد على ماجاء في رسالة القمص زكريا بطرس
عما يتعارض مع ماجاء به القرآن الكريم ١٠
- المبحث الأول : الله ليس كمثل شئ ١١
- المبحث الثاني : لا يعرف الله إلا الله ١٢
- المبحث الثالث : دحض افتراءات النصارى أن الثالوث مذكور
في آيات القرآن ١٣
- التوحيد والتثليث نقيضان لا يجتمعان في القرآن ١٤
- القرآن الكريم يحطم الثالوث ويتوعد الداعين إليه ٢٢
- حول عقيدة الثالوث وبنائها على الأهواء الباطلة ٣٧
- المبحث الرابع : منشأ عقيدة التثليث ٤١
- المبحث الخامس : القرآن لا يشهد بالتوحيد للمسيحيين المعاصرين
لنزوله ولم يؤمنوا به وبرسوله ٤٥
- المبحث السادس : والقرآن لا يشهد للمسيحيين أنهم غير
مشركين ٥٦
- المبحث السابع : والقرآن لا يشهد للمسيحيين أنهم غير كفرة ... ٦٣
- المبحث الثامن : المسيح -- عليه السلام - ابن مريم وليس ابن
الله ٦٨
- المبحث التاسع : المسيح - عليه السلام - ليس هو الله ٧٥
- المبحث العاشر : الله منزه عن التجسد والحلول ٨٣
- المبحث الحادى عشر : حول عقيدة التجسد والحلول والصلب ... ٨٩

- الفصل الثاني : في الرد على ماجاء في رسالة البابا شنودة مما
يتعارض مع ماجاء به القرآن الكريم ٩٣
المبحث الأول : خلق آدم أعجب من خلق عيسى عليهما
السلام ٩٥
المبحث الثاني : معجزة كل نبي من جنس ماشتهر به قومه ٩٦
المبحث الثالث : القرآن مصدق لما أنزله الله في الكتب السابقة
ولم يحرف ٩٨
المبحث الرابع : الأدلة القرآنية على تحريف الكتب السابقة ١٠١
المبحث الخامس : ما لا يصدقه القرآن من التوراة والإنجيل ١٢٣
إنكار أهل الكتاب نسخ شريعة القرآن لشريعتهم ١٢٦
المبحث السادس : عالمية الرسالة المحمدية ونسخها لغيرها ١٢٩
المبحث السابع : دحض بعض أباطيل البابا شنودة ١٤٥
المبحث الثامن : البراهين العقلية والعلمية على عالمية الرسالة
المحمدية ونسخها لغيرها ١٤٧
المبحث التاسع : دحض افتراءات البابا شنودة حول إعجاز
القرآن وخلوده ١٥٨
المبحث العاشر : البابا شنودة يقلب الحقائق ١٨٥
المبحث الحادي عشر : البابا شنودة يحرف كلم القرآن عن
مواضعه ١٨٧
المبحث الثاني عشر : البابا شنودة يؤول آيات القرآن تبعا لهواه .. ١٩٣
الفصل الثالث : أهل الكتاب كفروا بالرسالة المحمدية وعلمائهم
موقنون بحقيتها ٢٠٠
المبحث الأول : علماء أهل الكتاب يعلمون يقينا أن القرآن
حق ٢٠١
المبحث الثاني : علماء أهل الكتاب يعلمون يقينا أن محمدا
ﷺ صادق في دعواه الرسالة ٢٠٥

- المبحث الثالث : من لم يؤمن من أهل الكتاب برسالة محمد ﷺ و كتابه فهو كافر ومخلد في النار ٢١٣
- الفصل الرابع : في الرد على افتراءات المبشرين ٢٢٥
- المقدمة : في اتهام المبشرين الإسلام بالإكراه في الدين والتعصب والدعوة إلى الفجور ٢٢٦
- المبحث الأول : دحض جريمة اتهام الإسلام بالإكراه في الدين ٢٢٨
- المبحث الثاني : دحض جريمة اتهام الإسلام بالتعصب ٢٣٩
- المبحث الثالث : دحض جريمة اتهام أصحاب محمد ﷺ بالفجور ٢٥٨
- المبحث الرابع : سحق جريمة تشكيك المبشرين في القرآن ٢٦٣
- المبحث الخامس : سحق جريمة تشكيكهم في نبوة محمد ﷺ ٢٦٨
- المبحث السادس : بذل المبشرين نهاية جهدهم لإخراج المسلمين من دينهم ٢٧٨
- المبحث السابع : الواجب على المسلمين للحفاظ على دينهم من هذا التيار الجارف ٢٨٥
- المبحث الثامن : اتهامهم الإسلام بأنه السبب في انتشار الجهل وتخلف شعوبه ٢٨٧
- المبحث التاسع : دحض هذا الافتراء ٢٨٩
- المبحث العاشر : مراحل تطور التعليم في الأمة الإسلامية ٢٩٤
- المبحث الحادى عشر : سبب تأخر المسلمين في العصور الوسطى ٣٠٢
- المبحث الثانى عشر : كيف يستعيد المسلمون مجدهم التليد ٣٠٦
- الفصل الخامس : محاربة أهل الكتاب للدعوة المحمدية ٣١٠
- المبحث الأول : ادعاء كل من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملته ٣١٢

- المبحث الثاني : ادعاء كل منهم أن غيره ليس على شيء من الدين ٣١٥
- المبحث الثالث : ادعاء كل منهم أن لا دين إلا دينه وأن لا هدى إلا في اتباعه ٣١٧
- المبحث الرابع : ادعاء كل من اليهود والنصارى أن دينه هو الأحق بالاتباع وأن ابراهيم - عليه السلام - كان تابعا له ٣١٩
- المبحث الخامس : سعى الكثير من أهل الكتاب في إضلال المسلمين ٣٢١
- المبحث السادس : تعالى أهل الكتاب على الإسلام والمسلمين ٣٢٣
- المبحث السابع : سعيهم في تمزيق وحدة المسلمين وإشغال نيران الفتن ضدهم ٣٢٥
- المبحث الثامن : استهزاؤهم بالدين الإسلامي وعباداته ٣٢٨
- المبحث التاسع : محاربتهم للدعوة المحمدية في شخص رسوله ﷺ ٣٣٠
- الفصل السادس : من جرائم اليهود ضد الإسلام كما جاءت في القرآن ٣٣٢
- مقدمة : ٣٣٣
- المبحث الأول : ادعاؤهم أنهم غير مكلفين إلا بما أنزل عليهم ... ٣٣٤
- المبحث الثاني : رعمهم أن الذي يمنعهم من إيمانهم هو عداوة جبريل - عليه السلام - لهم ٣٣٦
- المبحث الثالث : إنكارهم أن القرآن منزل من عند الله على محمد ﷺ ٣٣٨
- المبحث الرابع : إنكارهم أخذ الميثاق عليهم بالإيمان بمحمد ﷺ ٣٣٩
- المبحث الخامس : إنكارهم لمعجزات النبي ﷺ توسلا إلى إنكار رسالته ٣٤٠

- المبحث السادس : تفضيلهم وثنية المشركين على توحيد المسلمين ٣٤١
- المبحث السابع : طعنهم في الإسلام والمسلمين ٣٤٢
- المبحث الثامن : تعنتهم مع الرسول ﷺ ومحاولتهم تعجيزه ٣٤٤
- المبحث التاسع : جحود اليهود لبعثة النبي ﷺ إليهم ٣٤٦
- المبحث العاشر : ادعاؤهم أنهم أولياء الله من دون الناس ٣٤٨
- الفهرس ٣٥١

* * *